محمد السرغيني

الأعمال الكاملة

الجزء الثاني

2. الدواوين الشعرية

منشورات



وزارة الثقافة

محمد السرغيني

الأعمال الكاملة

دواوين شعرية

الجزء الثاني

منشورات



وزارة الثقافة

محمد السرغيني : الأعمال الكاملة (الجزء الثاني)
الإيداع القانوني : 2007/0264
ردمــــك : 9981-0-4095-1
سحــب : مطبعة دار المناهل - 2007

القسم الأول

من فعل هذا بجماجمكم ؟

"يوتوبيا لاند"

عـذري في إِخـفـاء العـاهة عنكم أقـوى من مـعنى اسـتـخـفـافي بالأسماء المكسوة بالإطراء العاري والتأبين الأعرى.

عذري أن الطرق على ألياف المعدن ميلاد للنمش على وجْهِ أسيرٍ لمتونيٍّ قَايَضْناه بآلاف الأسرى.

عذري أن استهلال السيرة بالمعنى القدحيّ حريٌّ بسلحفاة الصين وأحرى بالجاموس القفقاسيّ التأويلات الأخرى.

I

جاؤوا من "الأورال" زحفاً. فصدوا دمهم الأزرق في "الدانوب" يا مملكة الرعاة ! خيرٌ منك أن ينزل لي المغول عن معاطف الوبر. خيرٌ منك أن أجد في الصخرة تمثالي وباقة التوابل. وإلا ما الذي تعنينه بامرأةٍ نفخ فيها رجلٌ من روحه بالاقتراع العلنيِّ ؟ ما الذي تعنينه بالجدل الصاعد وانتخابِها الطبيعيّ ؟

يدخل في أرزة "بعلبك" عرعارٌ بيزنطيٌّ، ومنه ينحتون امرأةً تمثالُها النصفيُّ منْسُوبٌ إلى عصر الإمارة وقبرين من الشمع. وفي "باب عجيسة" يقولون عن الغجر قولاً سائبا.

II

وساوموا بملء أحرف الهجاء سُفْرةً ينقدح الشررُ من عَدَسِهَا اليابسِ، من بَصَلِهَا الذابلَ كي يقتنع الآكل بالفُتات والضاحكُ بالدمع الصناعيّ. وحين جَعلوا السُّفرة آية على دمائنا الزرقاء، قلنا : "هذه سابقةٌ خطيرةٌ في حقِّ سبعِمائةٍ من السنين كان فيها زامرُ الحيِّ

إذا طرب يحتاط من المزمار.

أوصى "أبو عنانَ" قبل موته بساعة الماء لكي ينكسر الزمنُ في دقّاتها الألفِ، وجاء وارثٌ بساعةٍ سريّةٍ ثانيةٍ تبوح بالزمن دون صحوة الماء الذي انبجس من "مغارة العزباء".

III

لَمَّعَ "دانتي" و"بياتريسُ" براحتيهما خَالَهُمَا الأمْرَذَ، ثم أطرياهُ وأبَاحَا للهوى دمَهُمَا الأزرقَ. يُوثِرُ العشيقةَ التي يُحبُّها مقطوعةَ اليدين حتَّى يستَرِدَّ الخالَ منها دون أن تلطمه يدٌ من اليدين. تُوثرُ العشيق آخِذاً من جسد الأرض عصاهُ وكُساحَه العجيبَ. آخذاً من المجانينِ جنونَ عِشقهمْ وهم على بوَّابة الثمانين.

وحيث إنَّ العاشقيْن يُشْرفانِ بالتناوب على مستودع الأموات في الفردوس والجحيم، يجمل بـ"جرف الملح" أن يعتدَّ بابنهِ المكوَّنِ من الرَّغوة والجرجير والبرسيم والتجريد.

IV

غريقاً في بحرٍ لُجَّتُهُ المعروفُ وساحلُه الجودُ يواسي "كسرى" مكسوراً. يتشفَّى في والي "الرِّقّة" منصوراً. يتولَّى تمويلَ حروب البلقانِ. دمٌ أزرقُ في الشّريان. "الكَافِيَارُ" غنيٌّ باليُود. فيا حيتان النَّار تعالين إلى كِلْمَاتٍ بيضاءَ سواء بين اللُّجةِ والساحل ألاَّ تَأكُلْنَ الدُّود من المعنى في عصر هذا الدودُ الماشي من إفرازاته.

من أخبركم أنِّي بَلْقَنْتُ "الفولجا" وأبحت النهرَ المتجمِّدَ للعسكر، والكافيارَ إلى البحَّارة، والرُّوبْلَ المسكوكَ إلى السُّوقِ السَّوداءِ، ومن أخبركم أنِّي دوَّنْتُ "البيدق" في حولياتي ؟

V

مَنْ سمَّى "زالاغَ" الأصهبَ سمَّى "أولُمْبَ" البُنِّيَّ، ولم يختر "لِلَّمْتُونِيِّ" "دليل الخيرات"، ولا للإغريقيِّ "الإلياذةَ" إلا لممارسة العزل الطبيِّ وتحديد النَّسْلِ. دماءٌ زرقاءُ ملطخةٌ باللونين معاً، وتريد الأسْطُورَةُ موتاً هُومِيرُوسِياً للمَلِكِ الضّلّيلِ، ويخشى من صوت

يلقي بالتعليمات إلى صوتٍ كُورَالِيٍّ تبدو فيه الأنثَى رَاءً ملثوغة.

يا أحفادي ! يا خلعاء عشائركم ضَاقَتْ "بابْنِ الوَرْدِ" الأرض بما رَحُبَتْ، وله عينا ظبي. يا اتباعي الغاوين ! اتَّخِذوا خِلاناً من غزلان البيد وأهلاً ! مسكٌ بعضُ دمِ الغزلان.

VI

"جِيلِيزُ" مُقوّىً بالقصدير، محاطٌ بالحرَّاس السبعة، يمحو الحمرة من وجهي إذ يمحو من "أجْدَالَ" تعاليمي بدِمَاءٍ زَرْقَاءَ. وفي "عرصة موسى" قرّاؤُون بآلات النَّسخ يُداوُون الحُمَّى بعظام المحمومين. ألا فَلأُعْلِنْ عن إفلاسي بالكأس الأولى تكتبني مولوداً إذ تمحوني ميلاداً: موتٌ مفتوحٌ بالحبر الجافِّ وميراثٌ مسدودٌ بالحبر السَّيَّال.

لو أنزلنا أليافَ الثلج على جبلٍ، لرأينا خشيتَهُ مِنّا وتصَدُّعَهُ فينا، ورأينا قَطْناً أبيضَ في "جَامُورِ" ضريح الحرَّاسِ السَّبْعَةِ يَنْحُو نحو الملإِ الأعلى في زَحَّافة.

VII

حَلاق "إِشْبِيلِيٌّ" أورثناه الحكم. وحلاَّق "زَايَانِيٌّ" آتيناهُ الحكمةَ. مـغلوبان بطيشٍ فطريّ ودم أزرقَ. يجـري نهـرانِ يعـيش وَحِـيشٌ منقرضٌ يرعى سيقانَ الدُّفْلى. صَنْوانِ ولا يُسقى الأوّل مما يسقى منه الثّاني. مَنْ رَسَّ البئر لإخفاء الصومعةِ المسروقةِ ؟ مَنْ داوى مَرْضَى السُّكَّرِ بالصُّوجا ؟ يا غيلان ! الأرض اتَّحدوا !

حُلْمُ القنّاصِ الهاوي إحكام الصّنعة. أما عِلْمُ الأحياءِ فمَعْنِيٌّ بالبيضة والتفقيس، ومَعْنِيٌّ باستقبال المِوْسِمِ بالقثَّاءِ الجاري من مكتبة "الآباء البيضِ". الأحواض التجريبيَّةُ في "عين اللُّوح".

VIII

تدعو "ورغةُ" قنّاصيها المنشقِّين إلى مأدبة التّفّاحِ. الأعضاء المنشقُّون أفاعي. هي الحبلى من تمساح مَرَّ مروراً بالماء سريعاً، لم يتركْ من دمه الازرق شيئاً في أرحام النهر. غبار البارود وأسماءٌ في أوحال الفَهْرِسِ. من يعثرْ للجثة عن رأسٍ يعثرْ في التشبيه عَلى سرٍّ

قرينَتهِ. طوفان يخشى من غرقاهُ، ويَخْشَى من تبخير النرجس في "أغمات".

أعطوا لرؤوس القتلى جثثاً لائقةً. أعطوا للجلباب "الرَّزَّةَ" و"البلغة" تعويضاً إجمالياً عن نقل البكتيريا من أسماك النهر إلى غازاتٍ خاملةِ الذكرِ وأجسادٍ ذائعةِ الصِّيتِ.

IX

سَالَ "أبو فكرانَ" من تحت المصبِّ خُفْيَةً. وكان أن تمخَّضَ الخريرُ عن شقشقة الزيتون في عُرجُونهِ، ومنطقُ العروج والسقوطِ بين الدَّلو والبئرِ لأن دمه الأزرقَ مرصودٌ لعُسرِ الهضم. منذُورٌ لمن يَكْنِسُ مجرى الماء من فصاحة الصَّخرة. معلومٌ لكسر جثَّةِ السَّبْتِ، وكسْرِ مائةٍ من الرُّضُوض تركت أثرها الرجعيَّ فوق العظم.

وأنتَ يا "كَرْوَانُ" ! لا تُرِقْ عليَّ فَخِذَيْكَ مثلما فعل "بَوَّانُ" بترجمانهِ. تَسيخُ تَحْتَ قدميْ سيِّدةٍ كسرها "العِلْجُ" بقارورةِ عطرٍ ماجنٍ، وكَسَرَتْهُ بتصنُّعِ الحِدادِ واحتقان حمرة الخدَّيْن.

X

يتناسل "الزَّلّيج" مَحْفُوفاً بظلٍّ سائبِ التركيبِ ما بين المدوَّر والمكعَّبِ. هذه الحَبَّاتُ ناتئةٌ مُرَصَّعَةٌ حزامَ الحائطِ الجِيريّ. ملقية عليه حيادَها : فوضى مُزَخرفةٌ.

نشوزٌ غائرٌ. عن ظهر قلبٍ يحفظ المنقاشُ دورتَهُ، ويعرف كيف ينتزع اعترافَ الطِّين حتَّى تولد الأشكال ميتةً، ووشمُ فضائها حياً. خُدوشٌ في الزوايا.

"شَاغَالُ" دبَّجَ ظلَّهُ في "حائط المبكى" المكعَّب. غير أن رعونةً لونيةً بغرائِها ولعابِها ورعافِها، فُرْشَاةُ "مَاتِيسَ" المعلمِ رمَّمَت بنيانها. ضلَّ الذي يبكي براءاتِ اختراعٍ لم ينلْها نُصبُهُ في متحف الشمع.

XI

يتورَّط القنديلُ" في الزيت الهجينة والفتيل إذا تكسر ضوؤُه الواني على البصر الكليل، وفوق آجُرِّ الجدار. يسيل في "الأعشى" لعاب الشحم يقطرُ من ندى الليل البهيم. يؤجِّل "دِيُوجِينُ" عُزْلَتَهُ

ليوم رحيله. رَمَدٌ عموديٌّ تصاعد من دخان الجوع في العينين. عاد الجالسان القُرفصاء إلى مغازلة العمى، وإلى مضاجعة الدُّمَى.

من منطق "القنديلِ" أن لعابَهُ ضوءٌ، وأن الضوءَ "قَادُوسٌ"، وأن المنطقَ الخلاَّق في الطين المُدَجَّجِ بالحياد وفي الأسامي. يولد "القادوسُ" أنبوباً، وعيناً يُصبح "القادوسُ" سجنا.

XII

بعد مرور سنةٍ يباح للعموم أن يقرأ حربَ الرِّيف من "إِرَمَ" أو "سَدُومَ". يخلق من الشبه أربعين. نَوْلٌ يستحثُّ جزَّةَ الصوف على تذكر الإبرة والحائكِ. "أنوالُ" إذا دمَّرها هواؤُها الشائكُ عرَّتْ فرجَها فأحصنته. عرَّشت كـ"الأدْرِيُونِ" في النسيج الجبليِّ. أكلتْ أطفالها بالذوق. بعد سنة تمتلئ السُّلَّةُ بالمتاريس.

خُذْ حَبَّةً من بصل الريف وحفنتين من زبيبه! وقفْ مرابطاً وراء أرْزَةٍ! وأوْدِعِ الأسرار في جُمَّيْزَةٍ! فذاك خُبْزُكَ كَفَافُكَ، وذا عفافُها الأبيضُ. سدِّدْ واقتصدْ! كل رصاصة بألف رأس.

XIII

"لأرْجَانَةَ" تقفُ الريح في خِدْرِهَا، ولفاكهة تتسلَّقها. دورانُ الرحى عادةٌ، ومراوغةُ الحَبِّ تنقضها : شَمْألٌ وثبتْ في اتجاه الصُّراخ، وسافيةٌ نكصتْ في اتجاه الثغور التي افْتُتِحَتْ عُنْوَةً. نَهَرٌ يرتوي من روافده ومصبَّاتِه، و"أغاديرُ" شوك تؤنِّثه التاءُ، والتاء معقودةٌ بنواصي النوى. والنوى لا يجوز عليه الهوى.

محمَّلَةً نزلت من مَداراتِها زهرة الموزِ. أغصانُها سبعةٌ : كلُّ غصنٍ بـ"رابْسُودَةِ". كل "رابسودة" بتواشيحَ سامية وأهازيجَ حاميةٍ. يصدُقُ الموز في شاعرٍ بالرَّبابةِ من حيث يكذب في شاعر بالنيابة.

XIV

قليلٌ من الضوء حتى يكون اصفرارُ البنفسجُ سيناً يرى من وراء حجابٍ. كثيرٌ من الماء حتى يكون اخضرارُ البنفسجِ أخضرَ من شتلةِ "الْقَاتِ" لم تلدِ الأرضُ. هل عوَّضتها الرطوبةُ عن شبق الهذيانِ، وهل وَرِثَ السُّوسُ دورَ المُخَرِّبِ عنها ؟ أرى كَمْأةً كلما انتعشت

بالْوابل نائمةً، نزلت أختُها عن مسافاتها للتثاؤب صاحبةً، وهنا يتدخَّل "فأرُ سَبأ".

مشى نائماً، وتوقَّف مستيقظاً. عودةُ الوعيِ ترشُقُ "صنعاءَ" بالعودة المشتهاةِ. وترشُق "رَامْبُو" بـ"شِيبَامَ". والقاتُ في الحَنَكَيْنِ أرى الليل قيلولةً ويطول السفر.

XV

يحتمل "الشِّيخُ" بصبرٍ حاءَهُ مهملةً، ويستعيذُ "الشَّيْخُ" من إعْجَامِهَا بكذب الرُّوَاةِ. معنى الرأس بالخوذة والطرطور أن الشيخ والشِّيحَ إذا عادا إلى صِباهُما تكتشف النُّقطة عُمْقَ الخطِّ: فرقٌ بين حرفٍ عاطلٍ عن حِلْيَةٍ وبين حرفٍ آخذٍ زُخْرُفَهُ وزينةَ الله التي أخرجها لِلُغَةِ الحُوَاةِ حين استبدلتْ بِبَعْلِها أباه.

أجْبِرَتِ الخاءُ على إعارة اختلافها لجسد ائتلافها. مُحَجَّباً تنازل المُبْدَلُ عن عرائه، وسافراً تَشَبَّثَ المبدلُ منه بدعارةِ القناعِ. لا ينام الليل في جُمْجُمَةٍ سافرةٍ قبل انهمار السُّهد من جمجمةٍ محجَّبةٍ.

XVI

يلتبسُ "الخِرْتيتُ" بـ"النَّمل"، وساقُ "الأدريُون" بالتُّوَيْجِ في الزراعة المغطاة. البلاغةُ بجهدٍ رائعٍ تبحث عن حقيقة المجاز حين تنتشي "بناتُ نَعْشٍ" بكسوف قمر التأويل، حيث تسعُ الكوفيةُ العذراءُ قَرْنَيْنِ. هناك نزقٌ بلغ سنَّ الرشدِ والطيش ولمَّا يتمتعْ بالحروب النووية، ولمَّا يختزلْ من عمرِهِ في خدمة الوطن عامين. البلاغةُ شقاءُ العقل.

لأبُدَّ من عجرفة "الإسْكَنْدَرِ الأكبرِ" ذي القرنين حتَّى يُولَدَ الزوجانِ من ضلعهما، والعُنْجُهِيَّةُ التي في ألقُ البللور من تواضع الرمل، ومن رهافة الأصابع.

يُحَنِّطُ "الكُنْغُرُ" غند الطيران قائميه الأوليين. الطُّولُ في الرِّحلة والقِصَرُ في العضوين. خوفاً من مطارحة أنْثَاهُ السباقَ الجدليَّ، يكبح الزمانَ والمكانَ بالتقسيط والجملةِ. يستغني عن العدَّاد بالإبرةِ. أنثاه قُبَيْلَ الوضع ذاتُ رَحِمٍ، وذات جيبٍ بعده. ومن عجين طينةٍ يخلقُ ما لا تعلمون : للركوب مرَّةً ومرَّة للزينة.

مع احتمال أن يكون "كنغر" تحت الحراسة القضائية، أو يكون في أنثاهُ منفاهُ المؤجَّلُ، تكون سرعةُ "الفِيرُوسِ" في الراكب والمركوب. يا أكلَةَ اليَرابِيع !

احتمالات الواحد المتعدد

استهلال

واقفون بباب المحطَّة ينتظرون مجيء زمانٍ مضى. لونُ أسمائهم حائلٌ، وعمائمُهم ضحكت للرياح كما ضحكت عروةٌ لا انفصام لها من قيمصين. ما فتحوا ثغرة في زجاج المسافة إلا لأن النزوح الجماعيَّ متَّعَهُمْ بالسراح المؤقت دون كفالة.

الإِخْصَاب الطبيعيّ

ثِيوصُوفيّة

يملك الأرضَ حارثُها حين يخرج من حطبٍ يابسٍ حفنةً من تراب وفأساً ومجرفةً، ويرمِّمُ فَتْقَ الأزون إذا اندلعت في المياه الحرائقُ: ذاكرةُ القشِّ والخطأ المتعَمَّدُ في النظرية.

ثِيوقراطية

قُطِعَتْ يدُه من منابتــهــا، وانتــهى كلُّ شيءٍ بتــوأدةٍ : مــهنةٌ بحذافيرها والسؤال المؤرق. تختصر الكلماتُ المسافةَ. هذا الهباءُ المسمَّى هباءً يكلِّمُها من وراء حجابٍ ولا يحضرُ المأدبة.

تقنوقراطية

نشوةٌ تحتفي بـ"رحى المُتَلَمِّسِ". تطحنُ جيلَ "الشِّقَاقِ الكبيرِ" ويطحنُها الجيلُ. وجهٌ يناور كالجيلاتين، وبعد تعلُّمِه الشعرَ ألَّب جيماً على أختها بقصيدة.

إيديولوجية

المدائن نالت نصيباً من الإرثِ إلا "أغاديرُ" قرميدُها يتنصَّلُ من لونه المُرِّ. تأكل من طَبقِ المَوْزِ مثل "مدائنِ صَالِحَ". ينبجسُ الصوتُ في المائيات وفي الحبريات. تغوصُ الأصابعُ فيه وبحرُ "الصَّوِيرَة".

بروليتارية

هي فاكهة الأدبِ الشفويّ كفاكهة البحر ؟ فاتحْ مايُو، وفاتحُ أبريلَ يلتقيان على مقعدٍ واحدٍ في القطار السريع إذا رقَّ حالُ الطباعة.

بـ"اللِّينُوتِيبِ" ، وحلَّتْ مَحَلَّ الكتابة أسئلةُ "اللَّيْزَرِ" الزِّئْبَقِي.

الإخصاب الصِّناعي

النّخاسة الأولى

قامةٌ تتحامى السقوطَ، لأن النبيذَ المعتَّقَ أثقلَ مشيتَها. عَرَجٌ في المسافة والخُطُوَاتِ. وتسألُ عن رجلٍ بمصاهَرةِ امرأة يتأنثُ. فيه العبيدُ وآباؤُهم ومحرِّرُهم بالتَّثاؤب أو بالتَّقادم أو بالأنا المركزي.

النّخاسة الثانية

وكَمَنْ جاء للتَّوِّ من أرخبيل "الأناضول" والثَّاء في الصَّادِ، والشَّعَرُ المستعارُ على ربطة العنقِ المنتقاةِ بكل العنايَة. كان كحارسه الشَّرْكَسِيِّ يَعُبُّ السَّعُوطَ بخيشومِه، ويحمِّلُ مِنْدِيلَهُ الورقِيَّ عَنَاءَ المخاط.

النّخاسةُ الثالثة

الكتابةُ ميسورةٌ، والتراشقُ بالطِّينِ أيضاً. كَرادِلَةٌ ورعاةُ معيزٍ أمام مغارة "جُوبَا" المثلَّثِ ينتقمون من اللاتينية والأمْهَرِيَّة للرجُلِ

الحميريٍّ بتحنيطهم جثةَ عافها الموتُ فاستأنفت موتَها.

النّخاسة الرابعة

لم يشذِّب ضفائرَهُ راهبٌ جاءَ "تافراوت" منتحلاً صفةَ البئرِ يضحكُ عنوانُها ببكاءِ ثُمالَتِه. كانَ أن النساءَ تنازلنَ عن رقمهنَّ القياسيَّ كي يتعلمْن سرَّ الكِهانةِ من وردة الرِّيح.

النّخاسة الخامسة

في "الجديدة" عِجْلٌ له جسدٌ وخوارٌ ووشمٌ وأسئلةُ الوشمِ. كلُّ الحظائر تُنْبِتُ قرنين وِفْقَ انتخابِ الطبيعة في رأسها. يتهَجَّنُ جنسٌ بآخرَ. ما شئتَ من حشراتٍ ملوَّنةٍ تتعايشُ في غابة "الأمازون".

النّخاسة السادسة

قارئٌ مُلْهَمٌ، والخَرائطُ تحت تصرُّفه. عارفٌ بشعاب المحيطات: مرجانُها ولآلِئُهَا. يلتقي البحرُ بالنهر في غفلةٍ عن عيون نساءٍ حملن النُّذُورَ إلى الأبرشية في غيبة الأسقف الملتحي.

الواصلون بعد فوات الأوان

الواصل الأول

السياسيُّ يبعثُ من قبره حين يُدْفَنَ في الحولياتِ المُؤَرِّخُ : هذا يدخِّنُ جمرَ الرَّماد، وذاك يشق الطريق إلى زمنه.

الواصل الثاني

شهرُ "مارس" يلبس جلدَةَ أنثى تمارس في السِّرِّ عادَتَها. ولكي يحضرَ الحربَ نصفُ ذكورتِه، يتغَيَّبُ نصفُ أنوثته عن ركوب الأساطير.

الواصل الثالث

تلك هيَّ افتتاحية تُورثُ النفيَ فيما وراءَ الطبيعةِ : كانت زَنَتْ بصريح مُحَرِّرِهَا واقفاً، وزَنَى بكِنايَتِها قاعدة.

الطيور المساعدة

الشّاهين :

يَنْتِشُ اللَّحْمَ من جيفةٍ ويرُدُّ النتونة صدراً على بعض أعجازها.

البازي :

هو واسطة العقد بين السلوقيِّ والبندقية.

الصقر :

واهبٌ للمروِّض نصف الطريدة.

النّورس :

لغةٌ ريشُهُ ومخالبُه لغتان.

الغراب :

يشتهي لونَهُ وهْوَ لونُه.

سيرة رجل يسبقه ظله

(1) الجدَّة والحفيد

وضوحها الراهنُ من غموضه المقبلِ. عنه ورثَتْ كثافةَ الخفَّة والثِّقَل. عنها ورث القناع والحبلَ المُؤَوَّلَ. الحدوسُ ارتبكتْ. (شراسةُ الخيالِ) من نهر عيونٍ أربعٍ إلى تمرُّد شفاهٍ أربعٍ. (حُموضةُ العقمِ) ولمَّا انبثق النزيفُ من ديباجة الكتاب والفَهْرَسِ، فاضَ السرُّ: هي دميةٌ مختلَّةُ الظلِّ، وهو الظِّلُّ. هي لغةٌ فيهَا الصَّهيلُ والمجازُ وحروقُ الصَّبر، وَهْوَ لغتان فيهما الكلامُ والصمتُ وألوانُ الرمادِ، (ذكَرٌ بِحَظٍّ أنثيينِ) من سُرَّتها الحبلُ الذي بهِ سيَصْلبُ الجنين.

فاس، 1989.1.31

(2) "خولةُ" وأخُوها

يمتدٌّ خلف الظَّهر منفىً من جذوع الخُوصِ والأشْنَةِ، والمهرِّجُ الآن مطالبٌ بتحسين العوالم وإِخْصاء المسافات : يسير فرسخاً بقدمٍ ثالثةٍ. ينهمرُ الضوءُ عليه من بريق العاج. (بَضَّانٍ سِوَارُ العَاجِ والمعصمُ) يُعفَى من تسلُّق الحبالِ الأفعوانيةِ حتى يُضحك الناسَ على الناسِ، وحتى يلبس الفروَ بطولةً كما يلبسه الفهدُ وزينةً كما تلبسه المرأةُ. لا جدالَ في أناقة الصَّرصارِ عند الضَّحكِ الأولِ، والنَّملةِ عند الضحكِ الأخيرِ. "خَولَةُ" شبيهةٌ بـ"سيفِ دولةٍ" يُشبه اختَهُ. (الحِيَاكَةُ بإِبْرتينِ) من أوكل بالصوف الوقاحةَ أراد النولَ للدماثة.

فاس، 1989.2.3

(3) أحرفُ السنة الكبيسةِ وألقابُها

حسبنا ظلَّه إِذ مرَّ شاحنةً يرجُّ مروقُها الأبوابَ. دافعنا بمرفقنا سعيرَ الضوءِ. أنكرنا السماء وتحتنا دمُهَا، وفوق قلاعها الأسماءُ. وزَّعنا علينا الصبرَ. من منَّا يُفَتِّتُ صورةَ الجسد الذي يهواه بالاطْراءِ ؟ من منَّا يؤبِّنُ نصفَهُ الموؤدَ في "كُومُونَةِ" الشعراء ؟ من منَّا تحسَّسَ موتَه تحت الرخام الرطبِ والمخطوطةِ المحفورُ فوق غلافِها التقريظُ ؟ بَثَّ

القحطُ في السنة الكبيسَة أحْرُفاً أولَى وألقاباً، وكنا من رواد الحانة الصغرى. (وصال الحانة الكبرى منيعٌ) أيها المغشوشُ مثلّ نبيذه ! لسنا لِغَيْرِ الراتب الآتي، وغيرِ بطولةِ الأسماءِ نُحْصِي أشْهُرَ السنة الكبيسة.

فاس، 1989.2.4

(4) عن ولادة الضحك العادي

يَخْرُجُ من ضَحكه الرَّذاذُ والرَّغوةُ. ثَمَّتَ سؤالٌ بلُغاتٍ يبست أسنانُها، (نَميمَةٌ بِكْرٌ) وثَمت سَفَاهَةُ النَّموذجِ. (من النعيب تُؤتى البُومةُ الغِرَّةُ) "خَوْلَةُ" بغير الخزِّ في الضحك لا تضحَك. سُحْقاً للرعاةِ استبدلوا حرفتَهم بما يُدِرُّه من الربح كراءُ رَحِم ولبنٍ. تحضرك النكتةُ فاضحك قبلها. (تعجِبُني رجلاك في النعل) تَذكَّرْ أنَّ من وصية الفأر إلى جردانه : "أنْ حَنِّطُوا اللاحقَ في السابق بالحَفْرِ إلى أن تجمدَ الأسنانُ أو تستسلمَ الصخرةُ". كلُّ ضاحكٍ أمامه مقاسُهُ من المدى، وخلفه مقاسُه من الصدى. (النارُ وضوحٌ لغموض الماء) إنَّ ضحكاً مزدوجاً بكاء.

فاس، 1989.7.31

(5) زمن الضحك بزمانين

رصَّ سيـرتَهُ في الإطار وصـورتَهُ فـوقـهـا. اسـتـأجـر الحـبـر (ريقُ الأصابعِ) من جسدٍ أنجبته الفضائحُ. حَمَّلَهُ ضَحِكُ الطبع ما لا يُطاق من الضحك المتكلِّفِ. سوف أقِرُّ لكم باحتيالي اللذيذ على العقل. سوف أقِرُّ لكم بتفسُّخِ صخرِ "السَّماوَةِ" في "ثور بابلَ". سوف أقرُّ لكم بالإطار. (المحارةُ سادنُها كلسُها) من بطالسة الشرق حذَّرتُهُ، ونصحتُ له أن يعمِّد صمت المحارة بالماء أو بالمُبيدات. علَّمْتُهُ الضحكَ المُتداولَ. يضحكُ من عصمةِ النَّاسِ. يضحكُ من كسبه بالتكسُّب. يضحكُ من لغةٍ للحوارِ، وثانيةٍ للتماهي، وثالثةٍ لافتعال التوتُّرِ. يضحكُ من قادرٍ بالكمال على النقص. يَضْحكُ ممَّا له نسبتان.

فاس، 1990.2.21

(6) الطفل وما جرى له مع الرُّموز

استهلال :

يكون الطفلُ في الليل
يكون الطفل في الخيل
يكون الطفل في البيداء

يكون الطفل في السيف

يكون الطفل في الرمح

يكون الطفل في القرطاس والأقلام واسم من أسامي الناس. طفلٌ في قناعِ الجوع. طفل في كتاب الشعر. طفلٌ سَيِّئُ التكوين. طفلٌ ملتحي الإِبْطَيْن. طفلُ الغور. طفل اللعبة الحدباء. طفلٌ أتعب الجسمَ الذي في نفسه الكبرى.

القناع :

لم يَذُق من سُلافة الليل مثلي شاربٌ عاشِقٌ. أنا جسدُ الليل. أنا الوجهُ والقناعُ. انبعاثي من رمادٍ تضُخُّه الرئةُ اليمنى نقِيّاً، بوجهه وَقَفَاهُ.

الجوع :

وتكون الأحشاءُ أكثر جوعاً حين تدعو إلى الشَّراهة فَقْراً ناشراً ظِلَّهُ وأمعاءَهُ الصغرى على سُفْرَةٍ، ولا شيءَ فيهَا غيرُ غُصْنٍ من الجِيرَانْيُومِ يابس.

الكتاب :

يتعرى الكتابُ في آخر العُمْرِ. أنا بعثهُ الجديدُ. زُناةٌ يكتبون الأسماءَ بالخزِّ والصوفِ على صفحة النحاس وينسوْنَ غرورَ المسمياتِ عليه.

الشعر :

قدَّمت جوقةُ السُّعَالى إلى الشعرِ غنائيةً، وشيطانُهُ الأنثى على فروة البلاغة. ها قد أينعتْ هذه الرؤوسُ ! أن الشعر واهبُ القلبِ عقلاً.

التكوين :

كلُّ صفرٍ مسافةٌ تسبقُ التكوينَ. كلُّ الظهورِ تُطْعَنُ من خَلْفُ تعاني الأعشاب من حاطب الليل. يرى السَّاقَ بالولادة أولى.

الالتحاء :

أنت يا من كشفتَ في لغة الإبط التحاءً قبل الْتِحَاءٍ، ستُدلي باعترافاتك الجميلة مَشَّاءً. غرورُ السَّبعين أكثرُ دفئاً.

الغور :

جهلُهُ قادني إِلى القَلَمِ السَّطحِ، فشيَّعتُه إِلى القَلَمِ الغَوْرِ. دموعُ الأحبابِ تملأ بحراً، ودموعُ الأعداء قطرةُ تسماحٍ، ملوك أسنانَهُمْ سوَّسُوها.

اللعبة :

قد يعاني الرَّمزُ المؤَوَّلُ باللُّعبة منكمْ، وَاسْمِي المدلَّلُ منِّي، فأنا واقفٌ وحَدْسِي يمشي رغمَ أنفِ الطبيبِ "جالينوس" .

الجسم :

تَعَبُ الجسمِ هل يَعودُ إِلى النفس ؟ كبيرٌ بحجْمِه، وصغيرٌ بمسافاتِه. ازدواجيةُ الضوءِ. فمن يُنقذُ الظلامِ منَ السَّهْوِ ؟

تركيب :

وَضَعْنا الطفلَ في أوثانِه الأولى
وزَوَّدناهُ سراً بالتداعي الحرِّ.
(أستاذٌ أديبٌ قبل تأديبٍ)
كتبنا أن يكون الطفل أعجوبة

فاس، 1990.2.26

(7) دخول الطفل إلى الأقاليم

"كفر عاقب"

جبلُ الملح ـ إذن تنقصه النُّكهةُ ـ مأوى الشُّعَراءِ واللصوصِ. نصبُوا للطفل فيه الفخَّ. (رومٌ ما سوى الرُّوم وراء الظَّهر) ريٌّ بابليٌّ. لغةُ الفأر الذي قوَّض سُدّاً. خطَّطوا هندسةَ الأمنِ الغذائيِّ. تقاضوْا تَعب الخدمةِ نقداً. ثم بادوا كالعماليق بكأسٍ واحدة.

فاس، 1993.3.20

"طبرية"

بحيرةٌ سكنها الفينيقُ دون رغبةِ الطفل، سيبقى ماؤُها موزّعاً على رتابة الخريرِ. راعيان لقيا شاةً تعبٌ ماءها الراكدَ. (من ذلاقة الناي إلى فصاحة السِّكين) مُرٌّ فمُها ويجدان نكهةَ الماءِ الأجاج حلوةً بفَمِهَا ويغرسان النَّايَ والسِّكينَ في جيناتها.

فاس، 1990.2.23

"جرش"

أطلالٌ من عصر الحيثيين إلى عصر الرُّوم الأولِ عَفَّتْ عنْ تقديم الفائض من أحجار "البازلْت" إلى أقْيَالٍ يبنون بها أضرحة للموت

النَّامِي فيهم، والموت الآتي منهم. يَسْتَوْحِي الطِّفْلُ الألفيُّ لغاتٍ من أصوات الطير : يدٌ معفاةٌ من حمل السيف. لسانٌ مفطومٌ بالترجمة الفورية.

فاس، 1990.3.26

"انطاكية"

ساحلٌ ورثَ الطبَّ عن رجلٍ روَّض العشب. جلُّ القواقع فارغةٌ من أسَانيدهَا، وتطلُّ على البحر من فوق رابيةٍ. غيرَ أنَّ التداويَ بالعشبِ دمَّرها. يكتفي الناسُ عن قتل أنفسهِمْ بالحُروبِ القشيبةِ أو بالتثاؤُبِ أو بالكتاب المُؤَوَّلِ. ينزعجُ الطفلُ حين يرى بَلَحَ البحرِ في بَلَحِ النَّخل.

فاس، 1990.3.28

"الفسطاط الأول"

يقدِّم للنيل قربانَهُ السنويَّ : القواربُ طافيةٌ والتَّماسِيحُ راسبة، والمؤرخُ بين صناعته ومصانعة الأسَرَ الحاكمات يُؤَلِّبُ تحت لِحَاءِ السَّرِيرِ فحيحَ اشتهاءٍ على ضرَّتينِ وعَوَّامَةٍ تتحرَّشُ بالماءِ؛ تنسى بكارتَها في لحاف السَّرِيرِ. (هِيرُوغْلِيفِيٌّ من أفاضلِ من مات تحت اسمه).

فاس، 1990.3.28

"الفسطاط الثاني"

على النيل ألا يُدَوِّنَ أعطابَهُ بالنياشين كي يستحق "الجَبْرَتِيُّ" عاهَتَهُ الأبَدِيَّةَ. في آخر الدَّهر يمتلئ النيلُ عَدْلاً كما مُلِئَ النِّيلُ جوراً. يُقيم على الشاطئين حياضاً لتربية الخَزِّ. (لَحْمُ الضَّفَادِعِ يؤكلُ في القارَّة الأسيويةِ) يستقبل الطفلَ أسْكَنْدَرِيٌّ بقرنين فوق حصيرتهِ الخُوص.

فاس، 1990.3.29

"رابسودة"

هوامشُ الشروح تُكتب بلونين. تشقُّ قشرةَ الكذبِ والصدقِ عنِ اللُّبِّ. الفضولُ ورَّط الشروحَ في أسئلةِ الخوفِ. الذين شاغَبوا تَقَمَّصُوا الحِبرَ. الذين صالحوا تملَّقوا الماءَ. الذين شرحوا تبدَّدُوا كالحبرِ والماءِ. الجرايةُ أتَتْ وَوُزِّعَتْ، قَبولُها فضيحة ورفضُها. أحَقُّ بالشعرِ الذي يكسُو العِظامَ الكِلْسَ والجيرَ. نَبِيٌّ ساءَلَ الأفلاك عن أفولها. ربُوبيات أفلتْ بقدرِ ما أفل من كواكب السماء. شعَّ قمرُ الطفلِ من المَحاقِ. يا شجرةً تسلقتْ غُصُونها ! السماءُ مبدأ السُّقوطِ. رَبِحَ الطفلُ جنُونَهُ بذاكرتِهِ، وخَسِرَ الجنونَ بالتوليدِ والتجريدِ. في متاهةِ العقلِ مكانٌ للغريمين. ولولا فارقُ السِّنِّ لما

تهالك الظلُّ على فاكهةٍ تأخرت عن موعد الحضور في الصيف الذي ضَيَّعَتِ اللبنَ فيه. شَفَّتِ الإِبْريقُ حتى كسر البِللوْرُ لونَهُ، وحتَّى قَلَّمَتْ أظافرَ النشوةِ. يَتَّسِعُ هذا الرَّحِمُ المطروقُ لاثنين. يموتُ واقفاً أو جالساً بعِلَّةِ التَّفَسُّخِ اليوميٌّ، بَيْدَ أنَّ من صَخَبِهِ المدهشِ هذا الملكوت.

فاس، 1990.3.30

كسارة البندق

سمع اللَّوْزُ أعضاءَهُ تتفتَّت. كم يتشبَّث من جهله بخميوط النُّحاس المقعَّر ! (كسَّارة يدُها غيرُ شَلاَّءَ) مُحْدَوْدَباً عاش. مُحْدَوْدَباً مات. يزعم أن النطاسيَّ أجَّل جبر الكسور إلى أن تبوح العظام بما كتم الكلسُ. كسَّارةٌ ورثت مَجْدَهَا عن مخالبها، وكما ترث الشَّمْسُ عِفَّتَهَا عن نقاء العناصر، تجري الرياح وتجري السُّفن.

هفوة اللوز والجوز أنهما خَرَجَا من عرينهما شهوةً وحَّدت بين زانٍ وزانيةٍ يحبوان على عطش القشر. لا اللوزُ أقلع عن طيشه الموسميِّ، ولا الجوزُ قدَّر حقَّ الزمالة. كسَّارة تتخطَّى النواة وتودع سرَّ الفُحولة في القشر. (هذا المهرج أرخى سُدُول اللِّحى) مُضغتانِ هما اللوز والجوز. تجري الرياح بما تشتهيه السُّفن.

هفوةُ اللوز والجوز أنهما بيدين. (خلاصُ النواة انتصارٌ لفالق حبَّتها) ميِّتٌ يتبرَّأ من موته. (لا تصفقٍ بواحدةٍ وتساومْ بصنوتها!) إنَّ بعض بطالسةٍ دخلوا قريةً، فقروا ضيفهم من نَوَاةٍ معقَّمةٍ: واحدٌ بتعَالِيمِه، وثمانيةٌ بالهوامش. تجري الرياح بما لا تحبُّ السفن.

معذرة،

أن أتتك المذَمَّةَ من ناقصٍ منذرة

جهمةً كمذنَّبِ "هالي"، مؤنثةً كفسيلة خُوص.

فاس، 1989.1.13

وصيفات "سالفادور دالي"

يرفلن رشيقات نزقاتٍ في السُّندس والإستبرق مثل ذباباتٍ خضراءَ. (حرير الهند على ظهر السَّحلية) مثلومات الذَّيل يضاهين الجنيَّات البحريةَ. عطر في أشجار الصندل سارٍ من إفصاح الطيب إلى إبهام الإبطين. يسلِّمن على رؤساء بالتعيين مدى العمر. يجالسن المرآة المغبرَّة للتغرير بها. وكما يختار النشرُ الصندلَ يختار الطيُّ الإبْطين. المحور محجوبٌ ببصيص من ضوءٍ أخرسَ. لا يكفيهن رمادٌ في سنٍّ الإيقاع. رضيعٌ مفطومٌ ينصح مرضعه بتناول بزر القرع استدراراً لأمومتها. (بخلُ الشَّذْيِ وجودُ النهد) يجالسن الآلة لاستحضار الأرواح وتلميع الصيت الذائع. عكاز ومرقعة وطريق النفي معبدة. وأمام الأفعى عامٌ بمحيضٍ شهريٍّ، وسحاءٌ منفوشٌ كي تُنْسَى كالفرو على المشجب أو تُؤتى فوق فراشٍ مَا. يختار الإبطان صُنانهما والعطرُ خرومَ الطيبِ. (الفتنة في الأفعى والحبل) يقسِّمن

الميراث إلى نصفين : الدائر من أنفاس العطر دخان والممتد مصادرةُ النصفين على مطلوبٍ. ذاتيٌّ إغراء السندس والإسْتَبْرَقِ إلا الحبل فمن إغراء الأفعى. خوفاً من صدإ الخنجر يفصلن النصل عن المعدن والمعدن عن إعلان بنوَّته للماء. لَقِيرَاطٌ من كبريت أبهى من عشب الإبطين الورسيّ. التوزيع السّيء للحكمة في قارورة أرقامٍ، والجاني موروثٌ بالتعصيب. (كفيلُ بالنسوة من سوّاهن فراشاتٍ) يُوحين إلى خاقان الربع الخالي : أن سافرْ للتوِّ إلى "سومر" لاسترداد الجثث المحشوة بالأسطورة. لا ترْجِعْ حتّى يكمل معنى الأرض : فإما النصل وإما المعدنُ ! واحذر فالورش محاط بجلال الماء ومحروسٌ بدهاقنةٍ مُرْدٍ ! (دهقانٌ يكفي كوكبةً منهن وواحدة منهن تقوم بجنديين اثنين) تصحِّح أخطاء التشخيص الطبي الجبانة. (في الورش سماسرة) وحشيات في تابوت الرَّبِّ أنيساتٌ في أكمام الورد. بمنديلٍ قَشْتَالِيٍّ لوَّحن لميلاد الألوان. اسْتَعْذَبْنَ الطقس المصنوع وما يسقط من ثلج فوق "الزليج". جرادٌ أربعَ مراتٍ متروكٌ لحماقته. وسلحفاةٌ لم تستسلمْ إلا للرِّقِّ الغامض مقروءاً من أعلاه بريئاً من أسفله. يُوحين إلى خاقانٍ قشتاليٍّ : أنْ شَيِّدْ قوقعةً من جلدِ الماعزِ، واخترْ سيفاً في طول نِجادكَ ! يا من يدْعو لأبٍ زيَّاداً، ولأمٍّ عيسى! أوَّلْتَ القفلَ كما أوَّلت العِفَّةَ.

سابرينا	جرح العمر الثالث.
أولغا	طعم نعومتها بين الحبل وبين الأفعى
لورا	أولى فقرات "نشيد الموتى".
فابيولا	عاشقة في "عيذاب" وفي "حوران" عشيقة.
إيفا	إعصار حثَّ المدعوين على إخفاء بطاقات الدعوة.
دولوريس	معتقة مما يقطر من عيني شاعرة إشبيليّة
ويشيتا	جارية في نهر أو في قصر أو في قاموس.
ريبيكا	أهدت زُهْرِياً حادّاً لِقريب في الدم.
دانييلا	بحماقة صرصار ورجاحة عقل السِّنَّوْرِ.
أورورا	ذاهبة للسقي وراجعة بالقِرْبَةِ فيها سَقَّاءْ.
لوليتا	ساكنة في الصرح وفي النملة.
يوماها	فصلٌ من سيرة صعلوكٍ مشَّائيّ.

فاس، في 1989.1.29

الفينيق

ههنا ينتحل الفينيق صوتين : نعيباً لأغانيه، ونعياً لجناحيه، ولا يَهرب من جثّته العانسِ قُرصُ الشمس. "نبتون" الشتائيُّ جنينٌ فلكيٌّ سيّءُ السمعة أدرى بخرابٍ فاقع اللون، وأدرى بخفايا منطق الطير، وأدرى باحتقان القمر الأفطس في صلب الخرافة.

(لِنقِيقِ الأمس مَرْصُودٌ وعاء الذاكرة).

ولأن الحدس ضحك وبكاء يستفزان الجدل،

يسبق السيفُ العَذَل.

جلَّ من يكبر طفلا.

جلَّ موتٌ لحياتين، وجلَّتْ حُلمة الثدي، وجلَّت بدخول الطول في العرض المسافة.

أيها الداخل من نافذة السادة والخارج من باب الخدم !

لِمْ ركبتَ الطيش جمعاً،
وركبنا مُفرداً وَخَزَ النَّدم ؟
آه من وشم الذراعين ! (نساءٌ بالإشاعات حُبالى) آهِ من وشم "إيمِيلْشِيلَ" ! هزيع الليل قُداسٌ سريريٌّ، وهذي الأرض من فرط التجاعير وتصريف النفايات مظلَّة
تَشْتَهِي للصيف صيفًا، وَشِتَاءً للشتاء.

البيضاء، 1988.7.19

ثلاثية لحلم إبراهيم

(1)

مروَّعٌ بالحُلْم إبراهيمُ. كل تبعات هَضْمِهِ السَّيِّئ ملقاةٌ على ثلاجة عاطلة خَرِيفُهَا الأخْرَس عُمْقٌ ومدىً. أروع من نميمة الرثاء موتٌ صادق، وهامش أسودُ في مرثية. ينعكس الحلم على مرآة هذا النهر ليلاً. قلَّما استسلمتِ العينُ إلى رمادها. خَرِيفَهَا الأخْرَسُ عمْقٌ ومدى. (وكاد أن يذبحه الحالم) لو أكل من ذبيحة طرية، لهجَّنَ الصوفَ، ومن حيثُ أصاب نسبين أخطأ السلالة.

(2)

فِيمَ إِذن تقنيةُ التبريد والتسخين إن لم تحتف "الكَرْنَة" بالصيف شتاءً : عن يمينها المُصلَّى وعلى يسارها السجنُ. ضبطنا امرأةً عاقلةً

تغشُّ ماء وجهها، ولحمها النيئُ منسوجٌ ينول البيطريِّ. (البيطريُّ عاقرٌ) وكاد أن يذبحه الحالمُ لولا هضمُه السيئُ. كالنيل اختبار آخر السنة يخفي بِالرِّضَى إفلاسه المبهم عن قربانه. جُمَّيزةُ "الكَرْنَة" بين فَرْثِهَا والدم. من أحبها وعف، لا يرث إلا الجذعَ والأطرافَ من جُمَّيزةٍ عصيةِ الدلالة.

(3)

وأمر الربُّ الوسيطَ أن تكون "عين قادوس" نواةَ قلعتين عن يمينِ وشمالِ "كَرنة". فكان ما أراده توالداً هيَّأوُ لضرَّة النَّسل، وما أراده تلاقحاً أعدَّه لهذيان البيطريِّ.

ثم بعدُ أمر الرَّبُّ الوسيطَ أن تكون "عينُ جالوتَ" نموذجاً من الشمع لحين تُدْمَجُ العينانِ في واحدةٍ. فكان ما أراده تجانساً هَيَّأهُ لكاتم الصوت، وما أراده تنافراً أعدَّه لآلةٍ فِي آلتَيْنِ. يرث الخروف ما يرثه من صوفه مزخرفاً بنقده الذاتيِّ. حين وجد الرضوض في مكانها أحب فيها نفسَه فلم يرث سوى غرور لابس الفستان.

صوَّب نحو تينةٍ سهامه فأخطأ البستان.

البيضاء، 1988.7.29

مهر السيدة

عجزتُ عن تزجية الصيف بدفءٍ عابر، وعجزتْ عن لغة تدور نصف دورة. (عاشقة أذني لبعض الحيّ) عاريان إلا من غبار غزلٍ يجرّد القشرةَ من زخرفها، وطابعَ البريد من غِرَائهِ الأصفرِ. فَقْرِي حجةٌ على غناها. كلما استغنيتُ بالمحجوب من جسدها عن جسدي، تورَّم الشيبُ هناك وهنا. (أقلُّ ما تعطيه ملكُ الأرض) عادتْ ومعي ائتلافها، ومعها اختلافُها. (سعدُ الذبيح وجهُه القبيحُ من فعل البروج) كبرياءُ رجلٍ يعنُو لغنج امرأةٍ. وبينما يقتبس المؤرخُ الأخبارَ من تشابك الهوائيات في السطوح والأثير، أكتفي من دورة بنصفها، وتكتفي هي بمن أنصفها. ذؤابة الشعر جَاءَتْ ومضتْ فما أخَلَّتْ بتعاليم الجذور. آنسات نهر "جَيْحُون" عرايا، وسواهن يصدِّرن الجدارياتِ والمنمنماتِ: (نعمةٌ تظهر صُنعَ

الربِّ) بعض ورق التوت على بيت القصيد وخيوطُ البيلسان فوق ما بقي من صناعة الجينات. إنْ أنساني الرِّهان لون فرسي خَسِئْتُ. (عقلٌ باطنٌ يُزَوِّدُ الحرباءَ بالألوان) خيطُ نسبٍ من نطفتي، وجمرةٌ من فَخِذَيْهَا، ربَّما شاغلتها بشبق الإحصاء من حيث انهمكت في التقاط الدُّر حتى أضبط العدَدَ. إن وضعت كل قوتي في شعري خَسِئْتُ. حُزِّي الرأسَ دون شَعَرٍ ! فذا زمان بزمامين، (تضاف شمعةٌ عن كل عام) ومكان بمكانين. (يضاف ورق التوت إلى سابقه) وفي انتظار المَهْرَ لا أوثرها ببقر الوحش ولا بدمه، لأنها تفضِّلُ المسكَ الصناعيَّ : مكانُ الدمِ في زمانه، وحيلةُ الفطرة في المسك عَصِيٌّ فَهْمُهَا. (بِعَدَدِ النُّجُومِ في السماء، والسمك في البحار، والشعر في الرأس الأغَمِّ مهرُها).

البيضاء، 1988.8.8

الببغاء

لو أن الببغاء استغنتْ بالجرس العاري عن ألفاظ المعجم، لاحتال التأويلُ على تبرير الأخطاء بـ"نارسيسَ السقاء" و"فاوست" الراعي. (منذورٌ جلد الماعزِ للدَّبغ) أحلْتُ الظمآن على بئرٍ ناشفةٍ. شيأتُ الأسماء محاكاةً أو إيماءً. دمَّرْتُ الفقرَ الزائدَ عن حاجاتي. فجَّرْتُ الذَّرة. (لا مندوحةَ عن تفجير لفظيٍّ) يا "نارسيسُ" استمتعْ بالضغط على الزر القاتل! يا "فاوستُ" تقايضْ بالقيراطِ اللفظيِّ الباقي! إرْهَاصُ الإبْدَاع معي، ولذا علَّمتُ الببغاءَ الشعرَ، وما كان ضرورياً إلا للسَّقَّاء، وإلا للراعي. الشعر صلاةٌ عن يُمنى ذاكرةٍ أو يُسراها، والببغاءُ محاكاةٌ أعمى من سمت القاموس، وأعشى من صمت الواقع. (واهاً لمقولاتٍ ينسفُها قطعُ التيَّار!) الببغاءُ مغنيةٌ صلعاءُ خوافيها يكسوها الريشُ الناعمُ. (هذا من لحن العامة).

البيضاء، 1988.8.14

عشارية لبحر "آسفي"

(1)

لن أبرح باب البحر،

أو تتحلى سيدتي بعقود الضوء الفضي.

(حوض المرفإ مفتوح) "يونس" والحوت وعذق النخلة،

والغائب في الشاهد،

والحجة في الريح،

والريح رخاء.

(2)

أبدى الأقيانوسُ استعداداً للتطهير، وأبدت نفس الرغبة حيتانُ الإقليم. (بديهيٌّ زرعُ الألغام) الدفءُ لأجسادِ المصطافين وفاكهةٌ،

وليعقوبَ قميصٌ مثلومٌ من ظهره.

آسى يعقوب وأبكاه،

حتى ابيضَّتْ عيناه.

(3)

خزَّافٌ من أبناء عمومتنا جاءت للبحر به الريحُ. الصلصالُ كلامُ المهد. الطينُ جُنُون التشكيل. النار أصابعُها وأصابعُه عشرون.

(مجبولٌ من حمإٍ مسنونٍ أيضاً "نيرون").

يا هذا!

إن حاورت الجُرَّة في غرفة إنعاشٍ فاملأها بِنَبِيٍّ سقَّاء!

(4)

يبلغ منها "مجمع البحرين"،

ومنها يمضي حُقُبا:

الفينيقيّةُ التي تكشف عن خطإها النحويِّ عُنوةً تُرِيقُ بحرَ "قزوينَ" على ضفافها، وسنبلاتٍ يانعاتٍ من "تراب الصِّينيِّ" على رُفاتِ بعلها.

وبين يوم غائم وليلة

يرهن في تقويمها رِكَابَهُ وخيلَه.

(5)

تصدُر عن فوسفوره الأول والثاني، وكيميائه العشرين زبدةُ النفايات. تضيق أعينُ الشِّباكِ. جعبةُ الصياد مبدأ الموازنات: ينفض الغبار عنهم الضفادعُ الرجالُ. (في الألِفِ سرٌّ أحرفِ الهجاء).

وحين يخلو الملح للنزق والتسلية.

يُنتن بالتحلية.

(6)

تشبَّث الزورقُ بالطحلب خوفاً من غرور موجة يحيله على التقاعد. نبيلٌ خشبُ العرعار بين صنعة العجز وبين فطرة الإعجاز. عَذْبٌ كبرياءُ الرمل بين الماء واحتضاره. الحيادُ مهما شاخ لا تخطئه الدهشة. في نقطة نون الجمع،

وألف الإثنين و"ابن ماجد"

خلاصة المعرفةِ الوحشيةِ الصلعاءِ، يا أيتها السَّمكة الفراشة!

(7)

جهِّز البحرَ بقرصان وأحبارٍ وقرائين وعينٍ واحدةٍ

لا ترى تصفيقها الأعور إلا بعمى الألوان. حيناً تفتدي الأسرى الأساطيلُ، وحيناً تفتدي الاسرى رفوفُ المكتبات

عَقَّمَت أسفارَها الرئةَ بالملح الصناعيِّ وروثِ الأرض. (دَيْنٌ يُتَّقَى بالجدولة)

هكذا يُعلن عن إفلاسه البحرُ وتبقى حيةً ترزقُ منه البوصلة.

(8)

عالم الذَّرة ملاَّحٌ عجوز،

قتل الخلجان بحثاً عن صدى للنظريّة

في انشطار الضوء مكفوفاً، وفي توأمة الزئبق بالكبريت. ملاَّحٌ عجوز، أرجأ الحكم على مقترف المذبحة الأولى إلى حين انهمار المطر الأسود والموج الرمادي على نعليه. خَزٌّ فاتر الخضرة في حوضٍ صناعيٍّ يربَّى. (مبدأ الخَزِّ انتحَالٌ) خبرة الملاَّح بالمعنى ضئيلة،

ولذا فجَّر قبل الموعدِ المضروبِ معناه لأن امْرَأةً تنتظره.

(9)

قارب البَرْدِيِّ يخفي عن عيون الأرخبيل

ـ خاطئٌ "عوليس" في الليل، مصيبٌ في النهار ـ

ثغرةً ينفذُ منها الماءُ في الخلف: غريقٌ قبل أن يغرق. خلفي ملك يأخذ غصْباً، قارب البرديّ غصباً، وأمامي رجلٌ من "بيت ساحور" مدادُ البحر في زرقة عينيه ويمضي.

رجلٌ قبْلِيَ بالرقم القياسيِّ، وبعدي بسقوط الرَّقم يمضي.

(10)

ماذا لَو البطريقُ محتمياً بقُرص الشمس ألغى البحرَ. أبدل ريشَه بغريزةٍ أخرى وأبَّنَ موْتَه بقصيدتين (المجدُ للفوضى) يغافلُ حارسَ الجبَّانة الكبرى، ويُوصي للسماء بنصف ثروته، وبالباقي لـ"حِمْصٍ" و"النَّواعير".

(شبقُ الرنين ومتعةُ الهذيان) يا كينونة حملت سفاحاً جزَرَهَا الرَّمليَّ من مدَّين!

(نصف المسافة قاتلٌ نصفَ المسافة)

آسفي، 1989.5.27

الدراويش

Prologo inicial

Irresistible verano !

No me importa la costa de la concha.

No me importa la Huerta de Vicente,

Ni Granada con bigotes y sin alma,

Ni Galicia con paseos de madera.

Pero la muerte de Lorca

Casi verde

Casi sotera

La Espana nudista de mi suerìo

Fuengirola, 7.8.1989

Juan Miro

هشٌّ بالفرشاة واللون على اللوحة. (تنّينٌ وفينيقٌ ومكّوكٌ) تفادى نزق الحرف البيزنطيّ لكيلا تخلق الفرشاة صنفين من الصّنف. بريئاً من قيام الحبر بالماء. بريئاً من ولاء النّيلة الزّرقاء للعصر الخرافيّ. بريئاً من خضاب اللمسة الأولى. بريئاً من دم الشّماس. يا من بعجين الصورة الظلّ يعرّي لغة الفطرة بالحبر، ويكسو لغة "اللوغوس" بـ"الإيروس". (قالت هذه الدفلى هيولاها : حياةٌ بخريفين) بنى الفينيق صرحاً، وبنى التنين سرجاً، وبنى المكّوك مهمازاً. (تطير الريح شبراً، ويزيغ السهم عنها) هاتِ ما شئت من الإحراق والصلب ! دمُ "اللوغوس" مصلٌ، ودم "الإيروس" حقنة.

فوينخيرولا، 1989.8.7

Salvador Dali

ينزل حرف "الدال" عن معطفه لراهب "البشكنس". حرفٌ نَبَطِيٌّ يحمل الشنب والشال ودورق النبيذ. ثمن اللوحة أن تغتصب اللوحة. كأس أترعت بالتبغ والتعب والجداريات : اللهُ والشيطانُ في رغوتها. (المتحف بيتُ طاعةٍ) عين على الشَّيْءِ

وأخرى فيه. نول امرأة موقوفة التنفيذ حاك كنزة الصوف لدفء رجل محتمل. (للنار من قَدَّاحة الذهب أو من حجر الزّناد طعمُ النار) خنثى أنقدحت بالشنب المعقوف والشال ودورق النبيذ في غبار "الدال". حول خصرها وخصره ينعقد العصر الوسيط وقميص النوم. (لا إغراء في هوامش "السَّاتان") هو يفعل الماء، وهي تفعل الطوفان.

فوينخيرولا، 1989.8.7

Pablo Picasso

مرَّ على "مالقةٍ" يوم ولادته. ألقى في التنُّور الألواح وأعقاب الفرشاة استخفافاً بكَرَامَاتِ الطفل الموسوعيّ وعصر الأنوار. صغيراً راضَ الخيْلَ. صغيراً حاكى تقويمَ القوطِ. صغيراً أغرى عذراءَ بحبَّات الفُستُقِ. من عيني "مالقةٍ" عيناه الدعواجان. نساءُ "أفينيونَ" وقينات سبعٌ أبكار، ويمامات سبعٌ منقوضاتٌ (في ظلٍّ جدارية) يجلسن عرايا لا يندمن على تبذير الصيغة. "كوريدا" بالقرميد الأحمر والجير الأبيض والفُسقية والسَّهم، و"غيرنيكا" بنُحاةٍ عبريّين وفرسٍ، وببندول دون اسطرلابٍ، وبشمسٍ في الظلّ مكعبةٍ،

وبآبنوسٍ زنجيٍ ذي تركيبٍ مزجيٍ. شنَّت "مالقة" حرباً شعواءَ على عارضة الأزياء.

فوينخيرولا، 1989.8.7

Rafael Alberti

شدَّ غيلونه إلى الشفّة السفلى. (دخولٌ إلى مغامرة الشعر) حشا جوفه بتبغٍ رديءٍ. (ينتشي قابضٌ على الجمر بالجمر) وأصغى إلى احتراق الثواني لاحتراق الأنفاس. (مرفأ صيدٍ، ويُخُوتٌ بـ"شاطئ الشمس") أصغى لـ"كتاب الموتى" يحاوره الرَّفُّ. (النبيٌّ العنقاء) واختار منه "ترجمان الأشواقِ". طارده النومُ. (اختلالُ النظام في الزمن البكر) رأى في المنام خادمةَ الديرِ. (جحيمُ المعنى ولا جنَّةُ اللفظ) تسرَّى بها قساوسةُ الدير. (رؤوسٌ صلعاءُ ينبت فيها شعر العانة الكفيفُ) رآها، ورأى الشاعر الخِلاسيَّ يبكيها على شرفة يخت. (زِنَى القرابة والحُلْم).

فوينخيرولا، 1989.8.13

Blas De Otero

دعى للبيت سيدةً لأن قوامها الممشوق ذكَّره بنرجسةٍ. كثيراً ما تحب الماءَ نرجسةٌ. صفاء الماء مِرآةٌ. أصرَّت أن تجيء إليه رفقة كلبها الآريَّ (إشبينٌ وعرَّابٌ) تبارك صائد العنقاء تكبر أن تصاد، وجاعل الضرغام بازَ الصيدِ. جمرُ الحدس للجسد البديل بكارة، ورماده بالقفل والمفتاح. من خطإِ المنجم عَدُّهُ زمنَ المجرَّة بالسنين ليستريح الربُّ يوم السبت. أعمى من أصابعه يرى أحْشَاءَ حبَّة خردل بشعاعه السينيّ دجنها وأطرى كلبها الآري. غَصَّ البيت بالفوضى. تعرَّى العاج من بعض الجهات السِّتِّ. دسَّت باقة الأسماء في المنديل. شاعرةٌ تخيَّل أنها منذورة لخلاعة المفتاح.

فوينخيرولا، 1989.8.7

Antonio Machado

ورث الصمت عن لغةٍ تلثغ الراء. شَرَّحَ جثتهُ. نقح النسختين من الصوت. (اسكندريُّ المقاطع) ضفدعة فاؤها تتحرش بالضاد. عاشرها في سراديب "ليما". تخثَّرَ كالدم في الماء. "سُونَاتَةٌ" أرجعتْ "صالحاً" لـ"ثموذ" وعاقر ناقته السومرية. نصفُ "السُّوناتة" منتحلٌ. (هربٌ معنويٌّ من الصبر) يجرؤ أن يتوغَّل في الحدس

حـتى تخـومِ الفـجـيـعـةِ. يجـرؤُ أن ينْحِتَ الروح في سـاق لبـلابة وصنوبرة وهمـا تحت طائلة الحجز. حـمله "الأرشيـدوق" الأمـانة من حيث حـمله السـومري الخيانةَ. رأس البلاغة في أنفـه المتورّم بالعاج والنُّبل، ذيلُ البلاغة في سفنٍ أحرقتْ نفسها في المضيق.

فوينخيرولا، 1989.8.7

Fernando Arrabal

جسـدٌ تعتَّق في المصحة. لوَّث "السـيروم" بـ"الفيـروس" والأورامَ بالعـدوى. تعـذَّر موتُه الطبيُّ. آثر لذَّة الإغـمـاءِ. نصفُ غيـابه غـارٌ، ونِصْفُ حضوره دُفلى. رُضُوضٌ شاهداتٌ في الإهاب على الإهانة. أيها التُّركيُّ فلتذهبْ إلى الحـمَّام في الزيِّ الموحَّد ! (لا يعيش الزَّيُّ ملحـمتين) علم الجبـر أغرى الراهبَ المسلولَ بالتثليث. أغرى الربَّ بالرقم اليتيم، وحاملَ الأختام بالعقل النقيض. تباركتْ أسماءُ آخر من يغادر حانةَ القديس "توما" ظامئاً، وكما تجفُّ الروحُ في أعماق غَوَّاصٍ. (يقدَّرُ في السلاحف زحفُها ووقاحة الملح) الحُبالى فوق نعشٍ مستطيلٍ والأجنَّةُ فوق صهوتهن مشمولين بالتأويل . . .

فوينخيرولا، 1989.8.15

Alejandro Casuna

لأنك تضرب للمعجبين المواعدَ في "حان خيخونَ" . تلبس "طوق الحمامة" محتمياً بمهارة صائغهِ وتقابلهم، فأنا أول اللاَّبسين مسوحَكَ. أولُ بخلِ العشيق، وأولُ جود العشيقة. محتفظٌ بطلاقته "جبلُ الثلج" . محتفظٌ بالرغيف المبلَّل والقِرَبِ المعدنيةِ. محتفظٌ بنساءٍ لجأن إلى الريح. عَانَتُهُ تتأهَّبُ عند الحوار، وقيثارُه يتقلَّص من خجلٍ. (أفْلَسَ العقلُ) ذكَّرني ببطاقةِ دعوته، وحمامتِه القرطبيةِ. ذكَّرني بمعاطفَ دون جيوبٍ تُدمِّر ما زاد عن حاجة السوق. ذكَّرني بفتىً رشق الديكتاتور بلُغْم فلم تتمتعْ بغير انفجارين عيناه. من وردة الرِّيح كان نهارٌ وليلٌ، وكانت سماءٌ وأرضٌ (جَنَتْ وردةُ الريح ما زرعت).

فيونخيرولا ، 1989.8.7

Manuel De Falla

وضع فوق المعزف الأرقط صورةَ ابنه. حيَّى الملامسَ ونشَّ أثر الغبار عن عاجاتها. مضى عليه زمنٌ لَمْ يحترقْ. وشَّح صدر صفحة "النوتة" بالقرنفل الأحمر. (ياسمينةٌ لقبره المنسيِّ) كادت "رقصةُ النار" هنا بالوقع والإيقاع في شعائر اللحن تشابه هناك "رقصةَ

العبيد" بالصوْتِ الأجشِّ والصدى. وبينما يُعدُّ للثور احتضاراً مزرياً، (رباطةُ الجأش لدى السهم الأخير) تكبرُ الدمية في عين المصارع. معاذَ اللهِ أن تُقَلِّمَ الأظفارُ من أصابع العازف كي تبلغ من ملامس المعزف ما تبلغه من شبق الجسد. يا أيتها الأصابعُ الماردةُ الشقراءُ بالهديل والسخرية النَّاعِمَةِ الخرساء توتي أكلَها الأشياء.

فوينخيرولا، 1989.8.17

Isaac Albéniz

نقَّح مُسْوَدَّة ما كتبه. حمَّاله "النوتة أدرى بالمخاض. رافق الدرويش في طوافه على قرى الجنوب. هل يتَّسع القيثار لاثنين ولا يشتعل الجنون في نُخَيْلَةٍ يتيمةٍ ؟ (يفتتح الدَّاخل بالضحك ما يختمه الخارج بالبكاء) لا شأن لما يرفثه المعدنُ من سلاطة الصَّدإِ. غيرُ الهذيانِ لا يحلُّ عقدةً. سمكةٌ تصطر من حرشفها بوادرُ الماءِ، ومن زعانف الظهر الرشاقةُ، ومن نَفَسِهَا المزكوم سينٌ مهمل، (يونس والحوت) وميمٌ مغلق، (أمومة تُؤَجِّرُ الثديَ) وكافٌ حائلٌ. (يكفر أو يومن) كان إذ يقود جوقةً يعبِّيء المنساةَ بالصبر إلى أن يستبيح ملكوتَ بحره، والبحرُ لاهٍ عن نبيٍّ شقَّه نصفين.

فوينخيرولا، 1989.8.18

Prologo final

Vivientes

Todas las celebridades

Disfrutan sus condiciones de anonimos

Pero muertes,

Sus nombres grabados sobre epitafios

De marmol que exige la ocasion,

Sirven de nomenclatura

Para avenidas convenientes

Fuengirola, 19.8.1989

الحارس والمقبرة

رآني في معيَّتها. (سأثبت أن واوات المعيَّةَ نفيُها الإِثباتُ) تعشق أذنه بالعين رائحة الفُصُولِ. تسلَّق الظلان ضوء الشمس. وَهْجُ النار عند الرأس والقدمين. بردُ الثلج في الفوذين. سيِّدَةٌ تبثُّ أنوثةً في العطر. يوشك أن يسودَ سوادُ معطفها على ألوانها الأخرى. على جَدَثٍ تجمَّع معظمُ الأجداثِ. في جسدٍ ستبعث هذه الأجسادُ. سيِّدة بكتْ لبكائه الناريّ واختصرت مسافتها. ألم تحملْ بطفلٍ هذه الأرحامُ سَيِّدَتِي ؟ بلى حملتْه. عند الوضع كان فصاله الجسديُّ في عامين. سيِّدة السَّواد لكُلِّ شيء عندها مقدارُهُ المعلومُ. شحَّتْ قطرةُ العرق الخَفيِّ من الجبين وأينعت في العين يَا حَوَراً ترقرق فيه ماءُ النار ! يا جفناً تقرَّح بالسعال الموسميّ ! شهادةُ الميلاد في إِيماضة العينين. في إِغفاءة طالت. هَلُمِّي لم أحبَّكِ قبلُ مثلَ الآن.

من رَحِمٍ توالدنا. ومن رَحِمٍ توالد من رآني في معيَّتِها. وفي رَحِمٍ تجلَّل بالسواد. إليك دجلةَ والفراتَ فأنت أجملُ في السواد. إليك سَيِّدَتِي الخمارَ. توشَّحي بخيوطه الدكناء! (أبهى ما يكون الحزنُ في العينين) ردَّ لثامَه بيديه (يستعصي الذُّهول الآن) عن وشمِ الجبين، وظل منه الحاجبان بغير سِتر. أيها المدفون مثلي فوق ذاكرةٍ وتحت خيوطها! (تئدُ الكتابةُ حبْرَها المغشوشَ في صدإِ اليراع) وكان أنك ميِّتٌ فيهم، وحيٌّ في التجرُّد والحياد. أصيح بقابض الأسماء ألا يقبض الأرْوَاحَ. للموتى أسَامٍ غير ما تدري، وللأسماء آدمُ غيرُ ما تدري. ذهول الشمس أقسى من ذهول الحارس الليلي، شدَّ وثاقه الجلديَّ. سار على رخام القبر هوناً إذ رآني في معيَّتها، كأنا ننحتُ الأسماء والأرواح في صخر المسلة.

بغداد، 1989.11.29

الناووس والعلبة

في "وهرانَ" "الغوثُ"، وفيها "سانتا كروثُ". غريمانِ، كـ"سانية" في دلو سرٍّ فصاحته في الماء المالح: ناووسٌ في علبة حلوى مربوطٌ بشريط ورديٍّ. أنفاسٌ أربعةٌ في أحضان أربعة تحبو ومواساةٌ واحدةٌ. همَّت أن تجلس لي في الحيّ الحادي والعشرين مجردةً عاريةً كي ألْبِسَهَا أزيائي. (تأبى الصورةُ هذا) ألبسُهَا باليةً. (حربُ استنزافٍ) ما أعطتني طعمَ الملح ولا استجديت النكهةَ منها ألا وأنا موعودٌ بالتحلية حيناً بالصوف وحيناً بالريش. تعالي! أدعوك إلى تعويم العالم في منفاه الآتي حتى يحظى بالدهشة والسهو الأقصى. إنّي ما دبَّرت الخطَّةَ. (ضوءُ الفانوس الواني تشييئ للديجور) كلانا يمشي خلف الظِّل المعقوف. كلانا دون المنصب. "وهرانُ" القشتاليةُ الصنعِ المحجوبةُ في التِّيل الأبيض معفاةٌ من جلد حقيبتها. معفاةٌ من

سرِّي العاري. معفاةٌ من حمل الصخرة. (جهلٌ مشفوعٌ بهوامشه مأمون الفاقة) رغم الجبص المَنْقُوشِ وصناعٍ لا صنعةَ في أيديهم، أصلحنا بينهما ذات البين. الأنثى لي وحدي في ديوان الشعر وفي إكليل الشيب وفي فندق "تيمجاد" المسكون الساكن. (شيء كالجمر) الأنثى لي وحدي ما رَحُبَتْ عيناها واسودَّ الكحلُ الفطريُّ على هدبيها. لا أخفي سرّاً أن أودعت رموزي في العلبة دون الناووس، ووزعت "الجيرانيوم" على أزيائي، وعلى سكان الحي الحادي والعشرين. أمامي الفرشاة، وخلفي اللوحة. (ترميم البالي بالأبلى) وأمام الخلف "أوليفيا" ترنو من شرفات الفولاذ المبروم إلى نهر أغرقها فيه "الغوث" الأنثى لي وحدي، وأنا ألبسها فلينقطع التيار !

وهران، 1990.12.27

القيثار والمنصة

من أجلنا عقصتْ ضفيرتها الرتيبةَ، واستبدَّت مثل ثالثة الأثافي. (عاجزٌ مثلي ترجَّل فاستبدَّ) بمطبخٍ سوريالي القسمات في أقصاه "تُولُسْتُويُ" كان الخائفون من الشماتة يسترون عراءهم بالخبز حيناً والتمرُّد آخرَ. (الأعلى يصوِّت للبخار وعصره الحجريِّ والأدنى يصوِّت للخيار العسكريِّ) ضفيرةٌ بنجيعها، ومجرَّةٌ بشعاعها المغسولِ. (ليلٌ محتمٍ بشتائه، وشتاؤُهُ عريانُ) ليس للابس تنُّورَةَ الصوف المدجَّج بالحياكة أن يقرَّ بشوقه حتى لو استدفا بعينها وغالب قحَّة الأرض الجَدِيبَة. لا يضيق المطبخُ الصوريُّ بالحجر المؤنث والأوَاني القرطبيةِ. لا يضيق بغير رائحة الفضول وبذلة الرقص القشيبة والبطالة. (للمشاجب دورُها) يتساءل الناجون: "أين الماء في عينيك؟ داهمه الجفاف. - وأين يستعر الجفاف؟ -

على جدار تحته كنز. ـ وأين الكنز ؟ – في صدري. ـ وأين الصدر ؟ – في المنفى المؤَجَّل. لَمَّ "تولستويُ" أعقابَ السجائر والقناني الفارغات و "رقصة النار". المنصَّة للصدى، وبلاغة القيثار في الترجيع. كَمْ طَعمُوا فما انتشروا ! (جنونٌ أن يفر القطُّ من دار الوليمة) كم تعرُّوا من أناملهم ! وكم لبسوا الأساورَ ! إن راقصة تغازل راقصاً بـ "مدينة الزهراء" تتهم المنصَّة والصَّدى، وتبرِيء القيثارَ والترجيعَ من ترويض قينات الفراشِ إلى خداع الشعر بالإنشاد. (بع قرداً بضعف السعر ثم اضحك على شاريه !) "تولستويُ" أثث مطبخاً بشخيره الروحيِّ. (معنيٌّ بما بعد الطبيعة) عاجز ينجو بمعجزة من الطوفان.

قرطبة، 1990.1.20

حـالتـان

الأولى :

أغرينا إِنسـانَ "الرَّبْعِ الخـالي" بالتعـمـيـر. (استـهـلالٌ ضـدَّ التـيَّار) العشب العاري محروسٌ بدهاقنة سُودٍ بيضٍ، والرّقُّ مشـاعٌ في "درب البـركـة" من حيّ "القطانين". يُعـاني مشَّاؤون غزاةٌ من عسـر الطلق. (مسمىً واسمٌ وصلاةٌ) أيدينا برأناها رسغاً وأدناها كفّاً، واستثنينا من تحـصـيل المتـعـة مـخـصـيّـاً. من "قـابيل" المديةُ. (نارُ الله ولا نارُ الجارِ) ومن "هابيل" الجثَّةُ في طور التلقيح. لذا أسدلنا اللحية إثباتاً للرأس المقطوع ونفـيـاً للنطع. اللحـيـةُ مـعـيـارٌ والرِّق سـقـوطُ المعـيـارِ. اسـتـأنا من تدجين الجـوقـة بالعـزف المفـرد. (أسْطُقْسَـاتٌ نَاشِـزَةٌ) نَقَّحْنَاهَا حَتَّى العُرْيِ : (ذُبُولٌ فاعْشِيشَابٌ) من حَيْثُ استغنينا عن بدءٍ وختام بالديباجة.

الثانية :

أغرانا بالتدمير "الرَّبْعُ الخالي" . "جينات"" وارت سوأتها في الأرض. غرابٌ علَّمها أن السعر البخس استدراكٌ بالكنية ما فات التسمية. ("جينات"" سفلى) من غابات الإسمنت استوقدنا حول الأسطورة ناراً : ضوءٌ مكفوف بعصاه البيضاء المطويَّة. بحرٌ محشوٌّ بأساطيل، وبرٌّ ملغومٌ مبقورٌ. بايَعْنَا أقلامَ الحبر الجافِّ. استنزفناها. (لم يُفْطَمْ مثل البحر صبيٌّ) قاسمناها الغمد الجلديَّ. تعلمنا منها العزلة والزيَّ التقليديَّ، وغازلنا دوقات الريخ الثاني. قَيَّنَّاهُنَّ بمشتقات النفط. احتطنا من طغيان العرف على العادة. (ملحٌ ماءُ البحر الميِّت) إنْ جاءوا بالفروة (ماء ملح الأرض السبخة) عادوا بالقرنين. استمتعنا بذبابٍ يُصغي، ومُبيدات تُحيي قدَّاساً. (آه من هذا الزيّ !) العزفُ سجالٌ والسُّلَّمُ خاماتٌ موتوراتٌ والمخلوقُ التُّحفةُ في التُّحفة.

فاس، 1990.8.14 ـ 1990.10/14

الخمَّار

يشرب الآن كأساً، ويشربها كلَّما جفَّ من آخر الكأسِ. يَا وَيْحَهُ!
زمن كشظايا الزجاج أعاد الغراء له السبكَ. يُسدل أستارَه الليلُ. يا ويحه ! ينتقي كفنا صالحاً. يضع الشعر في أصغر الخلق سرَّه.

ذات مرة

طال خيشُ القماط فغطَّى الملامح. يخرج من حيث يدخلُ. بابٌ يؤدي إلى مثله. خطوةٌ إثرَ خطوة

تغمس القلب في كفنٍ وتذر الرَّمادَ عليه. الرَّمادُ المؤجَّلُ نحنُ. الرَّمادُ المحمَّلُ بالموت يزحف نحوه.

عندنا لك ما تشتهيه، وعندك ما نشتهي. فاحتفظ لك بالمهد واللَّحد رحبين ! هيئ لنا فيهما مرتعاً ! أيها الخزفُ المرُّ ! يجلسُ في آخر الصفِّ. تجلس في أول الصفِّ.

يُصغي إِلى حسَكٍ يتناسل في الرئتين، وفي الرئتين الطحالب.

سدرة المنتهى

عندها

يستردُّ التراب الوديعةَ. من لؤلؤ العينِ تغزل فوسفورَها الرثَّ نارُ الحُباحبِ.

هذه اللغة العنكبوت

أنت ساكنها وأنا. نحن أو هي البيوت.

هذه اللغةُ العلْكُ بين اللسان وبين اللهاة

نحن تاريخُها الخِصبُ. ضرع الأمومة ثرٌّ، وتُوأدُ من أجله الأمهات.

هذه اللغة المصطكى

(قالها واتّكى)

هذه اللغة المزَّةُ الأمُّ مفعمةٌ بالبكا.

كان داؤك في الشعر قبل دَوَائِكَ فيه. أخفٌّ على المرء من خلع نعليه أن يتكي ويَرى ويُرى

والكرى

آخِذٌ بمعاقد جفنيه.

كنت تحمل قبل الولادة من حملتْ بك. ها كل شيء بمقداره :

رَحِمٌ غاض في رَحِمٍ فاض. ليس سوى سِنَة وتصبٌّ الحياة الحقيقة في الموت.

ليس يكبر شيْءٌ إذا امتصَّه الصمت من ألف الصوت.

ليس يكبر.

أنت إن كنت لابدَّ تعبرُ قبل الأوان اركبِ الحدسَ واعْبُر !

وعلى المشرط المتوحِّش خدش الإهاب النُّحاسي

وقرار الطبيب النطاسي.

أنت إن كنت لابُدَّ تَعْبُرُ، خَبِّرْ !

أفيلا . (إسبانيا)، 1991.4.5

... إلاّ بلقيس

(1)

ندّت طعام النذر في المطبخ. لم يكن على جسدها غيرُ اسمه، ورطبٍ طازجةٍ في نصفها الأسفلِ لا تحتملُ التأويلَ. من يقدرُ يا آلهةَ الخصبِ على تأجيلِ قوتِ يومه لغده ؟ وفجأةً خرجَ بعلُ "أورَ" عن وقارهِ فواقعَ الطّعامَ من رحِمِها المالحِ. يا بلقيسُ ! يا عازفَةَ الأرْغُنِّ ! تلكَ أمّهُ من ضلعه وأختُهُ من فَخذَيْه، وهو ذاك البابليُّ صائدُ الفراشات.

البيضاء، 1992.7.28

(2)

ظلّت تجري خلفَ الإنسانِ الألفيِّ، ولم تخرج من جُثَّتها إلاّ لثوانٍ معدوداتٍ. لو شئنا خيراً بالنّملةِ لم نخلقها بجناحين، ولو شاءت خيراً بجناحينا النملةُ لم نُطلق ساقينا للرّيح. الحُورياتُ عرايا إلا من جُرأةِ إحداهنَّ على تحقيبِ التاريخِ، ولمّا قاربن الحدَّ الاقصى من حالاتِ "النِّيرفانا" غنّتْ صوتاً لكمالِ المعنى في أوراقِ التوتَةِ بلقيسْ.

البيضاء، 1992.7.29

.

(3)

وبلقيسُ التي من "أورَ" تدعوني إليها والخيَارُ الصعبُ في طور التقاءِ الساكنينِ. النهرُ هذا باردٌ والصابئُ المدعُوُّ تحتَ أشعَّةِ الكانونِ يكسو صوتهُ دفئاً. تعالى صوتُها السريُّ منتهراً وصيفاتٍ شغفْنَ الضّيفَ حبّاً. وحدها انسحَبتْ من النّاسوتِ واللاهوتِ : وقتٌ لاختلاسِ النّرجسِ البريِّ من وجهٍ ومن بئرٍ، ووقتٌ لانطباعِ الشكلِ في المرآة.

البيضاء، 1992.8.4

(4)

لبلقيسَ أن يتقمّصها الرجلُ المتحدّثُ باسمِ الطيورِ، وللرجلِ المتحدثِ باسم الطيورِ قبولُ الإهانةِ أو رفضُها. وجديرٌ بها جسدٌ بثلاثة أقنعة : صمتُها الحجريُّ، وسقطتُها تحت عبءِ فواكهها، ووداعتُها الملكيّةُ. يا إبرةً سقطت في مفازة رملٍ ! ويا إبرةً عثرتْ في مفازةِ رملٍ على نفسها ! سوف تبني العناكبُ أوهى البيوتِ اعتماداً على خزَفٍ آيلٍ للسقوط.

البيضاء، 1992.8.1

(5)

قلتُ يا بلقيسُ كوني خطإي الأوّلَ ! كوني زينةَ الله ! حصارٌ ضاربٌ أطنابهُ الآنَ علينا، جاءَ من معنايَ قبلي، وأنا سبقُ لسانٍ، وأنا سبقُ زمانٍ، ولذا دمَرتُ حرفاً واحداً من أحرُفِ اللّينِ لأنّي جئتُ بعدي. أيها الموعودُ باليُتمِ ! هباءٌ كلُّ وجهٍ بقناعٍ. كلّما راودكَ المعنَى عن النّفسِ تداولتَ زماناً يلبسُ الجثّةَ فوقَ المعطفِ البالي ويمشي في زمانٍ مرّ منّا خطأً.

البيضاء، 1992.8.4

(6)

وتذكّرتُ أنهُ النهرُ يسعى بمصبّاته وعمقِ مجاريه إلى حتفِه. تذكّرتُ بلقيسَ تعرّتْ لتستحمَّ. حدوسٌ وحتوفٌ. تراوغُ الجسدَ الغَضَّ معاناتُهُ مع الماءِ والطّينِ. يسيلُ الكلامُ من غِمدِهِ الرّثِّ على جثّةِ الغريقِ. استعادتْ لغتي طينها، وعاد إليها ماؤُها البكرُ. أيها العطشُ الأعلى ! كبارُ الحدوسِ أصدقُ موتاً : فرحٌ واحدٌ برُعبِ زمانين.

البيضاء، 1992.8.4

(7)

بلقيسُ باسمي عمّرتْ مدناً، وباسمي دمّرتْ أخرى، ووزّعتِ الدّلالةَ بالتساوي. صبغةُ اللهِ التي فُطرتْ عليها دميةٌ هيفاءُ أدعوها "مينيرْفا" البابليّةَ. أنقلُ الصدأ القديمَ إلي منها، ثم أكتبها بغيرِ الحبر. سيفي مُصْلَتٌ والغمدُ يمسكهُ. الرّطوبةُ في اشتعالي، والرطوبةُ في انطفاء أوارها. ولحكمةٍ تستأنفُ العنقاءُ هجرتها وتكبرُ في الرّمادِ فلا تُصاد.

البيضاء، 1992.8.4

(8)

لم يقلْ أحدٌ إنّ بلقيسَ تهرَبُ من ظلّها. يتسكّعُ "سِيزَانُ" فوق مفاتنها. تتعرّى أمام ذلاقةِ عينيهِ. تستدرجُ الحسّ أن يتكاشفَ كالبئرِ من دلوهِ، والرّتابةِ من دورانِ الرّحى. جهمةً خالعتْ مصرُ أهرامها، وبشوشاً تجاهلها الهرمُ الأكبرُ النّهرُ. "سيزانُ" صوّبَ أخْطَاءَهُ فتناولَ تفّاحةً من خزانةِ أسمائهِ وتمرّسَ بالوهمِ. أصلُ الخرافةِ فاكهةُ الشجرة.

البيضاء، 1992.8.16

وثائق الصحف الأولى

أقفلتِ الجسدَ بالإجهاضِ خوفاً من توالدِ المقولاتِ من التفّاحِ والأعشاب.

ليمامةٍ زرقاءَ حتى العظمِ ملءُ غبارها عدداً. كما بدأت تعودُ إليَّ عرّافة.

بدأتْ بالبكاءِ على ولدٍ وأخٍ، وانتهتْ بالبكاءِ على الشيءِ في صوتها.

تحبُّهُ حبّينِ : حبّاً باحتراقِ الجسديّةِ، وحبّاً بالأنا المكرّر.

أرضعها رضيعها مملكةً فأرضعتهُ لبناً.

تحلمُ أنّ شاعراً ملوّثاً بلغتينِ كلما اقتربَ من عفّتها تفيضُ كالقصيدة.

لم تسكت في ليلتها الألفيّةِ عمّا يحلو، وأعدّت للصمتِ الأرجوحة.

قافلةٌ توهّجتْ بامرأةٍ تخلّفتْ عن ركبها. تبرّجتْ لرجلٍ تصنعهُ الإشاعة.

خصّتْ مساءَ السَبتِ لاستمتاعها بالشعرِ. من ذا ينقذُ الأسبوعَ من أخطائه ؟

صديقها "فَاوُسْتُ" لا يبكي ولو بكت بكاءَهُ بدمعٍ لغويّ.

قالت "تِيرِيزا" "للحَافِي" : "أمهلني حتى أسرقَ وجهي من مِرآته."

كتبتْ بعشبِ العانةِ الوَرْسِيٍّ توصيّةً إلى خِصيانها الشّجعان.

(حيث يجري حقنُ الوثائقِ بأزمنتها)

أخطأ "أورْفِي" مرّتينِ: مرةً بوضعهِ السَّحْلَبَ فوقَ قبْرِه، ومرّةً بوضعِ "أورِيدِيسَ" في جُثّتها. لو تمّ تشريحُ بقايا مُتعةٍ تشبّثتْ بهامشِ القميصِ، لانتقلتِ التّهمةُ من وثيقةٍ كانت إلى وثيقةٍ تكونُ. لو تمّ "لأورْفِي" وسليمانَ وبلقيسَ و"أورِيدِيسَ" أن يستدرجوا الحيتانَ نحو جزرِ المرجانِ كي تستكملَ العدّةَ من أشهرها الحُرُمِ، لاحتالوا على سعادةِ النارِ وبؤسِ الماء.

البيضاء، طنجة، 92.8.27 ـ 92.9.3

مملكة "هنري ميشو" الحيوانية

تتـعلّمُ منكَ الذّبابةُ حـسنَ مُـعـاشـرتِي دون إرْهاقـهـا بمطاردةٍ أو بإرغـامـهـا أن تُدَجِّنَ لي إن تَدَجَّنْتُ. تجلسُ فـوقَ أريكةِ وجـهي، وتشربُ ملحَ دموعي، لأنّ الضّرورةَ تجمعُ إلْفاً من الثّدييّاتِ إلى إلْفه من ذواتِ العيونِ الرّحيبةِ. أرغبُ في فكٍّ لغزِ الذّبابةِ دون اللّجوءِ إلى العقل. دون الرّجوعِ إلى رَحِمِ الأمّ حيثُ عُطاردُ يولدُ بالقيصريّةِ من بخلها وسخاءِ زُحَل.

والذّبابةُ إن وشمتْ ساعديكَ وما غمستْ إبرةَ اليدِ والرّجلِ في جلْدكَ المُرِّ تجعلُ بيني وبينكَ سُدّاً : تُضايقها البطالةُ أنتَ، وأكشفُ عنها العذابَ أنا وسفينةُ نوحٍ. على الشعراءِ العناكبِ أن يُنْسَجُوا في عَبَاءَاتِهم مثلما يُنْسَجُ الدّبُّ في فروته.

نحلةٌ دجّنت فرساً. نزفَ الشّمعُ والشُّهْدُ منهُ ومنها بوضعِ الخليَّةِ بين هلالينِ. تركبُ صهوتهُ فيطوفُ بها حول ظلٍّ حوافره، ثمّ يركب إبرتها فتزيغُ به وخزةُ اللَّسعِ عن عالمِ الحسِّ. تكتشفُ السّرعةُ الآنَ سرَّ العلاقةِ بينَ "ابنِ دانيالَ" والظّلِّ. يرسمُ بالضوءِ ما لا يُبرهنُ بالظّلِّ عنهُ. ومنْ نسخٍ يتكرّرُ فيه العراءُ ويتّحدُ اللّسعُ بالجسديَّة، يخلقُ من نحلةٍ فرساً. والخلاصةُ أنَّ فتورَ العواطفِ بينهما يتولّى الخيالُ المُجنّحُ تسخينهُ بمبادرةٍ منكَ يا حارسَ المملكة !

نحلةٌ - فرسٌ بأصابعها تتحسّسُ يُعْسُوبَها. صفّقت للسّماءِ السّنابكُ، واحتفلت بالجناحيْنِ أزمنةُ الأرضِ. أصغرُ منها الجراحُ التي نُكِئَتْ، مع أن التّعاويذَ أقدرُ من مِبْضَعِ البيْطريِّ على قلبِ جنسِ الجنين، وأقوى على فَصْدِ مُرضِعةٍ برضيعٍ. هلُمَّ إلى زمن الطّمْثِ يا "هيتَ لكَ".

الفتاةُ التي غازلتْ وجهها طوّحتْ بالمرايا إلى اللانهاية زاعمةً أن في غُرّةِ الفرسِ النحلةِ الآن عيباً. لَذئْبٌ على الصّدرِ يجثُمُ أرحمُ من فأرةٍ تنخرُ السُّدَّ. تلك الفتاةُ التي تتناسخُ في طائرِ التَّمِّ تحجزُ في بركةِ البلديّة عشّاً لها شجريّاً، وعشّاً لعاشقها طُحْلُبيّاً. تُعَافُ الخنافسَ والدّودَ قوتاً لها، وتَعَافُ الخنافسُ والدّودُ آكلةً بفمٍ

مستعارٍ. لذلك طارتْ طواعيّةً واختياراً بأجنحةٍ، واضطراراً وجبراً مشتْ بالحوافر.

ولأن كلابَ المزابلِ عارفَةٌ بالعُفونةِ تدركها بالفراسة، كانت حداثةُ عهْدِ "سَدُومَ" برمي النفاياتِ تغري بجذْعِ الأنوفِ لكيلا تُميّزَ بين الطّعومِ وبين الرّوائحِ. عَوْسَجَةٌ تتآكلُ : أعينُها سُملَتْ لا بقصدِ الوجاهةِ بل لاحترافِ التسوّلِ. غصنٌ مسيرتهُ ألفُ عامٍ، وساقٌ مسافتها بوصَةٌ. ويشيخُ ترابُ الحواسِّ التي تتجمعُ في الأنفِ عند اجتياحِ المدينة.

وتظُنُّ الزنابيرُ أنّ دخولَ الخروجِ إلى البيتِ إن كانَ سهلاً فمُمْتَنِعٌ، لاكتظاظِ خزائنه بالمبيداتِ فضلا عن السّمِّ في الدّسمِ السكّريِّ. فكلُّ محاولةٍ لخروجِ الدخولِ من البيتِ تقمعها وتثبّطُها ضرباتُ المنَشَّةِ. لا لاتَ حين لهذا المناصِ إذا أفسدَ النّقلُ ما أصلحَ العقلُ. كيف إذن يتكفّلُ فعلُ القياسِ بإبطالِ مفعولهِ بالبراهينِ، والبابُ موجودةٌ في المسافةِ معدومةٌ في المساحة ؟

إبرةٌ إن توغّلَ في سَمِّهَا جملٌ، صحَّ لي أن أحيكَ بها كنزةَ

الصوفِ للجملِ السَّوْمَرِيٍّ، وصحَّ لهُ أن يُضاجِعَ فيَ خِدْرِهِنَّ إناثَ السِّباعِ بها : هنَّ دفءٌ لهُ ولباسٌ. فإن بدرَ العجزُ من لابسٍ دون ملبوسه، كُنَّ أولى بردِّ الإهانةِ للجملِ السّومَريِّ، وإلا فمن يدَّعي أنهُنَّ يبعنَ الفراءَ الثّمينَ بلحظةِ أنسٍ بها رَغْوَةٌ وشُروخٌ قديمة.

أيُّ حبٍّ أحس به نحوَ يُرْبُوعَةِ قرضتْ معجماً لغوياً برمّته، وتَبَاهَتْ بأن فسائلَ غُدّتِهَا الدَّرَقيَّةِ منه. لهذا ادّعى رجُلٌ آكلٌ لليرابيعِ هوَ "أبُو الفَتْحِ" أن الفهارسَ من صنعهِ وامتلاءَ الفهارسِ بالجمرِ من فعلها : مُضغَةٌ حَرَّفَتْ نُطفةً عن مواضعها فكستها الحضانةُ لحماً، وجمعيّةُ الرفقِ بالحيوان عظاماً، وذلك بعد انقراض "أبي الفَتْحِ" والمعجمِ اللّغويِّ. فأي كراهيةٍ لا تُعَمِّرُ كالحُبِّ ؟ أيُّ كراهيّةٍ لمْ تَهبني عَدُوّاً بقدرِ حَصَافَتِهِ لمعانُه.

حجر النَّرْدِ في كلْسهِ قمرٌ بازِغٌ ووراءَهُ شمسٌ مُكَعَّبَةٌ، إن يَكُنْ لاعبُ النّرد شهماً وطاولةُ النّردِ من آبنُوسٍ، ويسفرُ عن ثّغرةٍ في جدارٍ يطلُّ على نفسه، إن يكن لاعبُ النّردِ عرّافةً تتحرّشُ بالغيب، أو تتأوّلُ تمساحةً بأظافرِ خرْتيتَةٍ داهمتْ موتها المتأخّرَ. هل للغرورِ معاييرُ تقضي بقَسْرِ الضَّوارِي على خَلعِ أنيابها ومخالبها دون أن تتضرّرَ هَيبَتُها بالسّباحةِ ضدَّ التيار.

دكار (السينغال)، 1993.5.6

فواكه فاس السبع

"زقاق الرّمان"

عرّشتْ فوق سور الزقاق المشاغِب، طعمُ التقمّص فيها ورائحةُ الزَّغَب المتمرِّدِ والأرجوان. تَرُدّ بأحسنَ منها التّحيَّةَ إن رشَقتْها الحجارةُ أو فاجأتني على حافةِ القِشْرِ واللُّبِّ أحصي أساميَ من وقعُوا في حبائِلها.

"رحبة الزبيب"

تشكو من عُسرِ الطّلقِ ومن "بَيُّوضِ" النخلِ، وأشكو من عنبٍ مُزٍّ لم يبلغ سنَّ الرّشدِ. وفي جِلسةِ أنسٍ ضمّتْ قَرّائِنَ صغاراً، أوكلتُ التجفيفَ إلى جمرِ الميلادِ المفتوحِ، وكلّفتُ العرّافَ الإغريقيَّ بإيقادِ الفتنةِ في "أفْسُوس".

"درب مشماشة"

فاجأها أن اسمها المائيَّ مبتورُ الذِّراعينِ، وأنّ أرذَلَ العمرِ وعنفُوانَهُ علامةٌ على دخولِ الشيءِ في الشيءِ، وأن العيبَ في الشَّمِّ الثّنائيِّ. لذا أيقَظْتُها من عشبِها بقدرِ ما وَسِعَني تجاوزُ النَّواةِ واللَّزِجِ من مخلّفاتِ ريقها.

"درب التّوتة"

حاصرتني - ومعي بُرْعُمُها الأخضرُ - من كلِّ الزَّوايا، ورمتنِي بحصى التِّرْمِسِ جبْراً، واختياراً ببذورِ الملحِ. يالِي ! إنْ تعرَّتْ وأنا ملءُ الجهاتِ الستِّ مَعْنىً لبستْ جُثّتَهُ ستُّ جهاتٍ، وتعرّتْ لعراءِ الورقاتِ السّبْعِ. يالِي !

"باب الخوخة"

بنى شخصٌ من الهِكْسُوسِ قصراً في مكانٍ ما من التاريخِ. أوصاني ببثِّ العطرِ مَزْكوماً، لأنَّ الشمَّ معصومٌ من الأخطاءِ، والدّودَ الذي في الدّودِ عُضويٌّ. تخلّى القصرُ عن تقليدِهِ الألفيِّ واستغنى عن الأبوابِ بالحُجَاب.

"باب الزيتونة"

من هذه الأشجارِ واحدةٌ تقولُ بزيتها لي : "أنْ تريّثْ حين تشعُرُ بانحسارِ الضوءِ عن زيتِ الفتيلِ، ففي ثَراها يَنْحِتُ الحطّابُ قصّتهُ مع النّارِ التي علِقتْ بفأسٍ غيرِ موهوبٍ يوقّعُ باسمهِ الشّخصيِّ فوقَ لحائها المعطوب.

"اجزام برقوقة"

باحثاً عن مساحةٍ هجرتها دودةٌ ضخمةٌ تجاوزها الرّكبُ، رأيتُ الجذورَ تنقلُ بعضاً من تعاليمها إلى الماءِ والطين، لذا أسلَمَتْ إلى الرّيحِ ساقيْها وأهْدتْ إلى الجرادةِ صيفاً مِجْهَريّاً، وروحُ "عَشْتارَ" فيهِ.

كان لي

الحق في

الأولويةِ

عند

دخولي

على متنِ

تفّاحةٍ

وخروجي

على ظهرِ

أفعى.

البيضاء، 1993.7.14

من فعل هذا بجماجمكم ؟

A léo Ferré

للنّساءِ اللّواتي نَحَتْنَ على فَصٍّ خاتمهنَّ ملامحكَ البَلْشُفيَّةَ، بَوْحُكَ بالسّرِّ. أوصيتَهُنَّ بألاّ يُرِقْنَ بُوَيْضاتِهنَّ على خرَقِ الشَّبَقِ المتأخّرِ فيهِنَّ. كمْ هيَ ساحرَةٌ رِبْقَةُ الطَّوْطَمِيِّ مُطَوَّقَةً بالتّميمَةِ ! مستنقعٌ مَنَوِيٌّ هي الأرضُ تحتَ أناملِ عازفِ قيثارةٍ يتجوّلُ بينَ قُرى الرّيف.

ولأنّ لموتِكَ وقعَ انكسارِ القرارِ ثقيلاً على سَببينِ خفيفيْنِ عندَ الجوابِ، فموتُكَ في جُبّةِ الصوفِ صعبٌ، وموتيَ أصعبُ في جُبّةٍ نقضتْ غزْلها ليسَ فيها سِوايَ. ملامحكَ الآن مسكوكَةٌ، (نسبةُ الطيْشِ عاليةٌ في مُجاملتي) وأنا مُتْخَمٌ بالتعاليمِ، ممتلئٌ بالعصورِ، وفي حاجةٍ لخرابٍ وفوضى، وهنَّ اللواتي توغَلْن ما بينَ ظُفْرٍ وأنْمُلَةٍ،

يتهرّبنَ من موتنا المتبادَل، يسدلنَ أجفانهنَّ على نشوةٍ ويُبَدِّدْنَها، ولهنَّ من الرّبْحِ والخُسْرِ ما تتكبَّدُهُ لُغَةٌ بحذافيرها.

البيضاء، 1993.8.25

A Georges Brassens

نهايةُ اللّعبة أن يجيءَ عيدُ الفصحِ بالشّاعرِ والعجوزِ من مجاهِلِ الجنوبِ في مِحَفَّةٍ من خشبِ العرعارِ، أن يختليَ الغُلْيونُ بالتّبغِ لرسمِ صورةٍ للأرضِ من دوائرِ الدُّخّانِ. أن يرتديَ التّاريخُ للمأتمِ عُمْراً سابقاً. وهكذا أحبَّ ديكُ الغَجَرِيَّةِ قَطاةَ "التروبَادورِ" حينما انتقلتِ العدوى من المالكِ للمملوكِ. باسمٍ مستعارٍ وقّعَ الشعرَ لها، فصادقتْ هي على صحّتهِ بالنّبرِ والإيقاعِ. (مكرُ أرنبٍ وخُيلاءُ امرأةٍ) وأنتِ يا ذُبابةَ الصيفِ لأنّ قَفَصَ الرّقِّ ببابيْنِ تركتِ الرّقَّ مفتوحاً على مصراعيه.

نهايةُ اللّعبةِ أن يسبقنا إلى الترحُّمِ علينا ريشنا الأبيضُ. أن نشربَ نَخْبَ حانةِ الميناءِ. أن نفرَّ من شيْخوخةٍ كالجدلِ الصّاعدِ بالتّدريجِ نحو بَرْزَخِ النّسيانِ. أن ندَّخرَ القلقَ في غلافهِ السرّيِّ. أن نعودَ من حيثُ أتَينا فُقْمَةً بَحْرِيَّة.

A Jacques Brel

أهديتُ على مـرآى منكَ إلى "إلْفِـيـرَا" طَسْـتـاً تَبْـريزِيّاً فـيـه "السُّـوناتاتُ" السبعُ الأبكارُ، وأهدَتْنِي - ردّاً لجَميلي - قنديلاً كان رُعاةُ الوَندالِ يَصُدّونَ به عنهمْ روحَ الشّرِّ، فلمْ تأكُلْكَ الغَيْرةُ منّي إلاَّ قدْرَ الرِّعْشَةِ في إيقاعِ الشّعرِ، وإلاَّ قدرَ البُحَّةِ في ترجيعِ الموسيقى.

مرَّ النهرُ العاري. مرَّ المصطافونَ على أجسادٍ مدعوماتٍ رسميّاً من صُندوقِ النّقد. وما مرّتْ أكَشاكُ الخُوصِ البالي، إلاَّ وتَلَتْهَا أنثى من صلْصالٍ من حَمَإٍ مسنونٍ. (عِمْتُنَّ مساءً يا حوريّاتِ "الكارايْبي" ! هلاَّ بصَّرْتُنَّ البـبْغـاءَ الأنثى بمزايا الفولِ السُّوْدانيِّ !) الأنثى صالحةٌ للعِشقِ الدَّوْريِّ كجوزِ الهندِ. الأنثى تختـارُ لنا موْتاً من مَوْتَيْنِ. الأنثى تُمهِلُنا حتَّى نُصلِحَ من شأنِ الحزنِ الباقي في قعْرَ الكأسِ. ضروريٌّ حلُّ اللُّغزِ المُستَعْصي إنْ شئنا دَوْزَنَةَ القيثارة.

فاس، 1993.1.9

A Edith Piaf

تحتاجينَ إِلى رُعبٍ يوْمِيٍّ مَفْتولٍ، وإِلى أرَقٍ صافٍ فَضفاضٍ، وأنا أحتاجُ إلى هندامٍ تَبْتَلُّ بهِ أشْلائِي. من منَّا "ميلورُ" البحريُّ على بابِ الأوقيانوسِ الرّحبِ المفتُوحِ ؟ لعلّي وأنا أكْفِي نفْسي شرَّ العمّاتِ - الخالاتِ المغروراتِ بقُفَّازاتِ الصّوف البالي، ألْغِي موتي، وأدينُ الإِغماءَ العَذْبَ الغامضَ مَلفوفاً في السَّاتانِ الأسود.

من غيرِ استئذانٍ لَمْلَمْتِ الكبريتَ الباقي في قعرِ الأصْفارِ الحَدْباءِ. فمن صِفرٍ للتّنويهِ إلى صِفرٍ للتَّهْوِيَّة، شيَّدْنا في الحَيِّ اللاتينِيّ مَزاراتٍ، وابْتعنا كُرسيّاً زَحَّافاً لعُصورِ "الجَافا". كمْ ذا يحتاجُ الصَّدْرُ الضّيّقُ من آهاتٍ حتى يَجْأرَ بالشّكوَى ! كمْ ذا يحتاجُ خريفٌ مَوْتورٌ تَذْروهُ الرّيحُ إلى أوراقٍ ذابِلةٍ تحتَ الصَّدْرِيَّةِ والتَّنُّورَةِ والكَعْبِ العالي ! بين غيابٍ شفَّافٍ وغيابٍ مَحْضٍ، يَبدو أنْ لابُدَّ لتَدْميرِ العالَمِ منّي فيك.

فاس، 1993.10.20

"كورال" الضفادع النيتشوية

هالّيلويا.

يا من يدعو البطشَ العقليَّ إلى تنويمِ الأرواحِ ! الخطّاؤونَ رُعاةً كانوا أم سائمةً مهتمّونَ الآنَ بمعراجِ سُلحفاةٍ، وسُقوطِ حصانٍ طَرواديٍّ. يا من دلَّ على ظلِّي بهروبي ! يا منْ ساوى عجزي باستسلامي للطّقسِ البارد صيفاً تُجرى تعديلاتٌ فيه على أنفِ البُستانيِّ الكارتيزيِّ ! ألاَ يا طيْرَ الصُّدفة ! إنّي ما ابتعتُ حياتي من أحدٍ بالسّعرِ البَخْسِ، وما بشعتُ غروري كسباً أو جَبْراً بمتاعِ الدّنيا.

هالّيلويا.

مَفعولُ البَابُونَجِ حيناً من صنعِ العشّابِ، وأحياناً من أخلاطٍ أربعةٍ أنبتناهُ نباتاً حسناً منها : جمرٌ ودخانٌ في الصّانعِ والمصنوعِ. لذا لا مَنْدوحَةَ عن شَعْرٍ كَثٍّ إن شِئنا إرسالَ اللّحيَةِ تعبيراً عن آلامِ الفَالَجِ،

أو فتّشنا لعهارتِنا عن تريرٍ قانونيٍّ يحميها منّا. لا مَندوحَةَ إن أعيتنا الحيلةُ عن وخْزِ الرأسِ المأفونِ بدَبُّوسِ الصين. استغنينا عن شقٍّ قناةً للنّهرِ الجاري بوِكالةِ توزيعِ الماءِ الصّالحِ للشُّرب.

هاللّيلويا.

أمْحُوا من لوحي المَحفوظِ غُبارَ الحِبرِ السرِّيِّ. وهُمْ كيْ يرتادوا مجهولي في ضوءِ قواءاتٍ هامسةٍ يحتاجونَ إلى جيلٍ أو جيلينِ، كما يحتاجونَ إلى عشّابٍ موهوبٍ يَشفيهمْ من ضيقي وخسارَتِهِمْ. لا يعني الرّمزُ سوى هجراتٍ في السرِّ: رحيلٌ عن حُنجُرَةٍ بُحَّتْ بالتَخديرِ إلى حُنجُرَةٍ أخرى مُستَوطنَةٍ رجسَ الشّيطانِ. فهلْ آوي بالشّعرِ إلى أنهارٍ ذاتِ قرارٍ؟ زَخّاتٌ مَعدوداتٌ ونُضوبٌ نِسبِيٌّ يكفيني شرَّهُمَا لاهُوتُ المعنى.

هاللّيلويا.

لو كانَ غلافٌ أوزونِيٌّ مَثْقوبٌ سقفاً لسماءٍ في طورِ التّبخيرِ، وكانتْ أرضي آنيَّةً من طينٍ لاسْتَخْدَمْتُ الإسْمَنْتَ المعْقودَ على فولاذٍ مبرومٍ قاعدةً لخيالٍ علميٍّ. هل تحتاجُ إعادةُ إعمارِ الأرضِ إلى "سِفْرِ التَّكْوينِ" وبنكِ الإنشاءات؟ وهل ما أوّلُهُ أنبوبٌ آخِرُهُ مِيزَابٌ؟ أمصارٌ إن أحياها طَلٌّ لا كُنْهَ لهُ، أخْصاها طوفانٌ أسطوريٌّ.

ويجيءُ خريفٌ من عُمرانٍ لم يُسْهِمْ إنسانٌ في رَصْفِ حجارتِهِ يعني فيهِ سُقوطُ الأوراقِ الصّفراءِ تَساقُطَ أوراقِ الرُّوزْنامَة.

هاللّيلويا.

جالَسْتُ الحدَّادَ فلمْ يُزعِجني إيقاعُ الطَّرْقِ على ألياف الفولاذ: نباحٌ سَنْسكريتيٌّ تأتي منهُ الأشكالُ الخرساءُ رُباعيَّةً، فيها النّارُ مُورَّدَةٌ، وشَخيرُ الكيرِ رَتيبٌ، ويدانِ: اليُمنى مِطرقةٌ، واليُسرى سِندانٌ. لو جَرّدنا التّرسانات الكُبرى من خَيْطٍ ومخيطٍ، أو سمّينا أطباقاً طائرةً عقلاً فعّالاً، والحدّادَ عميلاً للعقلِ الفعّالِ، لَواسَيْنا فيثاغوراسَ بأقمارٍ لو باتتْ عندي قُمتُ اللّيلَ على خِدمتها أرعاها.

هاللّيلويا.

ما صَفّقتُ كثيراً عند خِتامِ المشهدِ إلاّ لكراسي المَقْصوراتِ وأثْوابِ السَّهرة. لمّا عضّتْ "إيرينُ" بَنانَ القُفَّازِ البالي تَعبيراً عن نَدمٍ، أو تكفيراً عن ذنبٍ، جهّزتُ لها مرآةً بمساحيقَ ووجهٍ كيمائيٍّ وحواراتٍ دارَتْ بِلُغاتٍ شَتَّى. تلكَ مُناسبَةٌ للتّنويه بمَنْ أعفاها من شَغَبي أن تكاليفَ القتلِ الآنَ ارتفَعَتْ من حيثُ انخفضتْ أسعارُ الزَّرْنيخِ، فلا مَنجَى من آلةِ تَحميضٍ. من شَبَّ على شيءٍ شَابْ.

فاس، 1993.10.9

مأدبةُ أفلاطونَ الداخلية

(1) ـ خلفها وأمامهُ

سَحَبَ رقماً واحداً من ساعةِ الحائطِ والشّمسُ على مشارفِ الظّهيرة،

كأنهُ يجرِّدُ الحائطَ من وقاحةِ الوشمِ ومن إشارَةِ الأصابعِ.

(من رَحِمِ الأمِّ العلامةُ لأنّ باقةَ الأحجارِ فوقَ عُشّها باردةُ الظّلال)

أخرجَ من أمعائهِ مقولةً لمَّعها بالشَّمعِ والصَّمغِ، ولمّا فاحتِ الرّائحَةُ البَرْصَاء،

عرَّبها وعرَّضَ السّياقَ للتّبخيرِ والمصادَرة.

(من رَحِمِ الأمِّ عظامُ عُشبِها البازِغ. منهُ الجسدُ المرشوشُ بالكلام)

تَسلَّقَ "الأولُمْبَ" من قِمَّتِه لعلّهُ يعثُرُ عن وَعْلَيْنِ في الإلياذَة،
يُناطِحانِ صخْرَةً من أجلِ تَرْميمِ قرونٍ أربَعَة.
(لِرَحِمِ الأمِّ المُلَيِّنِ بزيتِ الصُّوجَا، بابٌ يقودُ العقلَ نحوَ عُنُقِ الزُّجاجة)

حَذَّرهُ الخَزَّافُ عندَ قَذْفِهِ النُّطْفَةَ في شِرْيانِهِ المكفوفِ إن تخلَّفَتْ عادتُهُ الشّهريّة،
وحذَّرَ الخزّافَ من أناملِ الطّينِ ومَجْدِ الحرفَة.
(لِرَحِمِ الأمِّ على شاهِدَةِ القَبرِ إشارَةٌ إلى ذُبولِ زَهرِ "الكينَا")

ألصَقَ "أوديبَ" على جبْهتِهِ تَتِمَّةً لغيرَةٍ كَبَتَهَا عندَ الرّضاعِ فاعلُ الكَبيرة،
فلمْ يَسِلْ دَمٌ من الثُّقْبِ الذي أحدَثَهُ اللّولبُ والمِسمار.
(بِرَحِمِ الأمِّ تُدَوَّنُ الوقائعُ، وفي المبيضِ رَمزٌ واحدٌ نَزَلَ عن رمادِهِ السرِّي)

أحبَّ عِطرَ امرأةٍ يَضُوعُ في الأرجاءِ من مُلوحَةِ الماءِ ومن عُذوبةِ التّراب،

فكانَ وقْعُ العطرِ أعْنَسَ منَ البئرِ التي يُقاسُ عُمقُها بطولِ الحبْل.
(من رَحِمِ الأمِّ إلى مَعْبَرِهِ المُظلِمِ يَعلو صَوتُهُمْ على صَريرِ الرِّيح)

(2) ـ أعلامُ المّدعُوين

مُتَّهَمٌ بجريرَةَ قَذْفٍ في حقِّ النّار.
"إسْخَرْيُوطِيٌّ" مفصولٌ عن رأسِه.
كَلْبِيٌّ في جُثَّتِهِ النّمل.
تمساحٌ بقياسِ الضَّغْط.
قَنّاصٌ في جُعبَتِهِ منْسوبُ ذكائه.
مَوْلى كغُبارِ المعنى بدلالَةَ أسماءِ الأضداد.
ضحْكٌ يومِيٌّ بينَ بُكاءينِ مُضاءَيْن.
كُمُّ قَميصِ "المّجذوب".

(3) ـ الحاضرون كأنّ على رؤوسهمُ الطَّير

رغْوَةٌ كَشَفَتْ سَرّها والتَحَتْ بقَتادٍ تألّقَ في ميّتٍ وتُرابٍ أخير.
دَغَلٌ يتمتَّعُ بالأرَقِ المُتخلِّفِ عن لَيْلَةٍ ضُبطَتْ بين أحضانِ جُمَّيْزَةٍ باليّة.
وَحَلٌ عندَ بابِ الزَّريبةِ لا يتستَّرُ عن لونِهِ الكُسْتَنائيِّ إلا إذا فاحتِ الرّائحة.

حـجـرٌ يابِسٌ بـهـوامِـشِـهِ، ورمـادٌ رشـيقٌ، وعُـشبٌ يُشـاهِدُ عـصْـرَ انقراضِه.

حَجَلٌ موْسِمِيٌ وهَمُّ الرّصاصةِ إن أخطأتْ أو أصابتْ.

(4) - كَيْنونةُ المكان

للقطارِ السّريعِ الذي يربطُ الشّرقَ بالغربِ مقْصورَةٌ لأداءِ شعائرِهِ الوثنيَّـةِ. يحرُسُها حاجبٌ، وتقومُ على خدمَةِ الرّاكبينَ بها نادلاتٌ على رأسِهِنَّ الوَصيفَةُ. قُلْ للوصيفَةِ إنْ رافقَتْكَ إلى غُرفَةٍ بِسريريْنِ: "إنَّ اللّواتي تَعَهَّدْنَني بالرّعايةِ، لمّا رأينَ خُدوشَ السّريرِ على جبهتي المُستغيثَةِ قَطَّعْنَ أيْدِيهُنَّ".

فاس، 1993.11.18

احتياطي العاج

احتياطي العاج

I

حاول أن يوهمني أن صخور العاج،
تسلقت عنق "غاليللو"، وأنه إذا أجهش بالبكاء،
تبللت غدده الصماء
بالدمعة الأخيرة،
ودسَّ نقعَ الحزن في كتاب،
وبثَّ في فهرسه ضحكته الأخيرة.

II

ولأن عود العاج حي في منابتهن وميت
في غابة الأسعار والأسهم،

قطع المسافة بين ذاكرتين في زمن يقارب دورةَ البرزخ،
حول اشتعال زجاجه النّسبي.
من شهوة يمضي إلى أخرى :
عين على "الخنساء" دامعة، وعين بالتشفي شيعتْ "صخرا" .

III

لما ركبنا في فم "بشر الحافي" طاقم أسنان،
شيدنا فوق بكاء عقلي ضِحْكاً نشّافا،
وأعدنا ترتيب عظام العاج البالي
تمييزاً للسن المعطوبة
من سن هاوية تبكي
أو تضحك بالصدفة.

IV

لأن العاج حيناً داخل السبحة،
وحينا خارج الأذكار،
تنوب الإصبع الوسطى عن الإبهام
لنقل الحبة السفلى إلى العليا،

ووضع الحبة العليا على السفلى،
وشحن الحلم بالأرقام.

V

منذ عام الفيل يا بدء التواريخ اكتشفنا
آفة النطق.
غسلنا
بغبار العاج نابا، ورجمنا
بؤرة الشمس بضرس العقل فرّت
لثة الأسنان من بين الثنايا

VI

لاندلاق الغريزة في ريقه المُتَوَغِّلِ في ريقها
يتبادل ثغران ملحمة الصمت بينهما :
أمطرت لؤلؤاً من محارته
وسقى نرجساً من ينابيعها
أسفر العاج عن وجهه
وبكى.

VII

ليس في حاجة إلى الضحك الآن. فقد كان كلما عسعس الليل يثير الغبار عن طاقم العاج بمنديله المشجَّر. هذا وعلى الهامش القصير دمار، وعلى هامش الدمار خيوط من نسيج الكبريت هشُّ الخلايا.

VIII

لحكمةٍ تنتشر الرغوة فوق العاج،
من أخمص التاج إلى الذروة في الخلخال :
رائحة فطساء،
يعصمها الزكام
من تعب التلويح بالعلامات.

IX

حتى ولو فصلت نهر العاج عن مصبه،
ثم قرأت طالع النهر على ضوء البروج الأربعة،
فإن للرمل حسابه، وللأشياء،
أنفاسها، وزخرفاً مثلث الأضلاع،
وبرزخاً أدعوه رأس الحربة.

X

سحابة العاج تخطت عالم الأفلاك،
رفعها "نبتون" أو خفضها "أورانوس"،
فهي في صعودها المكشوف،
في نزولها المحجوب،
تخلط ماء فرتها والدم،
بلبن الأب وشهد الأم.

XI

مهما يكن فالقطة السيامية،
توسدت عظامها، والعاج في عظامها.
وبعد لأي خمشت فراءها الإغريقي
بما يفيد أنها تحمل في طياته أفكارا.
فأي قط ماكر ترك في أحشائها تذكارا ؟

XII

عين من العاج وعينان من الزجاج :
واحدة تبصر واثنتان،

عماهما يزحف بالعكاز.
ومع ما في الجسد المفتَّت
من قدرة على ارتداء قامة التراب،
فإن فيه حجر الزوايا.

XIII

سيحبل العاج بها من دون أن تمسه أنثاه.
وهي إذ تخجل من رؤوسها المدببة،
وترفع القواعد
من بيتها المسكون بالوثنيات والحواشي الناعمة،
تنتشل الجينات
من رحم الصخرة. يا عوامل التعرية!

XIV

عندما يسقط المروض في الساح على سوطه المطعم بالعاج، تظل الوحوش تزأر حتى يبعث السوط في بلاغته الروح. لأي الجروح نختار سمّاً، ولأي الجروح نختار ترياقا يفي بالنذور؟ مجد أثيريٌّ صغير يجيء في أرذل العمر.

دكار (السينغال)، 1994.3.3

فوكوياما

I

لوناً لوناً وارى الأسطورة في نهـر الملح. الأرض انهـارت من أجل غراب دلَّ المقتول على قبر. ضاقت بالألفاظ الصغرى ورؤوس الأقلام وأورام السخرية والشيء الفيروسيّ وتفقيس الدم.

مغرورا في الثوب الضيق،

يخفي ما يعلن.

لم يقفز بالزانة إلا يوم السبت.

II

العناكب في شرفة البيت تقرأ طالعه ونسيج أصابعها يتدفق. لولا الملاحم ما انهزمت "داحس بالبسوس"، وطروادة بحصان، وعطلة

يوم براتب شهر، وسطر خفي بحبر عجوز.
من خلال القماط،
كلم الناس في المهد. بندول ساعته الحائطية،
بالتواطؤ دل على خفة المحتوى وعلى نزق الدوران.

III

جثته الطرية العود التي يحتفل التراب والدود بها، عالية بعضوها السِّرِّي نسبة الرخام والزكام. أنت يا من تخدش الغابة نعلاه الدقيقتان، من يشرف في الغابة بعدك على تربية الصقور؟
يحدث أن القاتل
منذ نعومة الصراخ الحي،
تقتله المتابرة،
يقتله الشيء الذي بين يديه.

IV

أزعجته بسؤالي المحموم عما يضمر الآتي، وكان لتوه من بيضة الإيجاد يخرج باحثاً لوجوده الصوري عن عدم يناسبه، حريصاً أن يمرغ ظله فوق الفراش الصوف. ميلاد عصي. تربة ذرية صفراء. من

سامٍ إلى حامٍ ومن حامٍ إلى سامٍ. تعود أنفه الأقنى على شم النتونة من فم مر مريض. أينعت أوراقه. نشرت ذوائبها البذيئة. ربما كان الفراش الصوف ما حمل الرقيم وسبعة من ساكني الكهفَ القصيّ على احتراف النوم منقولين من أعضائهم. عرض الفراش وطوله لا يجلبان لنائم نوماً ولا أرقاً، فرب قضاء يوم في ضيافة قامة أخرى ومأساة مجهزة، جدير باقتبال الموت في ثوب رقيق الحاشية.

فاس، 1994.9.27

أمنيزيا أولى

حضور :

نملة تسرح سوداء على وجهي. ذباب حولها يمتص جوعاً أبدياً. حضرت بعد انصرام المائة الأولى من الدهر، وباضت دون أن تعنى بما بعد حضوري.

لون :

ما انتبهنا لانسكاب اللون في الصورة إلا بعد أن رد علينا قمر الليل عمانا. فرصة تسنح للون لكي يرسب في قعر القوارير، وللماء الذي من حقه لون الإناء.

ظل :

راكضا من خلفه الصمت، وللصمت احتفال بخطى عشواء. أدنى درجات السهو أعلى درجات الظل. يا من يفصد الشريان حتى تطفيء الصئبانُ منه جوعها المر، تريث !

إيقاع :

كلما ساءلت حوذياً عن الإيقاع والبطء، أشاح الطرف عني، واعتلى أخفافه الأربع توا، مثل جاموس تحلى بصفات العيس في العصر الخرافي.

بعد :

شد ما تعبرني خيل المسافات على صهوة مهر، يقطع الفرسخ بالفرْسَخِ، والساعة بالساعة. مهما فاجأته نجمة الليل، ومهما أدرك الشأو تقلصت.

قرب :

كاد شخص جالس بالقرب مني يتخطاني، ولولا أن جرمي الساكن الشفاف جاراه، لقدمت التعازي، ولوزعت على تأويله الخاطيء جسما كان في السابق جسمي.

خيط :

لاعتقادي أن في الإبرة خيطا لم يزل ينتظر الدور، تشاغلت عن النول إلى أن فرت اللحمة من وجه سداها. أيها المكوك صادر عنت الإبرة والخيط ذهاباً وإياباً !

خالق :

هاكم الفخار بكرا، فأروني خطإي الأول ! حولي هيئتي الصغرى، وحولي مطر بلل ريشي، فخدوني ! من أساريري، وموتوا بغروري ! إن ما ينقصني يكلمه الماء.

مخلوق :

نيزك يهوي مع النجم. (على الأرض سلام، وعلى الناس المسرات) لأني خائف من عودة الريح إلى جوف المغارات، ومرتاع من الفتنة تأتي خطأً من يد مصنوع، ومن إتقان صانع.

رأس :

عاد تواً رأسه الحافي من السهرة مقطوعاً، "فقالوا : عطش يخترق الأنفاس مرٌّ يتولّى إمرة التحقيق في الحادث" . بينا فروة القاتل بالأجر

دليل سيء الحظ على قبض تراب.

الق :

ربما ألقى عصا التسيار يوما، وانتهى مثلي أمام الألق الخافت، مثلي عوسج أقدم عهدا من هشيم الحطب اليابس. مثلي محرق عند التماهي، نير عند التفكك.

معنى :

وإذن أصغي إلى من قسم الميراث بالعدل، لعلي أطرد المعنى من اللفظ. فلا أروع من جوع سيأتي به سيفا قابلا للمد والجزر، ويأتي به في الغمد خجولا.

فاس، 1994.6.13

أمنيزيا ثانية

سلام الإبرة وفوضى الحائك :

ويزيد في ألقي حضورك في القضيدة،

ريانة الأضواء والألوان والإيقاع. للأقصى القريب مسافة الأدنى البعيد.

حتى إِذا ضاقت ظلالك وانتجعت مدى ظلالي،
ألفيت أن الخالق المخلوق،
معنى،
وأني واقع من أخمص القدمين حتى الرأس في المعنى.

طنجة، 1994.6.24

جبهة النسيان العالية :

بيني وبينك أن سرّاً غامضاً يبني قواعده على أشلائنا : موت نؤجله ونملأ بكتابة الأرقام. تلك تميمة عذراء علقها على أصلابنا سهو التذكر. عامل الجسد المسجى بالكياسة أو فقم من عزلة "السيروم" والدم ! ضمني بجناحك الوبري ! شوقي طافح. من كان في أسر المحاقن لا يجير ولا يجار. لعلني في قطرة الدم حين تملأ فوهة الأنبوب، ادخل راضيا دَغَلَ العروق، واستقل بخفقة التيار في شريانك التاجيّ. فلتهدأ ! فإِنك إِذ تعيش بخفقتي، يستدفيء الآتي بوهج لغاتنا. نستأصل الفيروس من جيناته. محدودباً يرتد طرف المبضع الآليّ. صدقني !

فاس، 1994.8.20

فاكهة العقل ـ قناة "فالوب" :

لتذكرني بتوهجها، وأنا غائب عن مخيلتي، حاضر في شعائرها. عقدت حول بنصر يسراي خيطا من الصوف يخترق الخاتم الذهبي. وإذ وحَّدَ الخيط ما فرق الخاتمان، تشابه ما ـ كان حيضا بما هو طمث ـ علي بهذا الفضاء المعقم. فاكهة العقل تثمر حتى ولو شاد "فالوب" ذاكرة بقناتين فيها وعمّقها. قارئ البخت إذ يتطفل كالوسخ المتسرب ما بين ظفر وأنملة، سيمانع أن تتبرج لي وهي محض خلية.

فاس، 1994.11.11

كرسي "كيوميرث"

كرسي أبنوسي،
ألبسناه
رأسيا وعموديا،
زنارا من ألياف الدوم. ولما كمّمنا أفواه الأثفية بالأثفية،
بالجهل العلمي المنقول
عن مكتبة "الإسكندر"،
مهدنا لكيوميرث جلوسا عرفانيا فوق القرنين.

ما دام الكرسي الشيرازي،
منبوذا والحافر فوق الحافر،
فالشاعر

مضغة

في أسنان الماء.

حمى صفراء،

لفت حول عظام الكرسي،

حبلا توراتيا.

قال الكرسي :

"إما النار وإما "الإفشين" .

رد "الإشْبِينْ" :

"إما الفوضى الخرساء وإما الفوضى" .

يسكن في عظامه الكرسيّ.

لحاجة في نفسه يسكن في عظامه.

وصاحب "البستان"

قد أتعبته امرأة

يسكن في عظامِها الكرسيّ.

ضراوة الكرسي،
تذمرت من هيئة الراكب والمركوب،
ولم تثر من الغبار قدر ما تثيره
زعانف السمك إذ تخدش وجه البحر.
ذاك لأن قلة الزحام،
ووفرة المناديل،
تعوذانه من الإصابة
بعادة الزكام.

تنطبق الجدران
على كهوف نسقت أحجارها عوامل التعرية.
وبعد أن جففت الشمس نخاع عظمها
على لظى سعير صوت واحد،
تورَّم الكرسي.

تشاغل الأرقُ عن رعاية القمر،
لأنه مرابط بأحد الثغور.
رجلاه إن حركتا الأعشاب قيدَ أنملة

رخَّصتِ الغابة للكرسي أن يعرف قدر ذاته.

الكرسي أمام الباب،
والبواب،
برهان الشاهد في الغائب،
بينا كان الديجور المفتوح
معنيّاً بوفاة لم يتعبها التكرار.

ما يعرفه الكرسي
عن رواد المقهى والملهى
والقاعات الكبرى والحانات،
من أن "سدوم"
قدت من دبر قمصان شوارعها البيضاء،
لم يخطر للعرفان على بال.

لم يفقد الكرسي شيئاً من لياقته على مر العصور، فلا يزال يصانع الكهان والأحبار. كل الجالسين القرفصاء على أثافيه الثلاث، لهم وريد ضيق، ومشيمة خرساء. إبرام القعود الحرُّ ينقضه القيامُ

الرقُّ. رهنٌ بالعروش رتابة استعمال كرسي التراث. الغابة العذراء تفتح صدرها للحاطب الليلي. إن الجالسين على أثافيه الثلاث ضراطهم حي، وغلمتهم تلوح لدى ممارسة الطقوس. لعلة وصل كيوميرث حبال سرته بخيط الكهرباء. (أضاف عبئاً رابعاً) إياك أعني أيها التيار، فاهجرني كأشقى ما يكون الوصل واصعقني !

فاس، 1995.2.21

مسؤولية الحوذي

سائق العربة

غافل

عن صرير المسافة والعجلات.

منتشٍ

بمغازلة امرأةٍ أرنبٍ وسلحفاة.

كأسها مترع،

واشتعال الحبب

يتلألأ. كان الصخب

واضحا. ورضوض التعب،

طفحت بعجاب العجب

ربما بللت بالدموع
هامش الصفحات وأول ديباجة في البيان،
متعللة بازدحام السطور التي قرئت،
والتي انطمست،
والتي خلقت رجلا مجبرا من خيار امرأة.
جف ريق السؤال على شفتيها وشف :
سلطة العقل مشرعة في مقولاتها :
واحتمال التودد للكلمات
وارد. كلما وطئت قدماها الزبيبة،
ألمتها الحلاوة : نفس المراهم ناطقة صامتة.

حملت من حروق الدخان وبعث الرماد.
ومباشرة بعد أن رفض الناشرون الجنين،
أعلنت :
أن للزمن الغض بعض الجميل على الزمن الرث.
واختلت بالصلاة التي علقت بتلابيبها.

هي تفاحة

باعتبار، ورمانة باعتبار،

والذي عصر الفاكهة،

ذر حب الحصيد،

وارتدى القامة الفارهة.

عثرت في الأتون على جرة آبقة،

مسخت وجهها غالة الريح.

وبما أنها انتبذت بالأتون مكاناً قصيّاً،

فاحت الرائحة،

فاحت الرائحة.

قرب سور حديقتها،

نبتت سرورة يانعة.

فجأة نوهت بتراكم أعياد ميلادها المئتين،

غير أن الحديقة،

بعثرت شعرها وضفائرها خارج السور.

بدأت سيرها المتمرد من "ساحة الشهداء"، ولم تتوقف عن المشي إلا لبضع ثوان، لأن النوارس تزعجها. تتقافز أصواتها،

. تخدش الماء والأذن. أبعد من سدرة المنتهى شاطئ البحر. يابسة كالتراب، مبللة كالرذاذ، مشاغبة كالنقاهة، تشكو إِلي من الحزن والبث ما سَأؤَجِّلُ تدوينه بحياد إِلى حين يتحد السيف بالنطع. حشد من الأنبياء تظاهر في ساحة الشهداء. استدل المجوس على النار بالنار، والصائبون على الماء بالماء. قافلة بقيادتها غرقت في الوحل.

فاس، 1995.2.27

تفصيل الكلام في الحادث

بدء الصلاحية :

كما أني على صلة بأسماء الرواد، فإنني أيضا على صلة بأسمائي التي هي طاقم الأسنان في فمهم. تواتينا القريحة ما اختلفنا : نصفها متعلق بالطاقم المُصْفَرّ، أما نصفها الثاني فبالباقي من اللغة الكلام على بساط الخز في الأسنان. لي ولهم حُقُوق في "مؤسسة الرؤوس الزرق" أن نستثمر الأعضاء في الأعضاء. (كل الصيد في جوف الفرا) ولها علينا أن نجرد هذه الصفة البذيئة من محاسنها. الجنادب والطليعة من رواد المسرح ـ الصندوق لن يتبادلوا أسماءهم نقدا، ولن يتشبثوا بمؤخر المهر.

قبل :

وقبل العرض هبت فقمة شمطاء من نوم ثقيل. كسرت مرآتها وزجاجة الأصباغ وانتحبت، لأن دوائر الحلقات والأكر الصغيرة لم تقم بالدور. أشهد أنها عفت فلم تأبه لعثرة رجلها اليمنى وجوربها العتيق ونعلها الصوفي. منذ خروجها بكرا من التخسيس. منذ خروجها المشبوه من قاع المحيط نفخت في أحشائها روحا.

عجوز عاقر حملت سفاحا من علاقتها الأثيمة بالمحيط. استأجرت رحم اليمين لغيره، وله اكترت رحم اليسار. محارة ثرثارة لا تحسن الإصغاء للباطن.

عند :

وعند الوصلة الأولى من استعراضها الشرقيّ، شقت ثوبها حزنا على موت صغير ماته فرعون. جثته من الصندوق تزعم أنها غاظت عيون المشرفين على انتقال القبر من دوم إلى دفلى، لتبدأ زحفها بحثا عن اللائي رضين من الغنيمة بالإياب. من التراب إلى التراب. مكيدة أخرى تدبر لي بليل كلما سبقت يداي عبارتي.

غـلام نصف عـار واقف في البـهـو بين يدي خـبـيـر عـالم بالمصـريات، وهو يتلو مـا تـيـسر من كتـاب الجفـر : كـيـف تقلم الأظفار بالتحنيط، كيف يتم للموتى علاج الموت بالأعشاب ؟

بعد :

وبعـد العـرض كـانـت لا تـزال تـلاعـب الرواد بالأكـر الصـغـيـرة. تـارة تبني على أنقاضـهـم تاجا ومملكـة، وأخرى تردم الأنـقاض فوق قصائد الشعراء. مـا يبـقى على الشـعـراء ألا يـكلمـوه نـكـايـة فـيـهـا. ولما لـم تنم في مهـدها الخشبي إلا ليلة، قضـت بقـيـة عـمـرها في عـانـة الأم الرؤوم فلم تجد لفطامها القسري تبريرا.

جنين ملتح حـمل اسمـه بشجـاعـة، بالرغـم من أنف المشـاة على أديم الأرض. في عـامين مكتـمـلين تم لحمله وفـصـاله التـدبـيـر. قـد وسدته حجرا يعكر بالخيال الخصب أحلامه.

انتهاء مدة الصلاحية :

لما في هـذه الأجـداث من وشـم، فإن لإبرة الوشام حق كـتـابـة اللغـة الضـريـرة بالحـروف، وحق حـشـو النيلة الزرقـاء بالأفكار، كي تـقـع الطيـور بهـا على أشبـاههـا. ولأن بكـرا مـومـسـا، تحت الوسـادة يـترك

الزبناء شيئا من نتونتهم لها، يتأنسن الوشام نقدا، ثم يسمح للجنادب باشتهاء العطر. أخجل أن يوزعني الجنوب على الشمال، وأن أوزع ثروتي - فقري على اللغة الكلام.

فاس، 1995.3.5

عودة الغجريّة

A Trina Mercader
En recuerdo de tu (Tiempo a salvo).
Morir en Granada es vivir siempre.

هذه المرأة الغجرية من قبرها لم تقم لسواي. هوامش رجْلَيَّ مغبرة من زيارتها. ولأني أقيم بها أوديو ضحكت لبكائي. لوت عنقي. فتحت نفقا في السماء لتخفي في سلَّم الأرض جيناتها.

منذ عصر الجليد الأصم توسط لي عندها حاجب القصر، آخر من مر من "شارع الحسرات" : العصور التي ذهبت بقلادتها كالعصور التي ستجيء بخلخالها : دمعة رسبت وطفت، ودم ذابل بين بين.

. وأنا عائد من زيارتها حسبما تقتضيه التعاليم، أوقفني حاجب القصر : "يا طارق الليل كن عارياً وبريئاً، وإياك أن تتحرش بالغجر

النائمين !" لطير الحبارى ملامح جنية خرجت من عرين الأساطير، واستوطنت هامشاً ضيقاً من حياتك. لا تكثرت لمغامرة تتسلق عريك ! إني رأيت حنيناً يقايض خفين مستعملين برجلين حافيتين.

لذا ابتكر البلشون من اللحم نعلين، والحلزون من العظم رجلين، واستعملا في الذهاب ـ الإياب الرصيف المبلط بالشوك والقطران، فلم يخدشا قيد أنملة من بياض القميص الذي قد من دبرٍ : "جبل الثلج" .

هكذا غافلتني كما غافلت نجمة الفجر، فانفردت بالتعاليم. لم يسقط الثلج في هذه السنة المتوترة. القبر في التل يطمس آثار ساكنه المتوعك. زحافة الدوم والشيح مرصودة للتزلج يا جبل الثلج! تحت الوسادة تخفي المفاتيح عن أعين الطقس : منخفض في الجزيرة، مرتفع في الشواطئ. من سكن القبر ينزل عن كبريائه. مت ههنا، أو فعش خارج امرأة متمردة قاسمتك السرير ـ الرغيف هنالك! لا تلتمس غيرها من نساء الجزيرة ! "مروان" إذ يتسكع عند المصب، ويتلو الشعائر، لا يمنع الصخر من أن يشابهه الماء حتى ولو جف وجه الشبه.

أستجمُّ برغم الدروب النحيفة والخطوات الثقيلة والعربات. أمامي العظام وخلفي بارئها، ولذا سأقوم احتراما لضاحكة بالمذكر

باكية بالمؤنث، تحيي العظام وهي رميم، وتجلس حيث انتهت بجلوسي الصدارة : مأدبة متوارثة، بردها وهجيري. الأباريق مشرعة لا تزال. الثمالات في قعرها تتحرق شوقا إلى شفة وقد انفرجت في انتظار لمى أختها. قلت : "أوي إلى جبل قيل يعصمني من شظايا الكلام الزجاجي". بعثك تحت هدير الفوانيس. بعثك في ليلة تتكرر. بعثك طافية فوق برج الكنيسة والقصر. من وسعت كل شيء تضيق بها شبكية عين.

غرناطة، 1995.3.24

الانسحاب الهادئ من امرأة وأختها

برولوغ :

مغارة

وجبل

وحانة،

تقوم "إيرين" ومريم على خدمة من يقصدها في الليل والنهار.

لا شيء في الجبل والحانة والمغارة،

غير سرير حجري،

تورمت قفاه.

مغارة :

وقفت عند بابها الضيق. أسبقية الدخول من حق الذي ينتشل

البازلت من أمعاء ماموث تحجر على جدرانها وسقفها، وأسبقية الخروج للذي يحفظها من انجراف تربة الأزل والأبد. مهما اشتعلت في جسد الحجر، مهما عطلت حركة الطقس، ومهما خدشت بكارة المعدن، فالحوار جار ساخنا بين الأخاديد وبين خنفساء البحر. ماذا لو جبرت كسر هذا الهيكل العظمي كي يجد فيه الكركدن راحة من تعب السنين ؟ أسألك أن تمهدي لضحكي مفازة أجد منها لبكائي مخرجا، وبعد ذلك ابلعي مياهك الجوفية.

جبل :

بهذه القامة تبدو أيها الجبل ! في مراكز التخسيس مختصون في زراعة الأعضاء والألغام. خذ من جسدي خلية، ومن كنانة المحارب القديم وترا، ومن جنون الكبرياء لامة، ومن لغاتك سيوفا، واستعد للقاء حقبة لم ينضج العنب في كرومها بعد ! لأن المتسلق العجوز ورث الأحفاد حرفة التسلق، ففي مخبإه السري ميزان اعتدال الطقس. لا بكاؤه على نحافة ولا ضحكه من ورم، يحرضان آلة على اختراق رحم الجبل. ملاحون في محطة استراحة إذ يسألون النفق المظلم عن عمره ينتهكون حرمة الأحجار.

حانة :

أول ما تقدم الحانة للنابه والخامل من روادها أقداح جعة، وبضع صفحات رثة من كتب التاريخ إن تثاقل اللسان بعد القدح الرابع : صحن مزة مزخرف تعجمه حنجرة الهارب من رتابة الرحلة أو تعربه، يسمح للظامئ أن يضاعف السرعة. "مروان" وهو عازف مبتدئ يؤاخذ الصاحي بالمخمور، والباكي بالضاحك، والمصارع الساذج بالثور المشاكس. وبعد ندرة الورق، بعد هذيان لحظة تولد إثر لحظة تنهار، لا مانع من تدوين نوتة أهازيجك في قائمة الحساب.

"إيرين" :

لأنها تسممت من سمك البحر المحيط، جنحت للسلم في مياه حوض المتوسط. فمن مضيفة بحرية تستقبل الحيتان بالود إلى عارضة الأزياء. يا إيرين يا محشوة بالقش ! لا أملك نحوك سوى عود ثقاب واحد جر إلى قرصه نارا أحرقتني ضاحكا، وأدفأتني باكيا. وفور ان أجرد الصياد من سلاحه الأبيض، والسمكة البيضاء من أمومة لوثها سعالها الأبيض، أعمل على تشويه وجهي بصهيل الشمس، علَّ رمقي تسده شعرة من إصبع الذرة. هل أفتح باب الحوض أو أسدها ؟

مريم :

لأنها تحسب أن ملتقى البحرين في مفترق الطرق، قلت : "شجر الخابور أورق وما تخضّبت سيقانه بقدر آخر لا يزال في غلافه الجلدي. أي خطر أدفعه عن ربة تلدها أمتها، وعن عصابة من الحفاة والعراة عالة على المعاش ؟ يا مريم ! كيف تلبسين نخلة وجذعها يضحك من سعفها الباكي على حاملة التمر إلى "هجر" ؟ كيف تضعين الليل في هزيعه، وصورة "ديوجين" في هوايتي وصورتي الفجّة في احترافه، وحانة قوطية في جبل، وجبلا أشم في مغارة ؟

البيضاء، 1995.4.6

عطش الماء

يروي :

أن المسؤول على إيصال الماء إلى آخر صقع في الدنيا، ساوى بين الأنبوب وبني الميزاب. وفي يوم ما، لاحت في برّ البحر قروح سماها جزراً صالحة لاستجمام المرضى بالطاعون. وفي يوم ما ثانٍ لاحت فيها ديناصورات لا تؤذي أحدا ممن يلقي الملح على قارعة الجرح. وفي يوم ما آخر ندّت عنها صيحات سماها آبارا.

أني أغريت المرآة بطمس الصورة كي لا ينضب من ماء الوجه الحدس، ولا يغتاب التأويل حواسي. يا ماء ! اهتف لي في العاشر من نيسان، وإلا فالسماعة تضطر إلى إقفال الخط، وإقصائي عن بيتي طيلة شهر. أما حقي في سقي القطرة بالأخرى فمحال إن حابيت القيصر.

أني إن عالجت الأبواب السفلى حتى لانت، فلأن الماء الجاري في أيدي السلطة رهن في أيدي وزراء مـغـمـورين صـغـار، وزناة مشهورين كبار، ومصابين بداء الربو. أنا أولى منهم بزماني، ولذا لم أتحرج من تسريب الخز إلى أبواب لا يدفع شرا عنها الحجاب.

أن المسؤول وقد حابَى القيصر من أجلي، ذر الرغوة من ماء الوجه على الوجه الماء. حساب جار، وحساب موقوف، وسجلات، وجباة معنيون بإصلاح العدادات المعطوبة. لو أني ضاربت بما في جيبي من زيت لاستغنى النور عن الديجور : الأقزام عمالقة دون رؤوس.

تعليق أول :

سيال بالصدفة من غيم مظلم :

كبريت ورصاص،

ورماد الآزوت،

وجراد إسبرطي،

أقصى ما تلتقط العينان،

الفرسخ والدونم،

وسراب المنظور الرملي.

تعليق ثاني :

كف تستجدي،

وعلى مقربة منها

مرت سفن الإنقاذ فما نفخت روحا فيها الأمواج.

ما اهتمت بالغرقى.

ذاب الملح الآلي

في الزرقة والخضرة،

واعتاد اليم سماع صراخ الماء.

تعليق ثالث :

حرفيا لم يلق اللوح الخشبي

في روع الأحياء الجوانية،

إلا خوفا من طوق نجاة مثقوب.

ضمنيا قال :

"أحلى ما يفعله الهارب،

أن ينسى رجليه"

تعليق رابع :

من بين ركام الأمواج،

باضت في الكف المستجدي المنصور زرافة،

لم تأخذ من معط شيئا يعطيه ليأخذه عنوة :

قارات عذراء بدت عند التفقيس،

ناقوس قصديري

للتذكير بأن السرعة محدودة،

أقراط نحاس وموانئ مهجورة،

ومنارات،

دلت غواصين على واحة مرجان،

زجت بزوارق صيادين أسوجيين،

في دوامة بحر لم يخرج بعد من العدة.

تعليق أول على ما سيحدث :

القطرة إثر القطرة :

ما هُو تراب أرضي، تبر شمعي.

ما هو كلام معطوب، تين شوكي.

معنى أن يسأل ماء لا يأتي في ميعاده،

عن صحراء "الربع الخالي" ؟
عن أعشاش طينية ؟
عن حيّات وعقارب ؟
هذا التأثيث الأرضيّ ضروريّ
لقيام العين بماء فيها،
وقيام الوجه بماء منه.
وضروري أيضا للصخرة،
تشقَّق حتى تخرج من بين حوافرها الأنهار.

تعليق ثان على ما سيحدث :

الغيث الأول ماء،
والثاني صوف إسكتلندي،
والثالث جندب.
ها عرقي جف ولما أتسلم أتعابي
عن تقريظي للماء، وعن تعويضي بوعاء
هو على أهبة أن يفصح
عن شيء لم يفصح عنه سوى مرة :
الطوفان. الطوفان.

البيضاء، 1995.4.20

امرأة في يوبيلها الفضي

ليكن راعيا من تعهد بالسقي أوركيدة لونها حائل، وبراعمها انبثقت كالأورانيوم من ذرة، فأنا واحد من مآت الرعاة الذين رووا عن مآت الرعاة علومهم الباطنية. جف إهابي وقد وخط الشيب قشرته، وأنا أتعامل مع الجنادب واليرقات الصغيرة. لست أواصل عني كلاما يقال كلاما. هنا تتشفى الأنابيب من سائل يتأجج في جوفها، وهنالك تعثر في جثث الميتين على النظرية. يا متعة العين! إن أنت لم تأخذي من يقيني شكا، فإياك أن تعبري النهر من مائه المتحجر بل من صلاحية النهر للصيد أو للملاحة. كينونة في المصب القريب البعيد من النبع هي المسافة. هل من سبيل إلى امرأة فجرت في الأورانيوم ما لم يفجره فيثاغوراس المعلم في العدد الفرد؟ هل من سبيل إلى زوجها البلشفي؟ لها رحم وله رحم، وهما واحد في التجارب واثنان في المختبر.

داكار (السينيغال)، 1995.4.22

البعلبكي والبعلبكي

البعلبكي واقف، وأمامه تمثاله، والبعلبكية التي تبعته أنى حل لاجئة إلى ريش تساقط من عباءته. تعهرت الثياب وتحتها جسد بتول. كي تبادئه بقول الشعر، أسندت المهمة للذين تعقبوا آثارها.. احتفلت بعقد قرانها سرا عليه لأنه أبكى وأضحك. يخطئ التقدير من يوصي يتيما بالبكاء. خطيئة أخرى إذا الأنثى تعنس من برودتها الفراش البكر. من نسخ مكررة وجمر قد تخلف عن رماد سابق في بعلبك، استوقدت نارا فلما لم تضيء، عتبت على عينين واسعتين عند الفجر ضيفتين في عز الظهيرة. خمرة الإغريق شعت فيهما حتى لقالا : "إنما هي فتنة". رصا على حرف الفراش مقولة، وكتاب أخلاق، وملحمة، فما فهم الكتاب عن المقولة ما تقول الملحة.

داكار (السينيغال)، 1995.4.25

أعمدة الحكمة السبعة

أمّيّة :

من مخطوطات البحر الميت،
كلمت الأحجار بما تفهم،
عن خبرات ذاتية،
في هذا اللغز النيُولِيتيكِيٍّ العائم.

حلم :

يمضي بي الليل،
رقراقا نحو الكابوس المعشوشب.
شاهدت الصياد قعيد الكرسي المطوي،
وحليف الصنارة والغليون. مكائده لا تحصى، لكن الحوت العائم
أذكى منه.

إرهاص :

رغم السفر المغبر المنسيّ،

حاورت الأسماء،

قبل سقوط التأويل

في مهواة الحرف اليانع والشفرة،

والفكر التحليليّ.

حدس :

فتشت كثيرا،

في ركن الشاشة

عن وجهي.

قَادَتْنِي الرغبة والتشويش المقصود

نحو المعرفة الأخرى.

رعونة :

مغلوبا بحرارة رأسي قلت :

"سن القمح الصلب،

بَادٍ في تاج السنبلة البكر،

والحبات السبع،
ملفوفات في أقماط من صنعي" .

طمانينة :

بعد استئصال الأورام
من محصول التين لهذا العام،
أفعمت الأكياس
بأصابعه المبتورة
آليت على نفسي أن أنزع منها أظفاري

انتشاء :

تحت يدي طست فارغ.
في قعر الطست خطوط وعلامات،
يسري منها في الأشياء
إغماء يفضي
للعربدة ـ الغيبوبة.

كلّمت الأطلال بصوت الطين المرّ. اشتقت إلى من يروي عني.

تابعت طريقي نحو العمر الأبهى. عضوا عضوا صارحت الأحجار بما فيها من عيب وتراب رثٍّ. راجعت الآتين من "الأوكروبول" الحجة تلو الحجة. أنساني استغراقي في الحلم التنقيب عن العصر الأسطوريّ. استيقظت. استسلمت إلى خيل لم يركبها غيري. طهرت المعجم من إفرازات الألف ـ الباء. تعاميت عن الشخص المقحم في نفس الرأس المحشوّ به جسدي. طاردت الرغوة أنّى حلّتْ. هاجرت إلى حيث العري المطلق. أمّنت على نفسي بمبالغ باهظة رغم بلوغي سن اليأس. عنادا حرضت "الدوق" على "الدوقة"، حتى لا ترقص والصدر الناهد عار. هذا يزري "بالفالز" الأول في تاريخي، فبه أكملت مساري، وبه أسقي زنبقة الخامس من مايو.

القاهرة، 1995.5.5

زبناء أيوب المتعلم

مكاري :

سرح اللحية التي بان منها وجهه العامر القصير، ولما أثقل الماء ريشها المتداعي، نش عنها الذباب. أخرج منها نملة ثيبا بإذن سليمان.

عشار :

في الطريق السيار فاجأه الليل. رصاص يذوب كالشمع. حماه تعض العظام. أثقل منها حشرات مضيئة تتسلى بانتشال الحريق من هذيانه.

عميل :

بينما كان سائس الخيل يغري كلبه ـ الذئب بالخسارة والربح، تعرى الإسطبل إلا من الروث، ودار السباق في السر لما عجز الرمز عن لحاق الإشارة.

وسيط أول :

قال عن نفسه بأن نبيا في الهزيع الأخير داهمه الفجر، تجافت عن المضاجع جنباه. استعار الخفين من رجله اليمنى لإخفاء عاهة السير ليلا.

وسيط ثاني :

بعل "يطو" أقام مأدبة كبرى احتراما لسنه، ولوشم ورثته الأجيال عنه. عصاه أرجعت ناشزا إلى البيت طوعا، ووجوها إلى القناع القاسي.

وسيط ثالث :

إن يكن رأسه يبابا، وخداه فضاء معشوشبا وخصيبا، فلأن الأنثى بحلمتها الوسطى، وريش كث تناثر منها، أرغماه على حلاقة رأسه.

مراب أول :

مات عن واحد وتسعين عاما، وله فوق رأسه شمعدان وأخاديد غائرات، متى ما يضع الرأس في العمامة يعرف.

مراب ثاني :

رب خوف عليه أضعاف خوف منه. في كفتي موازينه القسط خلاء حينا، وحينا عماء. شأنه أن يطهر الليل بالماء وأن يسرج المصابيح بالدم.

مراب ثالث :

بسنان الإشفى يمهد مجرى لدخول الخيوط في الإبر العمياء. إسكافي يخيط رمادا برماد على جلود الأضاحي.

مراب رابع :

عزلوه عن المصابين بالعقل. دواء الجنون في الزيت والنار. بما أنه أناب عن اللوغوس أنثى تجرع السم سقراط.

مراب خامس :

لم يكن يزمع الرحيل "فدمنات" بأبوابها تضارع "حرمون" .

ولكنه تقرب للعجل فرارا من دائنيه القدامى.

وبعد، أليس يحق لأيوب أن يفقد الذاكرة ؟

بلى هو بالفعل قد فقد الذاكرة.

البيضاء، 1995.5.9

Mécenat

I

بباب المحطة نجمان يقتربان، وحولهما قمر يختفي ثم يظهر. قافلة تتقدم قافلة. شاعر بالنيابة عن شاعر يتبناه قارون. إذ يشتري لغة يتوسدها. الزاحفون على مرمر الباب مزدحمون بشباكها. للتذاكر رائحة الزنجبيل. الذكاء ترنح فوق الجبين فمزق أوصاله وأعاد الحروف إلى محنة السبك، كل الحروف. هلمّ إذن نكتب الشعر في ذيل لوحة "شاغال" تزجية للفراغ، وتهيئة لوصول القطار، وتبرئة للمسافة. ظهر التذاكر أصلح من وجهها للكتابة. إن المواريث واجهة، واقتسام المواريث خلفية. جيئة وذهابا نحبّر قولا ونرسم ظلا. فيا من يرتب من جيبه راتبا للذي يتسلقه، ربما تنتهي بين أيدي غبار يشاكس مكنسة، ربما تتقاعس حمالة اللوح واللون عن

أن ترد التحية. أما أنا فكأنيّ معطيك ما أنا سائله : حاجزي كرمي عن سؤال يدين اصطناعيتين.

II

يوم يكون الشعر،
حاشية وهامشا،
لا يجد الشراح في "معرة النعمان" ما يقال.

III

أمحو الذي أشاء،
وفجأة أُثبِّتْ
على جناحي بومة نعيبها،
وفوق سطح البحر
هديره الرتيب.

IV

يتبع الشعراء غوي يُسَمِّنُ بالهورمونات القرائح.

V

سوى رئتين تدرنتا
بالتراب وبالأوكسجين،
لم يراهن على "هرم بن سنان" أحد.

الأخطبوط يد في جيبه ويد في ورشة الرسم. أعمى لا يليق به غير احتمالين : تشبيه بتورية، وجبة بعصى بيضاء. ما احترقت سنابك الليل يوما قدر ما احترقت على أصابعه. ليل بفانوسه الواني ومقبرة بشيحها اليابس القاني وحارسها : (عمارة هربت عنها طوابقها) ثلاثة دمهم ماء وجودهم من اللسان، فيا لي إن وهبت لهم خطوي وبعتهم مغلولة عنقي.

البيضاء، 1995.5.15

أروقة "طوب قابي"

(ما احتاج إلى غيثي جار الله جلال الدين الرُّومي إلا واستسقى غيماتي)

I

النقرس في امعاء "سليمان القانوني"،
والعنة في رأس "سليم الثاني"، أوصى
لهما "بقراط" بتوحيد المعنى قبل
علاجهما بالحرف اللاتيني.

II

أسماء بالألف ـ اللام،
وأسماء عارية مكتظات اللحم المختلف

الألوان، وأسماء مألوفات عند الحاسوب،
وأسماء معفاة مما تحمل.

III

البوسفور الملقاة على عاتقه أعباء العصر
الهيلليني، أعددنا من أفخاذ ضفادع "طوروس"
حساءً للجسر العائم في مائه.

IV

الراوي إذ يحكي سيرة بحار ما حابى
حوتا إلا آذاه الحوت، يوالي تدوين الأحداث
على رق غزال فحل مكبوت في لغة أنثى.

V

السواح اعتادوا من فرط شهامتهم أن ينسوا
إغداق الأمداح على زراع مسؤولين مباشرة
عن تطريز الكرز التركي بدود البلقان.

VI

الديك الأنثى باسم دجاجته، قاضى ديكا
مجهول الحال بدعوى أن صياحا مبحوحا لا يكفي في
إيقاظ الفجر الكاذب من نومه.

VII

الشقر الأنطاليّون أعدوا للقالقهم في فصل
شتاء مزعوم هجرات صغرى في كبرى، لا
يعفي منها من يعزو موت "زرادشت" إلى "نيتشه".

أنقرة (تركيا)، 1995.7.20

حساب مبيعات آخر الليل

لي على المطار ترصيص كراسيه برسم قيمة مضافة. ولي على الكناس ما جمع من وسخ رجلي معا. ولي على وثيقة الدين الشروح المستفيضة. ولي على حراسة الحدود العنكبوتية إنقاذ "رهين المحبسين" من عمى ولو بغض الطرف عن بصره. ولي على الربان سحب فرسخ من طيران سابق مزيف. ولي عليك أنت يا مضيفة الجو عهود، أن تزوري غرفة الربان في السفر والحضر كي يسقط عنك الدين، أن تقتنعي بكي قمصانه بالنشادر المصري، أن توضحي السبب في إجلاء أكبر الخطوط الخارجية إلى اسطمبول، أن يعقد مجلس لتأديب أفندي تجرأ على الأسقف، أن يقدم المسؤول عن مسك الدفاتر إلى عدالة تبصم بالإصبع، أن تقربي الكردي من غباره المشلول ما زلت به القدم، ما انزلق نحو جبل ويده على الزناد، أنْ تطالبي برأس "مصطفى" رأس "صلاح

الدين" . من قـتلني وشق أخـدودا من الدم لنجم تائه به اهتـدى الكُرديُّ للجبل لا يسعه سوى مواراة عظامي وفق ما علمه الغراب : عشرون من السواح مرّوا. تركوا أغْلِفَةً صماء فوق حافة الكرسي، فيها قطران مائع غرق فيه مصطفى قبل صلاح الدين.

عليك أن تجردي الأرقام من حسابك الجاري (على ألسنة السوء) ببنك القرض والرهون. باب المقصف الليلي في رتاجها الشمع وقشر الموز، من دخلها خرج منها حاكما يسكر بالجفان عاما، ثم لا يلبث أن يغزو أو يحج في الذي يليه. ضابط مرافق (أثقل ما فيه النياشين) لظل امرأة وزيرة حسناء. لا تعتذري عنه وعنها، إنما تدخلي لصالح الكوخ الذي شيده "نيسين" بالآجر والقرميد.

اسطمبول (تركيا)، 1995.7.22

على باب الشيخ "نوبل"

I

لأتخيل أن شخصا زارني. ولأتخيل أن في رعافه الحي بثور سوسة. ولأتخيل أنني العلة والمعلول، يخصفان من ورقة الذات على الذات. فأي صدفة رمت بداحس إلى الغبراء ؟ في حظيرة على يمين قلعة صفراء شيخ طاعن في السن، ما إن يمسح الغضون عن جبينه المعروق حتى تتقعر الملامح. لأي غاية ينسحب الإسفلت من وقاحة الحجر ؟ إني مدرك فداحة الجرم، فهات الأبجدية ولوح بالعلامة الثقيلة ! فإن داحسا يختزل العقال، والغبراء من تحت الرماد رأسها يحرض الريح على إتلاف ما نقشه الرمل على مهماز فارس، وما تركه الفرس من رغائه مدى قرون أربعة.

II

لآخر مرة يتفقد الشيخ المسن حزامه الجلدي : ذاكرة مقوسة كبزر اليانسون، وصرة جوفاء كالفاسوخ. إن ودائع النار التي سلفت، تفك رموزها نار ستأتي. أيها الشيخ الخفي ! لغير داوود المعلم لم تلن زبر الحديد، وإن تكن أدلت ببعض المعطيات عن انتشال المعدن الموبوء من جهل التراب بنفسه. حجر يصفق بين كفي منجنيق يرجم الخودات باللامات، والألغام بالألغام. أبكار القنابل ثيبات بالتداول والصدى. هذا ويوم أدرب الصئبان في صحراء نيفادا على استخراج حب الرمل من عنت الحصاة، لسوف تكتب لي الذخيرة حية موتا على قدري، وميتة على طرفي نقيض من "رصاصة رحمة" بأصابع الديناميت.

III

عادة الشيخ أن يتأخر عن موعد ضربته وكيلة أعماله للفلاسفة المولعين بضرب المقولة في أختها لاختبار فراستهم. لم يجيء بعد. نكل بالذهن أن الجلوس على حجر قاتلون بأجر. أشق من الفرز أسئلة الفرز : هل بلقنتك الحروب بما حملت من حصى وغبار، وما كسرت من محاريث ؟ كيف تشنج فعل الكتابة في يومياتك ؟ يا خادم الكلمات لأنك فتقت برعمها عن رضى بتفاهة ما سيكون،

ورفض لما كـان. أرجـوك أن تقـبل الدرع هذا، فـفي دورة سلفت بالحروف العريضة صورتك المتوفاة كانت على قاب قوسين من هيبة الجائزة.

IV

عثر الشيخ على برميل بارود عتيق بين بحر الروم والقلزم. كان الشـيخ يعنى بسـمـاد لا يضـاهي بعـر الآرام في الحـجم ولا روث السعالى. ولأني عن يد صاغرة أعطي الإتاوات لصيادي الأعالي، فسخت أعمدة الضوء عرى أسلاكها الخرساء خوفا من تيار .يصعق الآمر بالصرف ولما يمهر الصك بحرف وأداة. مر بحر كان يدلي للقراصين بما في سمك القرش من اليود، وما في هيكل الشرغوب من شوك، ويقضي عمرا أطول في حشو محار باللآلي، وأتى بعده بحر يغزل المرجان في طرفة عين. وبعيدا في البراري وعد الشيخ بوزن الأرض ياقوتاً لمن يأتي برأسي مثقلا بالجائزة.

المنتظر الأول :

شك "مهيار" فيه،
وطيور مهاجرة تتسكع عبر المقولات والأبجديات.
لا يكاد يحط على شاطئ،

دون أن يتأفف من عثرات الكلام،
هاربا كالعظاية من حظه المزدوج :
صورة الشيء والشيء،
في غياب الإطار،
مطلق تحت ريش مظلته جالس ينتظر.

المنتظر الثاني :

جدجد مستقيم الذراعين،
لمَّ أطراف سبع صنائع :
ظهر واحدة في قفا أختها.
وعدا هذه أنه شارح محتف بالتعلات،
مرتد قامة الريح،
مختل بالفوانيس في مسرح الجيب،
وعلى سلة الجوع في يده متسوِّلة تنتظر.

المنتظر الثالث :

كلف بالحروف التي ثكلت صوتها،
والتي صدئت،
والتي طفرت من دلالتها.

وبما أن بابل تنشر أمْعَاءَها في الملاحم،
كي تجفف "دارة مي" بمّي، وحاتم طي بزامر حي،
أخذت شمس غشت على حاملات القرابين،
أنهن تزودن بالمن من تينة
تحت أغصانها بعل بابل منتظراً ينتظر.

المنتظر الرابع :

كل شيء ولا شيء،
في رماد المفاهيم.
حيثما ابتدأ الطيران سقط
بجوانح لاهوته،
وزعانف جوهره الفرد.
غير أن العجين الذي فيه من فلك العقل،
وضع الجثة المتوفاة في نعشها،
فاتكت فوق شاهدة القبر عارية تنتظر.

البيضاء، 1995.7.31

إلى أحمد

I

بينما كان مستسلما للمخدر في ساعة متأخرة

من نهار وليل، تفسخ غصن وقد أثقلته الفواكه والريح

يَا أمَّهُ الشجرة !

له هذا الصخب.

له عنف انفعالي وجمر الغضب.

II

هي كاس تمتع منها بشم عرار، وتمتلئ الكأس

حتى الجمام لغير الظمإ.

نكتة يتداولها الشعر : تلك العشية ما بعدها من عرار.

وشيئا فشيئا تخلص من قالب الطين حينا،
وحينا تفادى مسوح الحمإ.

III

حبذا لو تأخر موتك نصف دقيقة.

كنت آتي إليك بأسئلة قصفت عمرك الغضّ من صلب أجوبة خذلتني. هنا لست أخلع نعليّ عند الدخول إلى القبر إن أنت لمعت نظارتيك لكي لا تراني، في الصفحات القليلة مما تركت حرارة رأس، كأن لزائرة في الظلام عليك ولاء، لذلك عاشرتها من نخاع العظام إلى ذروة النفس المتأخر في رئتيك. احترق كاحتراقي أناّ وسواء أأخطأك السبق أم ضاع فيه الرهان، فإن حراسة ما أنت فيه وإهمال ما هو فيك انكسار. تُحزُّ الرؤوس ولما يحن بعد حين القطاف.

IV

بي حنين إلى أن أقارعك الكأس تحت التراب، لعلي بلقياك أملأ عينين لا تقعان هنا وهناك على ما سوى القشّ تستكثر النار فيه شرارة.

٧

ليس حزني عليك

حيرة تتراكم، بل ألما غامضا. يتجاهل ميلاده مولع بالْتِقَاط الحقيقة من حبب الكأس. أذكر أني ولدت وأني غفرت لنفسي جريرة أني ولدت، وأني تورطت في جسد يتشظى بفعل التقادم. تلك المطاردة العلنية تكمل دورتها السنَوية عند الخريف. ومن حطب يابس تتغذى القبور المحيطة بالقبر. جار جديد يشاغب حتى ولو أخرس النعش حمرة خدية والخجل المتبتل والبحة المتبقاة في صوته. سوف ينبت فوق القبور المحيطة بالقبر غصن "جيرانيوم" من أجل أن تتفرغ للموت أسئلة قصفته وأجوبة خذلتني.

البيضاء، 1995.10.21

احتفاء الغجريّ بالأرق الآتي

I

رابط تحت أقدامه جبل "البائسين" يغذُّ الخطى الرائحات. غبار النعال يؤرخ ميلاده الغجري بيوم وفاة وعول الجبل.

هو ذا يمسح الأحذية.

هو ذا يقرع النخب والجسد المتشبث بالبذلة الخلقة،

يتلاعب بالأبجدية والصورة القلقة.

II

هو ذا يتسلق مقطورة عجزت عن مجاراتها الريح.

صورة متعددة لأرسطو المعلم منحوتة في دماغ تلاميذه الأوفياء: عقول سماوية سقطت كسقوط الحكومات في فلك تتبادل فيه المفاتيح.

III

وهو إذ يمسح الأحذية،

تتجاذب أطرافه لغة تتنفس من رئتيه. بنصف الحقيقة جاء الكتاب المقدس. تغلق باب المدينة من حيث تفتح باب الهوامش. هل تستضيف غروري لبضع دقائق ؟ أسأله. يتعمد إرجاع رجلي إلى السمت إن زل صندوقه الخشبي. الكراسي العتيقة لا تتأفف من حانة تتجشأ ما شرب الغجري على نخب أحذية تترنح من شدة السكر. سبابتي تحت أسنانه، كيف أومئ لي ؟

IV

ولأن الملابس جاهزة قلت : أختار منها مرقعة وأداهم باب الهوامش في صحبة الغجري. حذائي ألمع ما فيه مشيته. ولأول ما اشتعلت جذوة النار طمأنني الغجري على نفسه. كيف يعثر هذا الحفيد على نطفة كتمت سر من قرع الرحم المتهجد، أول من فصد الدم، أول من وزع الصدقات على حامليها. بقطعة نقد سأمسح عني الغبار الذي خلفته العناكب. قطعة نقد تعبد لي طرقا لم تجيء بعد مني ولا جاء منها دليل يؤجر رجلا لأخرى. سلام وسيف على ساكني الأرض.

غرناطة، 1995.10.26

خدام الأمبراطورية

(1)

متواليات الخاقان

برولوغ :

يتهم الطوب الرملي النار الرطبة والفرن الذري بتقصير في إيصال النكهة للأفلاك، ووضع الإبرة في الخيط، وترميم شروخ الأرض.

من يدري إن كان الإكليروس بنى في قصر الجوزاء مداراً ؟ كالكمأة ملفوفا بالريش، وفي قامته أعشاش حمام بري وخطاطيف من الشمع وصومعة وقناديل ورادار باللؤلؤ منحوت.

المتوالية الأولى :

ميزان الرمل زجاجي،

مسؤول عن تهريب الرغوة للبحر، وعن ربط أرومته بالآوقيانوس.
حبات مالحة. شيء ما بين العمر الأسفل والعمر الأعلى،
وحصار مضروب حول الوقت الباقي في جيد القارورة.
ما لم تفعله الشمس البيضاء يقوم به عنها صناع صفر مجبولون
على تزجيج حواجبهم بالقيشاني.

المتوالية الثانية :

ولكي ينساب الأفق الأصغر دفاقا بين أصابع رمل بني،
تحتاط الأبراج المبنية بالطوب
من جمر يساقط من أمعاء مداخنها،
من خمر وغلالات سوداء وأردية ونعال ـ أخفاف وعقال في رأس
الأسطوانة.
والعيب الأوحد أن الله اختار الفقر لها، وله اختارت
برهان دليل الصانع. ما المانع،
من تجوال امرأة في الشارع.

المتوالية الثالثة :

هاو حينا، محترف أحيانا، هذا النفط النازف

من مصفاةَ محروسة،
يخفي التجعيدة بعد الأخرى عن عين الضوء. على
مقربة من ميلاد عصور موتورات يقضي عمره بين
البث التلفازي وأنفاس النار جلية.
آه ! كم يحتاج الجمر الثاوي في قعر الآبار الجوفية،
من مسخ حتى يعتاد الدلو استعمال الآلة.
أي الطاقة ضوضاء الصوت القادم ؟

المتوالية الرابعة :

مرّ الملاحون الصفر على هذا الفجّ العائم.
سودا عادوا. فيهم من بيض البطريق عقال
الرأس، وفيهم كالنورس والبط الهاوي من يستدفي بقشور الماء.
وبما أن الإسفلت الأزرق مضروب حول صناديق التنمية،
يعزى بؤس العقل إلى شح القلب،
وتعزى قدرة قرص الشمس إلى عجز الكوكب
عن إيصال الريح إلى الأجواء العليا، وإلى
آلات التّعليب الجوزائية.

المتوالية الخامسة :

وكما أن الأسلاف اختلقوا للرأس الأشيب شكلا تكعيبيا،
فالأحفاد الإثنولوجيون امتازوا بجماجم
إهليلجية.
أي الجيلين الأصل، وأي الجيلين الفرع ؟
تقاس عظام الأسلاف بما فيها من سَمْكٍ،
وثقوب غائرة، وهواجس تسكنها.
وتقاس عظام الأحفاد بما تنقاس به
أنياب تماسيح الغابات الإفريقية.
أي الجيلين الإطفائي، وأي الجيلين النار ؟

المتوالية السادسة :

يتزيى التيار العالي في الليل بأقراط في الأذنين،
وأقراط في العينين، وأقراط
في الجبهة والياشماق.
ونزلا عند الرغبة يلغي التيار السرعة والبطء،
فلا يكتظ الشريان ولو آوى سيلا.
وسوى هذا لا يوجد كهف يرعى للريح الحرمة إلا بضع مغارات

نائية، لا أسماء لها، ولها عنوان واحد.
آه لو أحصى هذا التيار العالي
ما في هيكله العظمي من الديدان !

. ***المتوالية السابعة :***

يأتي المشائي إلى ميعاد مضروب للكلبي. وفي "الميريديان"
يقول البند السابع من قانون الفندق : "إن العمال
المطرودين إذا ولدوا في برج الحوت، تقاضوا
تعويضات زائدة من "يونس" باسم السوق الأهلي
وتجار الخردة.
برهان الظل الأسود متروك لعباءات الشمس،
وللقهوة "بالهيل"، وللأقداح الصينيات المخروطيات.
أنى سار الليل امتدت أوردة النيون.
ورغم قضاء اللَّيْل الليلة عند الباب المحروسة بالأضواء،
فقد أدى أجرة نوم نامته الغرفة في الفندق.

الكويت، 1995.10.3

خدام الأمبراطورية

(2)

مكرر الرجلين

برولوغ :

للرجل الإشبيليّ الهارب أن يفك بالأسنان

ما عقدت اليدان،

فليس يصمد أمام الرجل الأغماتي،

من يحسب الخطأ في الضريح والصواب في إعلان

حالة الطوارئ على "أكدال" .

عليك يا مدينتي الحمراء،

بالسبعة الرجال،

إلاَّ إذا تنابزوا بالعملتين : رجل برجلين آليين،

يحتملان الصخرة الصماء فوق كاهلين باليين.

الرجل الأول :

عيناه تطرفان

مثل جناح بومة تحرك الشهوة ريش إبطها

الناعم. هذا الهذيان

لا يمنع الذاكرة البلقاء من طوافها العابر حول البرج،

أو يمنعها من التداول، ومن زيارة الضريح.

لا شيء باق بيديك غير كف وأصابع وأنهار دم،

وغير ألوان الفصول.

يا غازلات الصوف

للناس ما "يملكن قطميرا ولا نقيرا"

ممتنع سهل بكاء رجل كرجل،

ومبهم تشنج المغزل في أيديكن!

الرجل الثاني :

عيناه ما ذرفتا بأثر رجعي

خوفا وأمنا. هذه نخيلة يتيمة بملتقى البحرين،

تخطب ود المطر اليانع في تفاؤل النقطة بالخط،

لأن المطر العجوز لا يكرر القطرة ما لم تتبدد أختها.

وحيثما تشابه القرميد بالآجرّ، فالأحدب من بينهما
مقعر الصورة والخزف. من ذرائع الطير
الذي راهن بالجناح والريش على التحليق أن
امرأةً بكت ضريحاً بسرير واحد بكاءها
المريرا.
بباب "أغمات" بكته جثّة بصيرة وجسداً ضريرا.

مراكش، 1995.11.6

خدام الأمبراطورية

(3)

اللعب الجماعي

برولوغ :

آفة النهر الذي يعصم مجراه من الريح .

أنه أوثق من حبل وأوهى من حصار الحس للحدس. عجيب

حامل الأختام في الوقت المناسب،

شفه أن التعب

مهلة تضربُ للغرفة حتى تتماهى في الضيوف الأربعة،

نزلت مائدة السلوى عليهم. كيف لا ترفع عن مائدة المن

الغلالة ؟

وأخيرا، عادت الأصوات بالغرفة نحو الخرس الأعلى.

اشرأبت عنق الليل احتفاء بالضيوف الأربعة :

عندما تقترب الأولى من الصحو
تكون الثانية،
قطرة يبزغ من معطفها العاري شخير الثالثة،
ويكون الوسط المرفوع كانونا. طقوس
الحفل تمضي بالثلاث المستحمات إلى نهر قصي.
حامل الأختام في الوقت المناسب،
جاء بالريش وبالسفر الرباعي اللغات.

الأولى :

عارية تَنْتَشِلُ الجسد من حياده،
وفي انتظار مولد الرغبة من شرنقة رعناء،
أدمجت الإصبع ملء ظفره في الخاتم،
كأنما هي التفاحة وهو آدم.

الثانية :

دخلت اللعبة من وسطها المرفوع،
وفسحت في شاشة الجسد موضعين،
لأن صوت الجوع

لم يحتمل شبق إصبعين
محتميين بفصوص الخاتم.

الثالثة :

توقعت أن ارتخاء العظم،
والجذع والأطراف
علامة على تشابك خيوط اللعبة،
صاعدة في سلم الحكمة سبع درجات،
والإصبع الثالث يخدش حياء الخاتم.

الرابع :

أتى به ولعه بجمع أصناف التحف،
وللأسف
تمرد الزغب والريش وما انطفأت الحناء
إلا لأن إصبع الإيروس واللوغوس
ملء الخاتم.

فرانكفورت، 1996.1.2

خدام الأمبراطورية

(4)

الأسلحة الفاسدة

بورلوغ :

رعتنا الدولة العظمى، وكنا بعد حبرا في حليب الأم. حالات التلبس والتسكع في الوثائق علمت شوك القنافذ متعة التركيب والتفكيك. علمت الطريق السير ليلا في مصاحبة الطريق إلى المنافي. (تائهون ومبعدون) الصفقة الكبرى لها، ولنا نصيب البائع الجوال : رجل لا تليق بها محاكاة الحذاء. السابقون حكاية واللاحقون غطاؤها. (مستوردون ملوثون) لكل راو للحكاية رأسه النووية الصلعاء. في حوض الصناعة ورشة ومفاعل لتدارك الهفوات. (جوع عاقل ومجاعة حمقاء) في حوض الصناعة كاسحات الثلج والألغام.

الخاقان وما جرى له مع الناقة :

إن كان للرخام أن يخبر عما شاهدت عيناه في الخلوة بين مالك الناقة والناقة، فليتهم المؤرخ الرسمي باستعماله الأصابع الخمسة في الكتابة.

ذلك أن شبح الرتابة،

يزور مخدع الحريم مرة في العام كي يعالج الخاقان

من صلفه الموروث،

يعلم الأجنحة السبعة أن تطير بالناقة من واجهة الجذب إلى واجهة الخفة والثقل. لا ينتفع الخاقان من قدرته على اجترار عجزه وعجزها عن احتمال الجسد الحالم بالنهار.

لتكن الثقة أرحب بها، حتى ولو تبدد الحس الذي فيه على توافه الأشياء.

ياجوج وما جرى له مع البومة :

وضعها في قفص من ذهب، وكاد أن يدور عكس دوران الملوين. آخر الدرج في منطقة الحرج ترجئ إلى القرن السريريّ وصول صورة البومة للقمر. كلت المباضع وما محت من الإهاب وشما فوقه تشمع القميص والريش الصناعي، وتحت إبطه تحالف الصمغ مع

النيلة حتى انكسرت في القشرة النواة.

كل الذي تعلمه البومة عنه أنه وضع نصف صوته في صوتها، وأودع النعيب كله لدى الاطلال تندب به خرابها الجميل.

ماجوج وما جرى له مع الظبية :

ألف في نهاية العالم أن يبعث من مرقده بحضن ظبية نجت من التردد على وقاحة المرآة لا تطري من العينين إلا الألق السطحي. لم تألف سوى كناسها الرملي. في جرابها المرود والمكحلة الجلدية.

الكائن المصنوع هو. تحت إبط عينه اليسرى رموش يتساوى قدر ما فيها من الصلف والعنف بما فيها من الشراهة.

الكائن الفطري هي. تحت إبط عينها اليمنى رموش تستقي دجلة والفرات من دموعها الثرة. يا أيتها الظبية ! إن أرقت ما بقي من ثمالة النار على سارقها الإغريقي، برئت من رطوبة السعال.

هاروت وما جرى له مع العنقاء :

من كثرة الإسراف في التبريد والتهوية،

كان على الخرج وما فيه من الزجاج والآلات والألبسة الشتوية،

أن يقنع الساحر باتخاذه العجل، وأن يقلع ضرس العقل قبل زمن

الرشد. الرماد ناطق بغير ما تقوله العنقاء:

"أنا هنا الساحر والشاعر والربابة،

أنا هنا من راودته بابل عن نفسه وهو في الغار محاصر بزهر القرع. من عدل من لهجتها بهذيانه، ومن أوقف فيها الملك عند حده، ومن تآمر على الريح مع السفن والأشرعة البيضاء".

وجمت العنقاء

أمام هاروت وصورة رماد عاقر قد يتكرر وقد يذوب.

ماروت وما جرى له مع الخنفساء:

وهو في طوافه الليلي،

اعترضت سبيله المظلم خنفساء،

تدب فوق الماء،

عريانه تنتن في العزلة والصمت، تدرب غراء فمها على اقتناص اللذة المحرمة.

توحدا، فليس في الجوزاء غير قمر يعمل بالغاز الطبيعي ليدفئ بناته الصغيرات بحظ ذكرين:

بنات آوى وبنات وردان،

بنات نعش وبنات عرس.

وكان من توارد الخواطر

أن غررت بالطائف الليلي خنفساؤه السوداء حتى ما رآى في ملمس العفة غير عانة.

طالوت وما جرى له مع الجرادة :

كان من المفروض أن يرحل عند الفجر، غير أنه قدم رجلا ويدا قبل حلول الوقت. جف النهر في طريقه، وارتعدت فرائص الجنود. حتى السنبلات الخضر ما اغترفن منه غرفة بيده ويدهن. سادنات النهر يشتغلن تحت إمرة الجنود والجنود تحت إمرة الجرادة.

ومع ذلك تولتْ يده ويدها ويدهم ويدهن الماء والرمل

الأشوريين بالتنقيح.

تبللت زعانف الجرادة،

ببعض ما يفرزه الطنين والأسلحة الصدئة المعدن والمبيدات،

وفر من فرّ من الجنود،

كما تفر السنبلات الخضر من فزاعة الحقل ومن شماتة الطيور

جالوت وما جرى له مع النملة :

قالت له النملة بعد أن قضت وطرها من جرة العسل والعزلة في غرفته المطفأة الأنوار : "هل تعبر لي الرؤيا التي رأيت في المنام ؟ أني نملتان حلتا في نملة مقسومة قسمين".

لم يأخذ الحكمة من فم المجانين، لأن اللغة الغريبة الأطوار في لعابها من الفقاعات القشيبة، ومن توالد الموجات ما لا يقدر الصابون والشمع على أن يأتيا بمثله ولو تخزفا فشَفَّتْ بهما الإشارة ـ العبارة.

حاكمهما من موقعه،
فاستلم الجثة من مستودع الأموات
لدفنها تحت شعار واحد،
ملطخ باسمين.

فاس، 1996.3.25

سيرة واحة ثمانية الأضلاع

برولوغ :

عن هذه المغاور العذراء قلت مرة للبرتغالي المغامر : "اتخذْ لك من البحر قناة ومن النخيل ترسا ! مدفع نحاسي معطل، جاموسة على يمينه وعنقاء على يساره. وتسعف الواحة باللؤلؤ جرحها الذي نكأه الغواص. بين جرأة وحذر يعد أنفاسه وهو يتصفح كتاب الريح" .

وبدلا من بذله الغوص وأعين الشباك الضيقات استنجد الخليج بي وبعروق القصب البري. . زم أنفه المغلق. زم شفتيه. نقح النخيل والبحر من الطفيليات. النفس المائي من سباته العميق كان الحلم. لو محارة تجرأت ففتحت خزائن الله، لسارعت إلى تحلية البحر بملح الرمل. لو محارة في صدقها الظاهر طعم الرمل.

أبو ظبي، 1996.10.28

الطبيب الأرْمَنِيّ :

تشير العيادة للسهم، والسهم للباب. (باب العيادة أرحب من صدرها) ومن البهو تنشر طنفسة لونها الفارسي على ظلها الأرمني. النوافذ في هذه الحقبة المستعارة بعثرت الألق المحض والشمس حيث الستائر مسدلة. وأمام الطبيب شهادة جنسية وبطاقة زيارة ومجسم أسنان "ماموث". هز الخليج إليه جذوع النخيل فلم يسقط التمر. رمم أسنانه الخربات، وكنا كتبنا على الشمس أن الذين رموها بسن تسوس بعد مراهقة النفط لا يستحقون عن سن ظبي سوى سن فيلٍ. إلى البنج أسلم فكا، وأسلم للكرسي المتحرك جثته وتجرد من لذة الحس، من شبق العقل: ريش الكهولة في عمره الطفل. أعرف مكنونه. طيشه المر فيه، وهذا الزجاج هشاشته واضحة.

أبو ظبي، 1996.10.29

القارب الخشبي :

الفتور المشع على حرشف الحوت يمحوه موج ويكتبه، والحماس المشجر فوق قرون الأيائل خضخضة للهواء، ولكن ما بين فجين صوت ورجع صداه. لآليء عن غير قصد إذا اصطادها قارب خشبي بكت، وبمجذافه مسحت دمعها، وإذا اصطادها زورق "يانكي"

لملء الفـراغ، تعلمت الرقص والعـزف. من أجله ارتحلت وأقـامت، ومن أجله مـوهت ريشـهـا البـاطني، ومن أجله حـملت بالخليج تواريخ مبـتورة. تتجـمع أزمنة سلفت في الغـشاء البـدائي : رعـد يقول وبرق يصفق للقول. بعد ظهور الوثائق يثبت للبحر أن الملاحة من حق فاكـهـة البـحر، من حق فيروزة لا يشـار إليـهـا بحـرف نداء وهويتين، ويثبت للبحر أن الغريق القديم تقمص أشكاله وأعاد تراب الحصى لتراب العمر.

أبو ظبي، 1996.10.29

Light's Carnaval

في أعلى درجـات التنقـيب عن المفـقـودين ضـروري أن يعطى للصدفة ما هو جدير بالطوطم من تقديس، وضروري إغداق الضوء على السـاحـات الكبرى، وضروري تزويد المصباح الكشاف بزيت وبمشكاة، وضـروري إمـداد عـلامـات السـير برادات : سـابلة أو غـاد جاءوا من ثدي أرضعـهم أطفـالا، وامتصّوه شيوخا. بط بري دس المنقـار الأفطس في الماء استـخـفـافا بالماء. إشارات الموميـاء الأم إلى الموت الميلودرامي. زجـاجي هذا الفـردوس الناري. حبـال "النيـون" وأشياء أخرى في الفانوس الليلي.

أبو ظبي، 1996.10.30

Wipy's Chicken

نسخ مكررة هنا وهناك طبق الأصل، موجبة وسالبة لهذا المطعم السحري. في أبوابها تمثال ديك. باتباع نظام تغذية مؤسسة على قيم نباتية، تحرر من سعير النار، حرر كبرياء اللحم من إيقاظه لشراهة معقولة المعنى. فمن ذا يمنع الزبناء من إحياء ما أكلوه من لحم مدى قرنين. من ذا سوف ينصف كائنا من عرفه، وبه يطوف ما يطوف ثم يأتي للخليج من الطفولة للطفولة آكلا من ضعف قوته ومأكولا لقوة ضعفه ؟ من غير هذا الراهب الأعمى يهرمن زقزقات الفجر بالصوت الشجي وينقع الخروب في "الكاري" ؟ فقد جنحت به الأمواج نحو شطوط مملكة تمارس بالبزاة القنص. هذا ما جناه أب على أبنائه بمعرة النعمان : "ديك الجن" يكتب صوته شعرا.

دبي، 1996.10.30

Rallying

أمامه عمر يضاف إلى عمره المنتهي باحتضاره في شارع مغلق. نسخة كان سودها بطء جيل، وسرعة خيل مسومة، تم تبييضها في غمار السباق. لماذا يصحح أخطاءه الوثنية حبر صغير ؟ لماذا بناء حياة لموت تعذر في سالف الدهر تدوينه بالحروف ؟ الفجيعة في

عجلات بدون حدوس، ولب الفجيعة في قدمين تورمتا بالمداس النحاسي. لو يترحم حي على ميت بالوقوف دقيقة صمت على قبره. لو يعض أصابعه القابضات على الجمر من ندم. لو تهب شموس شمالية يتعقب خطوتها قمر ساذج شع في الليل. تنفجر العجلات، ومن قوة الجذب تعرج بالمتسابق كوفية وعقال إلى سدرة المنتهى حيث يرهن يا شماقه والحرير الذي فيه في "فيلودروم" الضواحي.

دبي، 1996.1.11

Golfing

من جسر يابانيّ ومدينة ألعاب ونهيرات عريان ما فيها من بط، ألقى شيخ تعليمات "الغولف" إلى الزوار، كما ألقى عيسو موعظة من أعلى جبل في الكرمل : "يا زوار احترسوا من أعشاب لاذعة، ضاقت بوقاحتها الأرض. احترسوا من عصيان الحظ إذا واتى كرة وتحاشى ثقبا. واحترسوا من تمساح أمهله الموت إلى وقت دون فيه وصايا أنفاس مبتورات بقيت في جعبته ! معجزة تصحيح الأخطاء على صهد النار، وإرهاص تشييد الموت على أنقاض حياة ماتت سلفا. يجري الشيخ اللاعب يوميا للياقته تدريبا تحت تيار الشمس

على إيقاعي كرة وعصى بيضاوين. لعيب خلقي نبتت أحجار في كينونته. عاقت إيصال السهم إلى مرماه. وتقليدا للبطريق البحر اعتاد الركض وراء الظل.

فاس، 1996.11.2

Yachting

هو صوت أجش يرابط في مرفإ الشمس. زعنفة ظهرت واختفت. ربما إخطبوط يهيئ ميتته طافيا. ربما ظبية نفرت من كناس إلى حوض ماء لتغسل بالكحل أطرافها. ربما ريشة نفثت سمها من يدي صائد. ربما أرق يتثاءب من تعب. ربما الليل جرد فانوسه من فراسته. ربما... ربما... هو يختلك أسمع في الليل مواءه كلما سكنت آلة اللف والدوران، وهادن صوت المحرك صوت العناصر. يعبر حلما بآخر في خفية عن مراصد خفر السواحل. يهتم بالكسل المتشبث بي، وعلي يفوت فرصة مجد قوي بذاكرتي وضعيف بسهوك. يسخر بي، بدهائي الموزع بيني وبينك. ينكر حقي في أن أواجهه وأمرغ صبري عليه، وأقتلع الريح من رئتيه، وأكشف عن متوسط عمر يبرر إشراك كل الأقاليم في مائه وفواكهه، ويخفف من غلواء تفاؤله وتشاؤمه. تلك مملكتي وأغار عليها.

فاس، 1996.11.20

Bowling

بالأمس كانت حشرات الظل في أسلاكها "النيون" . في أسلاكها مساحة مضاءة تفصل سد مأرب عن الخليج، والخليج عن لباس الخز في النيروز . أمس وضع الشيخ الصخور البازلية على مكتبه ـ ملعبه رهن إشارة مدير متحف الآثار . إن حجر الزناد في رحمه ذكورة النار ومن سرته أنوثة الرماد . يهرش قفاه طلبا للفهم، والمدير ملء عقله الباطن يبحث عن الملعب كي يؤثث المكتب، كي يبحث للكرة عن مسالك الذهول : إن تدحرجت على البساط الخشبي نزل العقار عن وقاره، وإن تمرغت عليه استنكر الرقم سكوت إبرة العداد عنه . تسقط البيادق البيضاء بعد رمية أو رميتين أو ثلاث . يهتف الحكم : "لا تقيدوا النخلة من سيقانها العجفاء بل من حبلها السري حتى تلد التمر من البلح والبلح من تقلب النواة في صفاقها . تعادل أبيض بين الشك واليقين .

فاس، 1996.11.24

مملكة التعب

تعب الأرحام :

مساحة مكتظة بجثث الأرحام والمهود. كل رحم ينتظر المهد المناسب ليملأ فراغ ذاته منه. خلاصة الرحيق المتجمع خلال سنة من عرق الماء ومن ريق التراب. لا يكاد الوعد أن يخلخل الوعيد حتى يطفو البنفسج الأصفر فوق السطح. أنى لاحتراقي بنار الأخذ والعطاء أن أملأ أمس بفراغ غده وأستجم ؟ كيف للعنقاء أن تنهض من رماد مهد لم يجد رحمه الفارغ ؟ ليس غضب النار سوى احتقان صوت في صداه. لا مفر للصدى العامر من إخلاء هذه المساحة من الأرحام.

البيضاء، 1996.12.30

تعب العظام :

أغريت كلبا بعظام ضخمة هي كما حسبت للعنقاء. عاف الكلب هذا الهيكل المفصول عن زمانه، الضخم فلم يسيء إليه بانتهاك حرمة لبست التاريخ ثم خلعته. انقرضت وهي مومياء لم تسلم من الجرب والتحنيط. ما برر رفضه ولكن أسدل العينين والأذنين والذيل، وجمع على ذقنه الأشيب ما جناه من نباحه في الليل، من سكوته في فلق الصبح. (يرى بحاسة الشم) جدير بالمهارات التي اكتسبها بصبره أن يتبين بها عصر المجاعة. تشيد المصانع لإنتاج كلاب تؤنس العانس، أو تحرس بواب عمارة من النوم وسائق سيارة من الغفلة، أو تنبح باسم غضب الكون. لمن وجدت العظام ؟

البيضاء، 1996.12.31

تعب الديناصورات :

حولي ديناصورات تحني هامتها خوفا، واستعلاء ترفعها. توحي للناس بأني مطلوب لمحاكم تفتيش عن تصنيفي أشكالا لا تحصى منها. لم يشفع هيكلها الضخم لها في تمطيط العمر إلى ما بعد الحرب الكونية. حولي أنواع منها تعفيني من عجزي عن إحصاء

زعانفها. صناع حضارات معطوبون، وأعشاب ما ذبلت حتى تطعمها النيران ولا ينعت حتى تقضمها الجرذان، وأنصار مفتوحون، وأسفار مغلقة عما فيها، ورؤوس طازجة لم تقطف، وغبار نشاف، وطريق أمشي فيها ويدمرها غيري، وزبانية غيري لملاحقة الظل الأحدب مخلوقون. وبعد استيعاب سلالات الديناصورات أرى من حقي أن أختار لها ـ للبائد والباقي ـ أقفاصا ورموزا علمية.

البيضاء، 1997.1.1

تعب العماليق :

طوبى لعماليق الأرض المشهورين وأقزام الأرض المغمورين إذا هم نابوا عني في توزيع الليل على أصوافَ أسرتهم ووسائدهم : عين للحلم وأخرى للنوم، فلولاهم ما دل الرادار على إفراطي في السرعة. لا منجيَ من رؤيا لم يسبقني في "أفسوس" إليها نيام، لم يعرضها قبلي شراح موهوبون على أنظار الشمس لتجفيف رطوبتها. إشعاع ذري. فوضى في مجموع تراب المعمور. بروج ـ أجراس رنت قبل الميلاد. عمارات بنيت وصوامع دكت، والماضون ـ الآتون كما هم، والحدس كما هو مصر إلا أن يقتص له مني : بكتاب هيروغليفي

يأتي وبه يمضي. لا أدري إلا أني لم تطرف عـينـاي ولم أنزع عني ثوب السهرة طيلة أعوام ألف خوفا من تبديد الهندام. العملة بعد استيقاظي ضربت باسمي.

البيضاء، 1997.1.2

تعب "سوفوكليس" :

يتراشق بالكلمات الثقال المؤلف عبر الممثل. يستعر الدور في المسرحية. كل مآسي "سوفوكليس" معصوبة الرأس، تكتب تاريخها بتوهج حبرين : حبر لمحو أناها، وحبر لتشخيصها في "الكوليزيوم" . يا ليت أني دخلت إلى معبد وتركت المفاتيح في عهدة الوثن الحجري، فإن خروجي من فتحة القفل أعسر منه دخولي من سعة الباب. يا ليت أني قرأت الرواية من أسفل الحرف كي لا يدمر خوف المؤلف أمن الممثل. (إني سكرت بخمرهما "قبل أن يخلق الكرم") دوزن قيثاره أمهر العازفين وهر من أنغامها البطل الملحمي. استقال. تخطى السماوات والأرضين وعاد إلى مسقط الرأس حيث التعاويذ تعصم من غضب الرب ينزل عن عرشه لأباطرة ميتين ولو ولدوا في دماغ "سوفوكليس" . كل كراسي "الكوليزيوم" فارغة لامتلاء رحاب البلاغة بالصمت.

البيضاء، 1997.1.2

تعب الطوطم :

هو ذا الطوطم البابلي تمارس فيه ـ عليه شعائر دونها القسس السابقون ببردية عشر القسس اللاحقون عليها ممزقة قرب بحر الجنوب، وفيها عظام سراطينه وحراشف حيتانه. ومساء الثلاثاء من كل ليل يطول به الوقت، يشتعل الشيب في الرمز دون الإشارة. صابئة ومجوس إذا ما ألمت بماء البحار ونار البراكين وعكة برد وحمى يتيهون في الأرض. لو صح لي أن أكون "الأخير زمانه" لاحتشد المعجبون حوالي. لو صح لي أن أحاكم عصرا بعصر، وصرو بيثرب، والدمية الحجرية بالشمع لاحتشد المعجبون حوالي. أيسر لي أن أبدد مرثية فوق قبر كما يتبدد نيلوفر في المياه الغريقة، من أن أوفر للكاردينال ثمانين مترا من الخز كي يتبرج فيها المجاز، وللطوطم البابلي ثلاثين مترا من الخيش كي تتقشف فيها الكناية. ما يتقزز من عرق الإبط غير الكلام.

البيضاء، 1997.1.2

تعب المساحة :

وأنا داخل في الدجنة أعزل إلا من الصمت، نبأني عارف أن علم المساحة أضيق مما يقول المهندس، أرحب مما يظن المقاول. سرحت

عيني في الأفق المتقلص، في الأفق المتمدد. جددت عهدي بأوراقي الباليات، وطفت المتاهة من عصرها الحجري إلى عصرها النووي. تكشف لي أن ما يلبس الديك من غضب الفجر يخلعه في المساء لينسجم العري في اللحظتين مع اللحظتين. وصفصافة إثر صفصافة سقط الوقت تحت قناع التوتُّر. لا الريح عاقلة فترد الحياة على الورق المتساقط في الطرقات، ولا الورق المتساقط يشجب فعل الخريف ترنح ميزانه، استبدل الكفتين بواحدة. سوف أكتب عن غضب الفينيقيّ على سور "صور" المواجه للبحر، عن غضب الأموي على نخلة وضعت حملها خارج الطمث، عن غضب الزنج في "بركة المتوكل"، عن غضب الكاتبين الملاحم ملحمة فوق أخرى لتقليص حجم المسافة.

البيضاء، 1997.1.3

تعب القرمطي :

فزعون من الكرسي الكهربائي والسيف والنطع والشنق والصلب والحرق. هل فالج ما بكم ؟ بلي الثوب تحت اختلاجاته. ليكن ! جسدي تحت معناه لا يتحمل مزدوجا ثقله ! ولتحل على صانع الأدوات الصقيلة لعنة معدنها المتعنت ! دار حوار بدون توابل بين

الرؤوس وقاطعها. قرر الأولوية للقرمطي وأقصاه عن كتب الحوليات وعما يخوله السبق للمتضرر من شهرة. رتب الميتين الأوائل محفوظة في السجلات. أما الأواخر فالموت زودهم بمخيلة منيت بخيال شحيح، بها يتفادون نسيانهم وتفسخهم في القبور. الذرائع جاهزة، والجلاوزة العابثون، إذا ساءلوا الناس لا يضحكون ولو ضحكت. كذبت شفة تحت أسنانهم شفة فوقها. يلدون الإناث ذكورا عواسن من كل زوجين.. يستنسخون الخلايا: بتولية بزغت وبتولية أفلت، والمدى ثيب في المسارين.

البيضاء، 1997.1.3

تعب الثلج:

هل توغلت ـ تقدمت إلى الجبهة والثلج الذي يقطر منها؟ يوم دقت ساعة البرج ولم تسكت. وما إن ناب عنها منجنيق صديء المعدن حتى كنت في صوت تداعى منه. بعد القصف لم يبق عليه من رداء الثلج إلا المتحف الحربي. يوما كنت في الجبهة جنديا، تطوعت لتطويق اختياري وحماية أسرى فيهم مكتبة ساءلها القرصان في البحر عن الكون، ولما فاض منها عسل العرفان محضا، قال للفلك:

"تريث ! ليس في الأسفار إلا خيمياء : يدخل المعدن في طور مخاض قبل أن ينزل عما عجز التنظير عنه. كنت في الجبهة أبكي جثث القتلى وابكي جثتي بعد انتهائي من سماع الشهقة العذراء تنزو من حبال الصوت. ليس الثلج إلا ثمرات من نخيل الطقس، لكن اغتيال القمر الغض بشمس وبراكين اختزال للأساطير. قليل من غبار النشوة الأخرى وأنضو تعب الجبهة عني.

البيضاء، 1997.1.4

تعب القيصر :

دهست سيارة القيصر يوما أسقفا زود روما بالأساطير ووالى سيره العابث في الليل. ولولا أنّ شخصا كامل العضوية في العصر تماهى مع أرقام السيارات، أحاط السود والحمر بسر البيض والصفر، لهرت زبر الإغريق في وجهي، وماءت قطط الشرق مواء نحلته قطط الغرب عليها. قم ! وسلمني المقاليد فما في الخرج إلا كسرة الخبز السماوي. استعذ بي من كوابيس تراها غرفة الإنعاش في الليل ! شهود شعراء نفروا ملء قوافيهم خفافا وثقالا. وقفوا عند حقول القمح والحنطة، عند الدغل الموحش، لا هم نكأوا الجرح ولا هم أسعفوه. وإلى أن يسخر القيصر والأسقف مني، وإلى أن يجرؤ

الصفر على رد اعتبار الرقم للرقم، سأدلي لهما فعلا بأقوالي وأمضي.

البيضاء، 1997.1.4

تعب "الكورتيزون" :

كما تترى على الحرباء ألوان الشماتة والتشفي في نسيج واحد، يتخلص التمثال من أسر الإطار وتستبد به الصحائف. كم بذلت النصح للآتين قبل مجيئهم : أن يصقلوا بالكورتيزون عيونهم. كانت لهم كتب ولي ماء المحابر. كيف أقدر أن أفجر فقره مما تضم الكتب في طياتها ؟ فمعي وضدي آية تعد الضعيف بضعفه البشري، والأقوى بترميم العظام الزائدات لبيعها بنخاعها الشوكي للمرضى. علامات المرور. توتر العجلات والخطوات راجلة وراكبة. أثاث مفعم بالآبنوس الحر. أجواخ على قدر احتمال الجيب. أعوام إذا كتبت يطول بها المقام على قرون الحبر. عشاب. علاج بالأشعة والصدى. مدن ببيت المال : يمكن أن تؤسس هذه سلبا لإيجاب صغير. ما عدا الحمى يظل الكورتيزون العازل الطبي للأحياء.

البيضاء، 1997.1.7

تعب "الكوسموس" :

متى كانت رياح الغرب دافئة ؟ متى قامت بتوجيه الغيوم الماطرات إلى تخوم الشرق والمطر المدمر والثلوج إلى جبال القطب ؟ ينسب للعصى موسى، وينسب للخنى شذاذ آفاق بهم بتحرش الدركي في ناصية الطرق التي تفضي إلي، ويستمد من ازدحام الزفت والإسمنت والقطران شيئا ليس في علم المساحة مثله. ورواية عمن روى عن "فوكوياما" علمه، يتجدد الكوسموس طوعا كل قرن في مشيمة نجمة حبلى. لعلي واصل قبلي إلى رأس القناة. فحيث تكتم عارها عني رياح الغرب، أثر في المهب على محركها الخلاسي العصي. أديره جهة اليمين إلى اليسار، واستحث النمش أن يجتاح سطح إهابة. عجبا لعوسجة على سور، وليلكة على أص، وناطور على حقل، تخاطبني بلفظ جارح. لكأن ما لفظته فجا فوهة الأفران غاز خامل، مزجت به "الهولوكست" ملح رمادها الكاذب.

تعب التفاصيل :

لتخفيف عبء الحراسة عني أطالب بالباب. أطلب منها معاقرتي الخوف. أطلب أن تتجمع في الخيوط يفيء سداها إلى لحمتي كلما

اختلج النول عند الحياكة، حتى يكون احتفائي بها جاريا حسب العرف. أفتحها راضيا لأرحب بالكبرياء الجريح، فيغلقها غاضب يتوهم أنه سادنها. الداخلون يفتشهم ملك مولع بالسؤال الرتيب ومكترث بالتفاصيل، والخارجون تحذرهم شاشة ثبتت في الجدار المقابل من رد فعل السؤال الرتيب ومكر التفاصيل : سوق. سماسرة. عملتان. لصوص. مبارزة بالسلاح الملون. لو بقي الخشب المتنطع في الغاب بكرا، لما كان للباب أن تتأفف من عدم سابق في الوجود على العدم المتربص بي وبها. خلف آلهة وأبالسة ظلهم.

البيضاء، 1997.1.8

تعب الهواء :

لأجنحة الطير كان الهواء ولا شيء غير الهواء، وللريح كان الهباء ولا شيء غير الهباء. تحد الأعاصير من كبرياء العواصف، من فزع اللاجئين إلى ظلمات الدهاليز. أمس دنوت من الجسد المتقلب فوق البساط الرخامي أسأله نفسا من هواء يعيد إلى صدر قبرة سقطت قبسا من زهو التفوق. ذكرني بجلاوزة نفضوا عن حوارهم الدموي الغبار، وذكرني بعراء فلاسفة فتحوا في السماء ثقوبا تسرب منها

الأوزون المشاغب. تولد ريح معقمة من نسيم الصبا، ونسيم الصبا من مخابر آهلة بالأنابيب، تحصي الجراثيم من حر أنفاسها، وتحلل نبض تحركها، وتعدل كمية العصف والقصف في الطقس. يا أيها الأنبياء الرعاة هلموا إلي ! فبعد سقوط الحضارات من شاهق سوف تلتجئون إلي لتأويلكم، وبدوري سألجأ للحلم. ما أتنفسه ـ أتنشقه من هواء يدمرني حين يصبح عاصفة وأعاصير.

البيضاء، 1997.1.8

تعب الوقت الفارغ :

من ارتعاشة مخاض كاذب يولد في العصر من الساسة من تشملهم بطالة الروح المقنعة. من تخطئهم فراسة الخلق. الطقوس الطوطمية. كتاب مغلق. حمامة وغصن زيتون على أفخاذها. دمى مصابة بفقر الدم. هؤلاء فوكوياميون فسروا العالم من فوارق السن ما بين أزل وابد، واستنطقوا النقوش في مسلة، (كشفت المسلة الصماء عن عمريهما) لمثلهم ينتفض العصفور بلله قطر ماكر، ويفقد التكوين ذاكرته وسفره، وتركن الكينونة العزلاء للغمد. لمثلهم تضيق فسحة الإمكان حتى ليفر الصوت من أوتاره. ومع أن الليل ـ هذا الكائن الموتور ـ محظور عليه النوم والحلم أمام ضوء

فانوس صغير، وكتاب يتكي على مخدة، فإن حمرة الشفق تعتذر عن تقصيرها في خدمة الألق والتورد القمحي. هذا الليل مدعو إلى مائدتي فمن فتاتها الرهيف يتغذى الحالمون. "عاصفات الليل في النهار محض شرنقة".

فاس، 1997.1.9

تعب المحاكاة :

ميالا كنت ولا زلت إلى تدوين العمر - الشعر على أوراق تجري فيها أنفاسي. لا أنفي عن أبطال الإغريق الإعجاز، ولا عن آلهة بيض أنفي التهمة. مذبوحا من ألم أرقص في أحضان محاكاة. في أحضان قمطر جلدي يخفي مني ما لم يستره التوت. الحمى والليل زمان قياسي تتردى فيه السمعة، تنهار، ويسري الكيموس فراتا في شريان العمر - الشعر. الآلات الحدباء. اللاإمكان الناطق باسم ولايات لم يفصح عما فيها أحد لحفاة المشائين. لمن أوصي بالحبر على جرعات وأنا مفصول عن ألواحي السبعة ؟ مستثنى مني، والورش مليء بالداعين إلى استهجان حليب الأم ؟ قطاة في أيك، وهديل في أيك وقطاة. هاهم يجترون بيانا لفصاحتهم من ألواحي السبعة.

فاس، 1997.2.10

استراحة الفقاريات المنقرضة بعد التعب :

الفوضى لي منها ما هو ضروري،
فبها استوفى عمري دين حياتين.

وضعت في القمطر بعض حكمتي،
ثم تمسكت بما فيه من الألغام.

هل تقرئين الليل
من حلميّ الخجول، أم من طيشك المعشوشب ؟

تردّتْ سمعة الإيروس وانهارت
لكي تحتال للإيقاع عن ميثوس.

لم إذن ناسخت ماء الوجه،
وليس ما يمنع من تعديله ؟

قل كلامك حبرا على ورق،
فالمجاز المراوغ غرر بالحاسة السابعة !

هو الإمكان الباقي
من حالات ميئوس منها.

عذرا عن الهوية ـ النموذج،
أوجدها الإبداع أو أجهضها التدجين.

أصبو وأحلم خارج الأعراف.
عجبا، وأزعم أن ما حولي حواليّ.

أراني حائرا بين الشتاء ـ الشمس والشمس ـ الشتاء، ومعنى واحد لاثنين.

وكتبت على هامش النظرة الثاقبة،
قلقا يتسلق شكلا ولا يتعقب ظل انسيابه.

كل قطاة في منفى
إلا ولها وطن مزدوج وهديل واحد.

هذا التعب كله :

- استقصاء للغايات الوسطى من معرفة جرداء،
- أو تدريبا للأعضاء على عصيان ظرفي،
- أو توزيعا للألوان على القارات.

البيضاء، 1997.2.1

العلاقات

برولوغ :

لانشغالي بنقل سبايا "أوغاريت" من خدرهن إلى "رأس شمرا" تخدرت. كن صبايا ثلاثا بعولتهن يهيئنهن لطقس احتضار جميل عسى أن يمتن وفيهن خيط دم صديء قبسته عروق البعول الثلاثة منهن. ما إن نزعت حجاب التشاؤب عنهن حتى تلوثت. لوثت أعينهن وأعينهم بالبنفسج والسرخس المتوحش. نمت مكبا على زمني، فرأيت الذي لم تر العين مثله.

I

أمرت من مرّ من الثلاثة البعول أن يطأطيء الرأس وأن يغمسه في سيل "فورمول" يفتت التراب والحصى. كآبة مزمنة ونشوة عابرة

أطبقتا على المدى من أثر "الفورمول" . شمعة على مشارف الذهول والذبول فوق شمعدان تتواتر القرابين عليه. شبح في الضوء والظل وثان في الصدى وثالث بين يدي مخدر تجمرت صورته على رغاء الكأس، حيث أول السير الضرير آخر المسير.

II

ولكي أدمر بؤرة الإشعاع، أوهم دارة القمر القصي بأن وكر الوهم مفتوح على خط استواء بارد حلزوني التركيب، ينشر ظله فيما تكسرت الجفون عليه فاسترخت وأغرقت المدى فيها. بلفظ الجمر كلمت الرماد ولم أشر للنار حتى بعد أن دفن الثلاثة في ضريح واحد. نفس المخدر يخرج المجهول والمعلوم من سين إلى جوف الرحى الظمآن. جعجعة الرحى من فرط ما طحنت قرون السين خرساء.

III

يقع في الحسبان أن النوم توأم لنفسه، وأن الحلم لا ند له. من منهما يفجر الآخر حيث تتكافأ الأدلة ؟ لعل ما يقولانه للفراش محض هذيان عاقل، وما يقوله الفراش لهما يفصل بين جسد مغيَّب وجسد يسكنه ثلاثة. برمت من تخاذل الليل ومن مقولة تقر

عيناي بها وتتمرد عليها شفتاي. الحلم والنمو إذا تواطآ علي فاللغة لي ولهما الكلام. ما يقال للقشرة عن تلاقح الأنواع في زيارة مفتوحة، يقال للنواة.

مسك ختام أول :

بدا البللور في عيني حالمتين أصفى منه في عنين نائمتين. شرنقة تجفف خزها الطفلي. زربيَّة من الدانتيل. زلزال يجوز عليه شيء يستحيل على الأزقة والشوارع. خندق في الصخر منحوت. خوابي الطين ملآى بالكنوز. النار شبت في عظام عظاية بيضاء.

مسك ختام ثاني :

وبعد ما أفقت من تسكعي ونقل ما بقي من رفاتهن لأوغاريت، تناسخن جميعهن في واحدة تمرغت على فراش الشيخ محيي الدين والشيخ معاوية والشيخ يوحنا المعمدان. جف نهر بردى.

دمشق - روما، 1997.2.27 - 1997.3.1

Mes personnages à moi

برولوغ :

يعني حشد شخوصي تبريرا لاستقراء ملامحهم واستنزاف فواكه لم تمكث في الغصن إلى حين النضج. تفاهات ما زلت حريصا ألا تفلت من تأويلي. ولخوفي منهم أعلنت مواقيت خصوبة أرحام أبكار مجهولات لاستيلاد البركان الصامت من بركان صاح. أما كبح جماح التلقيح بتقزيم اللذة بالحس اللفظي، فهذا رهن بلقاء ثان أخلو فيه إليهم لاسترجاع حضانة من شقوا في الطاعة أخدودا للعصيان، ولاستبعاد كفالة من شبوا عن طوقي. ألهاني ترميم إهاب عانى حزنا ضاقت بتحمله أعينهم، عن إحصاء التالف من أعضائي، عما فيها من ريح ودم مائي :

الإشبين :

. يسعى العراف القفقازي إلى تأكيد قداسته باستنساخي. صوت كورالي مبحوح. أنف افطس لم تنفع فيه جراحة تجميل. يسمعني بالانف، يراني بالصوت. الرغبة في ضبط الوجه المبعوج استهوتني. أوقفت زماني حيث استوقفني، حيث استدعى كل شخوصي لمشاهدتي في أقصى حالات جنوني. هذا الوجه المفروم قرير بالحور العين ومنذور لهداية عزاب ضلوا وجهتهم : تقديم تعازيهم لامرأة تتفقد يوميا رواد الدير قبل العودة للقبر الموحش في آخر انفاس الليل. تلكأ باب الجبانة مذعورا خجلا من أحقاب جئنا منها.

الإفشين :

خاض الإفشين غمار حروب ضارية. لفوا جثته في أكفان وشايات بيضاء : حياد عذب صاف أدى بالحرب إلى تأجيل الهدنة حتى إتقان الحرفة : من رمي بالرمح الرشاش إلى تحصيل علمي في مدرسة الأركان العليا. تضمين صراخ الجرحى في راموس بال. تعليمات في صالح عصيان عقلاني موروث. غصات صماء تَشَرَّبَهَا دن طيني بعد جفاف ألفي. طوفان بالفلك وطوفان بالجودي. كلانا يذكي نارا موقدة أربع مرات في العام لإنضاج الخبز اليومي. يد فوق البطن وأخرى فوق العانة. من مات يموت.

ابو فكران :

لملمت الباقي من أعضائي في كيس مائي. واصلت التسيار كشلال لا مرئي مفتونا بصفاء خطى "الفكرون" الأصهب، مفتونا بالسمك البوري، مفتونا برعاة سمر، مفتونا بملامح نصب تذكاري للنهر أقاموه على كاهلهم وشما بالنيلة كيلا يمحى. كم مات من الحجاج العارين على الضفة ؟ لا شيء إذا لم يجر الماء بعيدا نحوي. لا شيء إذا ما انقادت للتيه الموجات المخصية. لا شيء إذا ما ردمت أقدام الطحلب أظفار الضفة. لا شيء إذا ما استرخت أعضاء الضفدع حتى لم يحرس هذا النهر نقيق. لا شيء إذا ماخر السقف الطيني على مكناسة إيثارا للراحة.

البطريق :

أحجار وزجاج ومحار وثمالات الرمل المسحوق تصدت لي وأنا أمشي في الأسواق. تحاشاني البطريق فما أولاني بعض عنايته إلا وجناحي مكسور : رجل في النفي وأخرى في الترحال. تحاشيت البطريق المنفوش الريش، ولمت البحر على إهمال فواكهه من صنف الثدييات ذوات الأجنحة البيضاء السوداء، ولمت البحار على استنساخ الطائر والسابح والزاحف والماشي في صورة ربان حشو

البطن الضامر بالملح قصاراه : انفرطت حبات الصورة من أزرار البرواز، وكانت عيناي ورائي لما دوخت البحرين. (البرزخ بينهما) وبمنقار البطريق (سماويا ـ أرضيا) فجرت الأنفاس الحرى في كلمة.

بلقيس :

أصرت نملات الصرح على استطلاع الرأي العام لإقرار براءة بلقيس وتوريط السد الممتد على طول الأسطورة من صنعاء إلى من لابد له من صنعاء ولو طالت سفرته. استجوبن مباشرة أسراب ذكور النمل وقطعان إناث الطير فلم يظفرن بشيء. ما دل على طوفان فعلى طوفان دل. دم حي في شريان المصعد. من منا المسؤول على تعطيل عروج محض بعد عروج مشلول ؟ من منا أولى بممالكه ورعاياه ؟ وهل أروع من هذا المنتجع الأخضر أرض معدنها بالفطرة مصقول ؟ أسرى حرب وسباياها منكبون على غزل عذري يسري في الحس التجريدي دما، ولعابا يسري في الحس الحسي.

البوهالي :

يمشي خلفي كالملك الحارس. أمشي خلف الظل الباقي منه على أعطافي. هذا العطر المنتن أحرى بالجلباب الصوفي، وأحرى

بالجلباب الصوفي المارستان. سوى كأس مُهراقٍ ما فيها، وجروح نكأتها أنثى، لا يوجد ما يدعو للريبة. عم صبحا، عم ظهرا، عم عصرا، عمت مساء ! سمع مثقوب كالغربال المودع في ذاكرتي الفصحى. هذيان الأنثى تحت القشرة، إعجاز الأنثى فوق القشرة. ناج من تخريب السطح الغواص، وناج من تخريب العمق الطافي، إعجابا بنضوج فواكهه يرميها بالأحجار. التخريب التخريب إلى أن تتماهى حبَّات الجلد القاسي بخيوط الجلباب الصوفي.

تومرت :

بعد عشاءٍ دسم فخم لم يدع له إلآي، تبادلنا الأنخاب على شرف النشوة بكراً : تومرت القارئ في سفر وأنا القارئ في كراس. ملء السفر أبالسة قوامون على اللاهوت السري، وملء الكراس ملائكة قوامون على جس النبض الواني. وبما أني شيخ مخصوم منه ـ على سوء تصرفه ـ نصف من راتبه، فلقد زودت السفر برأس والكراس بمشط رغم الصلع النابت في الشعر. وتلقائيا قاتلنا حتى ارتطمت أرجلنا بنواة لم تسكن، وبتمر ينمو مرات سبعا في القرن. خوان ممتد من "تيزنيت" إلى "أغمات". معا جئنا من لا شيء : سلحفاة وجراد : كم هو جميل رأس مفصول عن جثة !

الحبشي :

يغريني "الرأس الأخضر" في غرب القارة بالترحال، ويغريك فضاء محض لإقامة قداس في "تابوت الرب" الإيوبي المستأجر جلدا ساميا لإهاب حامي. سكر يستجلي ما في ملح البحر الأحمر، ما في مخطوطات البحر الميت من أوثان وأساطير، وصحو يستجدي لحظة أنس في مجلس أنس. ولأن الأطفال الصوماليين ذوو جوع حي إن طعموا ماتوا، فظلام الليل الأرقط وجه آخر للديجور. ألا قل لي شيئا عمن يولد من أرحام لم تسكن واتاني الحظ بتهريب الجينات إليها منها، عبر كتابات بيضاء تدلت مثل عساليج النار الهشة.

"خيرة"

هم نخاسون برانسهم صوف وبري، ولحاهم "باروكات". ما مروا من "زوج بغال" إلا وعيون رجال الجمرك ترعى سوق الرق العامر منهم. إن أدوا مكسا غالوا في تثمين مزايا قينات أكبار ينظمن الشعر بيمناهن ويعزفن الألحان بيسراهن، وإن أعفوا منه دعوا رواد السوق إلى تجريب السلعة مجانا. ها نحن اجتزنا أولى درجات السن معا ! هل أخطأنا ؟ عيبي يا خيرة أني في مجموع شخوصي غيري

في جلدي الأدكن، غيري في أسمائي. من أخطائي إعجابي بالشعر الباذخ يسري في شرياني من أنثى، إن ثار غبار من وقع خطاها واراه الطيب الفاغم منها. هذا الخلق على غير مثال لا يقبل تعديلا.

"دالي" :

لا تحسب أني راوغت الشارب حتى داری خجلا مزعوما طي الشفة العليا. إني لشديد الحرص على سحب الخيط من الخذروف، (يدور الخذروف بسوط الخيط) فما عندي من خفر يفضحه عنف الفرشاة ويرسمه خجلا. إني لشديد الحرص على ترهين الأشياء بما كسبت منك لعلمي أن ضفاف الوجه اكتنزت، ومضاء النظر الثاقب في عينيك احتد. فلا ما يمكن أن يخذل إرهاصي وأناملي العشرة عند إعادة تشذيب الشارب والعين اليسرى. وشم واستبطان في الخط الدائر والنقطة والمد الإحليلي المفسوح على ظهر قماش مملوء بحضور الأنثى "غالا" والأنثى الأخرى تلك اللوحة.

زرادشت :

لم أفرغ من تأثيث صواني برفوف من خشب يستعمل في صنع الأكياس، ولم أفرغ من رص الحكمة فيها حتى احتج العرفان الآري

على هذا الجرم المقصود، وقال كلاما يندى منه جبيني. هل تدري أني رتقت الحاجب قبل استكمال عجين الجفن ؟ العلة في هذا واضحة : عين حوراء إذا ما داعبها نوم شف الدمع الصافي فيها وتسامى الجفن إلى ان ساواه الحاجب. هذا ولقد عشت أمام المجمر عشرا، ووراء الليل البارد عشرا، وأنا أستدفي بأحاديثك عن قوم في غفلة دهر عنهم شادوا ـ بنقاء سريرتهم ـ للشاه بلاطا، وضريحا للشاهة. أستثني منهم من دفنوا في جبانات الشاهنامة.

الزّيانيّ :

والآن وهذا الزمن الرث صريح في إعلان رداءته. ماذا يبقى من عمر مزدحم بالأيام ؟ لعاب ثعباني ! فاكهة تجتر سخاء الشمس وبخل الماء ! نجوم معتقلات في كمشة أوراق وشظايا ! هذا الوجه العاشق إذ شق طريقا في الصخر لأسرار رعناء هنا حيث العرعار طعام لوعول وأيائل، ضيعني. أقسى من أظفار البازي عنف القناص الهاوي. يا لقطاة الأيك ! نقيق موتور في السفح وأصداء نعيب في القمة. لم تستأنس أرض بخطى تمشي فوق حصاها مثل خطاك، ولم تشرب أنخابا في غابات البلوط على ذكر حبيب قبلك. صَفٌّ من جنيات أبكار في رقصة "أحواش" يقابل صفا من حجاج أعزاب، بينهما إيقاعك "يا حمُّو" !

زيري :

بهذه اليد التي لثمتها أغرس في وجدة شوك تينة ومسكة من القرنفل وشيئا لا أسميه، لأني واحد من فئة تجمعت حول ضريحك الذي تحرسه عوسجة، ويستحم فيه مجهول هوية. إذا ذكر "خيرة" تفيض عينه اليسرى بدمع خاثر، وعينه اليمنى بما فيها من الماء وما فيها من الشمع وما فيها من الفتنة والخوف. بريء منك إن بادلت الف سنة بسنة تغلق في وجهي وجوها لم تمت بهذه المدينة.

الساماني :

كنت تحدثت لهم عنك، وفي أوج انفعالي رفعت مضيفة إصبعها الإبهام كي تحتج عما قلته لها وهي طفلة في حضنها نمت سمرقند وبحر الروم والخزر والخز الشيرازي، وبين قدميها سجد السامانيون السابقون. (كنت منهم) من تجرأ فسرّب إليها هذياني. أيها الرجل يا من أودع الأسرار في صدري أمانة، تذكر أنني أقدح من زنادها النار فهل أجد في جمارها الأمن، وفي ائتمانك الخوف ؟ ضعي أيتها الطفلة أسمالك حيث يضع الحارث لغما أول السنة في التراب.

السّباِئِيّ :

عابوا علي أنني وضعت همزة على مؤخر السد وما كان لجرد مفرد أن يفسخ الخيوط في الخشب لولا الريح. ما كان له أن يجبر الماء على الهجرة نحو جزر الهند. فجئت طالبا منك المعونة. تمنطقت بحزمك ولما تختمر فيه العجينة. حذار أن تلومني على بلوغ همزتك سن الرشد ! كن لي شاهدا على انفجار الريح من كل ثقوب السد والماء، أكن بك حفيا يوم يقرأ "المقالح" احتفائي ببلوغ همزة مقطوعة النسب سن الرشد.

قارون :

لبس زي "قورح"، أنحاء مصر كلها طاف بها، لعله يجد خزافا مهذبا يصب الخزف الأصفر قبل نضجه في جرة تسع كنزه الكبير. لقن الأسئلة الصعبة والرشوة واختناق "رأس المال" بالمضاربات لابنه. سال لعاب التبر والنضار خاثرا من الجرة. بعد فشل الاسئلة الصعبة في إيجاد رد واضح، تمسك الأب بما بقي في الأكياس ثم احتفظ الابن بصرة المفاتيح. رياح تجلب الثلوج للقطب الشمالي، وأخرى تحمل الرمال للطور، وليسا ينبعان من هبوب واحد. (أثمن من عباءة الرمل فراء الثلج)

القراغول :

منذ جفاف رئتيك واحتقان الربو فيهما وأنت واقف خلفك، لا المسافة الشَّعثاء تدعوك ولا أنت تراهن بها على انتقالك من المبدأ للمعاد. من ينوب عن فزاعة الحقل، ومن ينصب فخا لاصطياد أرنب مستهتر، ومن يبث اللغة المومس في كلب الحراسة، ومن يعلم الجرذان كيف تنقض الخشب في السد، وكيف يتقي القنفذ بالشوك حتوفه، وكيف يمنع المخربون عجلات الزمن الدوار من سباحة ضد التيار. شفرة عصية الحل بها تستر المركز عنوة على نذالة الأطراف. حرفة نفخت الروح فيها أيها القراغول !

القرمطي :

سألته عن وجهة هو موليها ففر هاربا مني كأني عامل الكوفة. لا باس علي إن يكن في فلك العراق خمسة نجوم خرجت من رحم البصرة ثم اتكأت على جدار رجل مات وما في جيبه طوب ولا رمل تخمر لبعض الوقت في مدائن الإسمنت. للهارب قلت واعظا : "إنك إن تمت لموت الأهل والأنصار لابد وأن تنزع من قميصك القشيب أسماء الصعاليك وألقاب الملوك الناضجين تحت نار فترت حماسة اللهيب في ضلوعها، وتستجير رجلا فوق ضريحك يشيد قصور الطين للعمال والفلاحين.

لقمان :

عمدا مزجت الحكمة السوداء بالبيضاء. كان ذاهلا كنعان عن حفيده الأسود. كنت رازحا تحت غبار الحمإ المسنون والصلصال حين خرجت يداي من أصابع القالب في رسغيهما كينونة نيئة. فقال لي لقمان : "يا بني لا ..." وفجأة تجهم الأفق حتى حجبت سحبه السوداء زرقة الأديم. قلت : "يا لقمان، يا معلمي ! لأنني تعبت من بشرتي ومن حروقها ومن إيقاعها الأبرص فاستقالتي من القناع (ساميا وحاميا) قد فجرت علي جام غضب بأنكر الأصوات. لا معنى لزرع الأرض بالألغام. حيث يفقد الأعرج رجله الطبيعية لا يجب أن يلدغ في الرجل الصناعية مرتين.

مهيار :

هي إذن بيتك يا مهيار ! هي امرأة كثيرة الفضول. بين رجل تحب أن يحبها، ورجل يحب أن تحبه يقع بيتك. فلا داعي للسؤال عن ماهية يسوؤك اختراقها، بل الملح أن تكون صورة الإعجاب في الإطار والإطار في مسافة تستوعب التوازنات المستحيلة من الداخل حتى قشرة العنوان. أنت الناطق الرسمي باسم من بنوا أبياتهم في شهب، ونصبوا كسرى على إيوانه باسمي وباسم شاعر وزع ظله

على الشيء ولما كسب الرهان في أول شوطين توقف. إذا أحببت يا مهيار ! كنت بصريَ الكليل. كنت سمعي الأبكم. كنت قدرة اليد الذي تبطش بي.

الموبذان :

الموبذان كلما اشتعلت النار برأس جبل، مسد ظهره بها، دعى إلى قداسه المجوس. هل تقوم من بين الإناث امرأة لها من الجرأة ما يدفعها إلى التبول على الجمار بالمقدار كي تحفظه من الخطايا السبع، كي تحفظ ماء وجهها الأسفل من عذرية تلتهب الأملاح في إفرازها اللزج ؟ تولد الأهاجي من مروق السهم من قوس إلى وتره. عليه أن يراوغ الكرة من بقيت الكرة في مرماه لا تبرحه. أية جدوى للمحاباة وفي الجسد آلاف الجراثيم التي تطفئه مهما توارى في الفساتين وفي الأجنحة البيضاء ؟

النوبي :

محارة في جوفها اللؤلؤ واللؤلؤ في النيل وفي النيل الحكاية وفي الحكاية القفل وفي القفل الحراسة وفي الحراسة المفتاح. كم حذرتني من هذه العمارة المومس ! كم حذرتها من ساكن في شقة مفروشة سقط مخمورا على عرائه من شرفة في الطابق السابع ! فيك أيها

النوبى سر النوم يقظان، وفيك حارس يسمع ما يراه أو يشمه منقاره وهو يفرز تراب الأرض من حباتها. عصر البطالسة وشم وكتاب وبقايا نزق من فكر "فليون" . إذا سمعتني رأيت سمعك، وإن رأيتني رأيت موتي آتيا إلي.

والبة :

أتخمت بالفتات شاعرا تمرد ـ تمرغ على الخوان كالسنور. هل أتخمت شيئا غير ذاكرته ؟ ممن تعلمت التواشيح التي علمته نشيجها المر ؟ تعلمت أنا من ألق الأصداف والمحار ما قرأت طالعي به. ودون أن أنزه الشاعر عن شعوره باليتم نبت عنه في ليلة أنس. صغت من كلمة كلمة سكرت من تردادها. وتحت تأثير المقاطع القصيرة صحت جبته الحرير في المشجب، من ذهولها لبست الحذاء مقلوبا. ولما وضعت قلادة في جيدها، اطبقت القلادة ـ الطوق على الجيد، روت رواية مشنوقة.

يافث :

كان على "يافث" إذ شيد صرحا من رخام أن يواجه الذين أفرغوا وجوده الظاهر من معناه. فعلا، فصلوا ريش جناحيه عن العظام حتى يشبه الرخ الذي سكن في أسطورة لم يبلها الزمان. قد

تشكل القرميد والزليج والفسيفساء من ثمالات الحصى، لم ينس تفريخ اللغات الآريات من جلود الوشق والفيزون، واكتفى بنوح وبما لبسه سام وحام من عيون البقر الوحشي والظباء. لم ينس على شواطئ "الدانوب" أن يكسو عريه بفرو الفهد، أن يكسوها (عروسه) بعطره الفطري.

ختام

لوثت أسماء شخوصي برضاب الصخب الباذخ والصمت، (الدناصير الخنازير القنافد الوطاويط الخطاطيف الغرابيب الصراصير) وسلطت عليهم إبر الفرشاة : منهم من تنسك كعراف، ومنهم من تقرب إلى النار، ومنهم من تطير من الماء، ومنهم من تأسطر، ومنهم من تورط مع النملة في الصرح، ومنهم ست حسن هي للمرآة مرآة، ومنهم صاحب الشنب والشال، ومنهم ميت نقل قبره من القمة للسفح، ومنهم سادن بباب وجدة، ومنهم فأرة السد، ومنهم عاقر راودها جنينها عن نفسها فاقتنعت به، ومنهم بائع الموز لهواة التزلج، ومنهم عاقل محترف خالف سقراط، ومنهم عاشق شيخ، ومنهم شاعر مدجج باللغة البيضاء.

فاس، 1997.5.5

من أعلى قمم الاحتيال
فاس

I
احتفاء برماد المملكة

(1)

مدينة اليوتوبيات أنت يا من شيدت في "مجمع الدولة" لي بيتا من القش، وعشا للمسنين من النسور في قمة "زالاغ"، وغابة من العوسج للتيوس في "ويسلان". ههنا على أعتاب سجني الحجري ضايق الفراغ صوت الشعر. (أي عامر يسلم من خوائه ؟) لم ييأس الشادوف من سحب مياه النهر للرحى، ولم تستسلم الريح لضغط النزوات الفلكية وقد جرت بما لا تشتهيه سفن تخطب ود البحر.

(2)

أزقة يحيل بعضها على بعض، وأطلال مطلة على زمنها الأغبر من فوق المآذن. بأحجار الكهوف والمغاور تؤثث المقابر شواهدها. علم "بروميثوس" الأجنة صغار السن كيف يسرقون النار إن ملئت الأهراء بالبصل والثوم وجوز الهند والتين المجفف وبزر الفلفل الأسود والزبيب. (في اجتماعها لجلطة الدم شفاء) تتزاحم على صفحتها الأنساب (يا شجرة لحاؤها مخدر وعشبها مهيج للدمع) منذ أن بنى العصر النيوليتي أهراما لوأد التاريخ.

(3)

"رأس الجنان" قبل آدم تمرغت على صفحته الأسماء. أبجدية سقيتها ذوب رحيب القنب الهندي والنعناع والحرمل حتى سكرت وما صحت، وكان فانوسي على مشكاته يعمل بالغاز النشيط وبقايا بصري الكليل. ماذا لو أقلته من الضوء، وماذا لو توليت مهمة تعقب نحاة ومهندسين أفذاذ وأخرجت كنوزه المحجبة من غيابة التراب بالحيلة والسكوت؟

"درب السفلي" :

بدأ بين طرفي خط ونقطتين،
وتابع المشي على عظام ركبتيه.
أخر ميلاده عن موعده المحتوم،
وشاهد النشوة تقطر من المخاض،
وألم "الخلاص" معقودا على جفونه.
وعندما جاء به إلى الحياة رجل وامرأة
دمهما مستعر بين ولادتين،
مرت أمام مهده إشاعة بيضاء
مرت كما تمر ميعة الفصول الأربعة.

(حاشية)

لا أريد بما أرويه إلا نقشه على حجارة. أمكنة ثابتة وأزمنة متحركة. ويتلعثم الفلك، وتجري المقادير على غير ما أشتهي. في (درب السفلي) اصطدمت الأسماء التي تعلمها آدم بمحدودية الرقم الذي أطراه فيثاغورس. كنت بالاسم ذاتا وبالرقم علامة، ولم يتيسر لي أن أفك الاشتباك بينهما بما قدمه إلي "المسيد" من حيل ماكرة. حارات خلفي وحارات أمامي كلما عبرت الشوارع المحدودبة المبلطة بالحجر. فردوس أمامي وجهنم خلفي كلما تعلقت عيناي بما كتب على جبين الأضرحة والزوايا. هل الأشباح هي الأخرى تتبرج لي كمومياء. هل تقتفي أثر خطاي ؟ لا أدري إلا شيئا واحدا هو أن أرومتي تقاطعت مع أنساب تاريخية، إذا استعان أحدها على تخدير شجرته بمسحوق البابونج، خدرها ثان بأعشاب مسيلة للدموع، وثالث بمبيدات طبيعية، ورابع بحقن الأنسولين. كان علي أن أحمل علامة في جسدي تقربني من (درب السفلي) ومن ساكنيه.

(4)

في البدء شاد "سيدي العواد" عرشه على جسرين عائمين : برزخ له، وأرخبيل ضيق لامرأة يحبها تعلقت بملك الجن الذي علمها السحر، وعلمته كيف يغزل الصوف خيوطا : "كنزة" لها ومعطف له. سوف يموتان معا، ويخرج الرثاء والهجاء من عباءة القنفذ شائكين، لا يقترحان ضحكا ولا بكاء. لا يغيظ العاهل الباني شيء قدر ما يغيظه عبور شمس الصيف بالجسرين دون أن تحيي إمارة بها من اليواقيت كفاية لحلية نساء الأرض.

"درب التويمي"

تحلية لملح دمع العين،
أضحك بالرثاء ما أبكيه بالهجاء.
زمان صورتي مكان ظلي،
وحجم حبة من الرمل بحجم الماء.
أيهما يملأ بالتراب جفنيه ولا يصل،
ويسبق الظل الذي تجاوزه ؟
بين مجاز النار واستعارة اشتعالها،
وفي امتداد طرفين خارج المسافة.

(5)

يعج باب السوق بالإماء : من جاءت من السودان فلتعد إلى "زيوس" والنيل، ومن جاءت من القوقاز فلتعد إلى بلاط جانكيز، ومن جاءت من الصومال فلتعد إلى فسائل الذرة والصمغ، ومن جاءت من اليونان فلتعد إلى جبة سقراط، ومن جاءت من الأنتيل فلتعد إلى الطبلة والمزمار ! لا يحتمل السوق سوى قططه السياميات

(حاشية)

كان علي أن أعبر قنطرة الرصيف محتالا على غضب الرياح وردود فعل الغبار. وحيث تهادن القنافذ الجنادب، تقوم إيالات تضع على رأس كل فرسخ هشيما يحدد المسافة. يتلوث العابر بالأشواط ولا يعنو لقدميه خط الوصول. وفي سيدي العواد (درب التويمي) أدركت كمالي. لم أحاوره بأشمائي، بل بحالات الطمث الفلكي المحفور على ناصيته. عجز النائحة المأجورة عن تشفيف الحزن كعجز الساحر الجوال عن فعل الخوارق، والضاربة على الصنج عن تبسيط الإيقاع والعقاقيري عن إيقاظ الهمة. يصّمت الحبر في قصاصات الجرائد إن استعملت للتغليف، لذا لا يبحث عن دلالة الأسفل والأعلى في مخيلة المكوك كما لا يبحث عن خيوط حكاية في بشرة بيضاء لا يكتب على نصاعتها وصل ولا هجران ؟ هنا أدركت أن الجسد الرث أدرى بمعرفة أقصر السبل المؤدية إلى تدميره. أدركت ألا غنائية إلا في الممتلئ بفراغه. أضرحة تيجانها أرنبة بيرق، تمتطي حصانا ساميا سرجه حامي، تحتكم إلى حصافتي شاعرة بضرورة الاعتراف بسقوطها أمام قديس مثاليته مملة. ومنذ البدء عجزت عن تفسير انقراض الحشرات والقوارض بكرامة قبر ورياء ساكنة.

والقوارض وبعض الحشرات وكلاب الصيد. كان أهل "تومبكتو" من النساك تجار رقيق يتحكمون في الأسعار حين يرجع الشارون من أسرة التجريب في "القطانين".

* درب البركة*

قديسة راتبها الشهري طمث سري،
تخصم منه كل يوم بوصة.
تأذن للممسوح أن تكشف عن زغبها المفتوح.
عليها أن تنكر ما تلد من أطفال،
لأنهم من نطف مشتركة،
وأن تعود لخيار قطة تأكل من لبنها.
لا يملك العطش والري فما مفتوحا
يشفي غليل رئتيهما من السراب.

(6)

أطلت النساء من نافذة شباكها الضيق لا يقبل زائرا ولا يرفضه، وكن مثل المومس البتول تعترف في الهيكل. كان "الزنجفور" ملكا سبق أن حذر "سيزيف" من الصخرة. ناب عنه حتى أشفقت من حاله الصخرة في الصعود والنزول. أسراب بغايا باحثات عن قشور الرزق في دور الدباغة وفي "القيساريات" والفنادق، اعترفن بالذي تفعله المخللات بالشهية بفضل الفصد والتلقيح. من يقتسم الإرث الإلهي معي عليه أن يقدم اعتذاره لهن، أن يخجل من بقية الأرق

(حاشية)

وفي القطانين (درب البركة)، لم يكن في اللغط سر اللغة. يسكت الزمن وتتحدث النخاسة. إشادة البائع مقابل توجس المشتري. اختشيشان سرير التجريب الليلي. يستعر الامتصاص المتبادل بين العرض والطلب. لبنات السوق المنتزعة من جداره صالحة للرجم ولا ترجم. تتسع الكوى. لفرار الجرذان القارضة ناجية بجيناتها رافضة كذب الممارسة. المسبية بتول أزلية وبتول أبدية. كسرت قانون العزلة التقليدية. راود طيفها السيال الكتابة والمخيلة وغضب اللغة وتذمر الذاكرة. فسخت عقدة ما كان وانسجمت مع ما يكون من استدعاء تاريخ السبي. لم أتصور أن لقاء حميميا يمكن أن يتم في فضاء مشروخ طرفاه متقاربان إلى حد الفضيحة متباعدان إلى حد التستر. ولولا تداخل الظلين المشاكسين، ولولا الإيماء المزدوج، لكان من العبث أن أقرأ السرائر من تشنج أساريري. المهم هو بكارة الحس.

في عينيه، في اللحاف والسرير.

"درب الزنجفور" :

معربدا أخطر مثل سرطان البحر.

برفقتي زعانفي وأرق أفيوني.

أختال طائرا بملء قامتي.

أنقذني من لغة تمتص نصف صمتها،

وأفتح الحوار :

– من أين أبحث لنهر الخلق عن مسارب ؟

– فتش عن الطفولة !

– حرك جذوعها، وخلخل تحتها التراب !

– ليس على الرخام أن يمنع نبله عن النحاتين،

– ولا على الرماد أن يسلم من كابوسه الصيفي.

– من حال بينك وبين جولة على ضفاف النهر ؟

– صفصافة لحاؤها نجا من الحريق،

– ونوتي سقط شعره ولما تمتليء عظامه بالريح.

(7)

بهـذه الـدروب والأحـيـاء يجـري بعض أهل العلم تـرقـيع البـكارة، (إلى الرشـد يفيء جسـد مستعـمل) (من أين للـخناث بالقـفـز على الحبلين ؟) يخـرج الأجنة الذين اكـتـملت صـورهـم رؤوسـهـم مثـقـلة بالدم من قـواقع الـسـلاحف البيـضـاء. كـيف يخـرج القـاتل من جثـته المقـتـول ؟ كـيف يتـودد الرضـيع بـاكـيـا للثـدي دون حـلمـة ؟ وكـيف يجـهض الحـفـاف سـهـل "ويسـلان" ؟ وكـيـف تتـسـتـر على الرمل العـقـارب ؟ وكـيف يبـعث الله على رأس ثلاثـمـائة من السنين وطنا لشاعر من أجله ينعت الظلال والخضرة والألوان. يا معاصر الزيتون ! يا زرائـب الأرباض ! من منكـن مـهـد النار والنور، ومن منكـن زبدة ضروع البقرات السبع ؟ في كنانة الجدات أعذب الأحاجي الدافئة.

(حاشية)

وفي الزنجفور (درب الميتر) ثمت قمة وسفح. في السفح حمامات، وفي القمة قصور وقلاع. وفيه ثمت عشائر بيضاء وأخرى رقطاء. فضاء ممتاز للبحث عن المغاير. الخلاسية تدبير جيني غير مكلف. تخلو النساء صباحا إلى الأعباء المنزلية ومساء إلى إعداد أجسادهن للتشهي. يخلو الرجال صباحا إلى العمل والكسب، ومساء يتيح لهم "الفداوي هروبا مؤقتا من كيد النساء. يمارس الجد في الأسافل والهزل في الأعالي. رجال ونساء جرمهم وجرمهن بمقدار ما تتسع له المخيله. ملكوت دسم لا تسعه إلا صدرية واقية من الرصاص وأورام الكذب. أنا الجريء. أنا المكسو بعرائي، بقيم العناد. ليس لخيارات الصوت مفر من امتلاء فراغه بالمعنى. وليس لي إلا أن أبحث عن فراغ الملاء علني أنتصف من مجيئي إلى العالم مكتوف الأيدي. من عادة فصل الشتاء أن يجمد قطرات المطر على أحجار "الزنجفور" يفتت رمادها كما لو أنه قذيفة لا يزال دويها حيا في الذاكرة. في مثل هذا الفصل، تصبح المواساة هدهدة صقيعية. ليست عزلتي أن أكون بعيدا عن الآخر، إنها في القرب منه. من يجيرني من كل العلاقات المالحة العنيفة الصاخبة الخرساء ؟ تتقلص رحابة الفضاء كأنها خارجة لتوها من اللا زمن حيث السديم المطلق. أنا الصاعد النازل. أنا العابث الذي شاهد سقوط وولادة كثير من الممالك. علي أن أبحث عما بعد جوع يحسب في الشبع كينونة. ولأن أتدحرج من القمة إلى السفح بإرادتي خير لي وأبقى من أن أعرج إلى الأعالي من الأسافل بواسطة حبل سري. كيف طرت وكيف وقعت والجناح مهيض ؟ هذا ما لا يستطاع قوله إذا قيل.

II

انحسار الماء عن الناعورة

لعل الصخر قبل نضوجه استعصى عليه الماء. غير حجمه الموروث. سوء الظن غير الظن " سيال يراوغ جامدا. ولدى اختلائي بالغريمين استعدت نضارة الحقب التي في الصخر. عبأت الأصابع بالحدوس وقلت للماء : "انهمر" !

جذوة يا دم التراب ! أرى الأرض خلاء وفي جوارحها الريح. لنفسي فجرت فيها عيونا وسيولا خربت ما زاد منها عن فراغي. التمست منها رذاذا : ألف متر مكعب. أيها الصخر تمسك بضفة النهر وانشر فوق حصبائها غسيل خيالك !

إني لأشربه في الدن. أشربه من حبل سرته الصادي، وأشربه في قربة الخزف الصيني. أشربه بالطاس والكاس والقطران. أشربه من منبع النهر. يا من مر بي ويدي صفر وفي قدحي ماء، إليك دمي استسقه طمعا في ريه الكاذب!

متى ما كرعت الماء من نبع صخرة، سرى لي منها طبعها الهش. يا لها إذا أخرست صوت الخرير، ويا لها إذا أنطقته. صخرة قد توكأت على الصمت حتى لا صدى لهسيسها، إذا لامستها جذوة النار فجرت على غضبي ماء إلى النار أقرب.

جذور الينابيع تدفن في باطن الأرض أسرارها. باحثون احتفوا بالجيوب العميقة، واشتغلوا باكتشاف المغاور في الطبقات الرهيفة من قشرة البر والبحر. قلت لهم: "إنكم كالنسانيس من طيشكم يهرب الماء من جلده المتوتر".

بتبخره طافيا، وتقعره راسبا، وتيبسه سائلا، وتسايله جامدا، ينتهي الماء بين يدي، سواء تخطى منابعه أو تحربأ لون الإناء به، أو تبرج لي وأقام الشعائر من منبع النيل حتى مجاري "سبو". لن أقدم بعد القرابين حتى يعود إلى الماء "وادي الجواهر" ؟

III

هروب الظل عن الصورة

نذرت مشكاتي وما ينوس فيها من بصيص الضوء لليل لكي يظهر ظلي آية الشمس عليه. ما أراه هالة يراه غيري قبسا يخبو ويلمع. أكيد أن ظل الشمع انصع من الشمس، وظل الكهرباء غائص في بؤرة النصاعة المفتعلة.

كلمني الظل بما كتبه منعكسا على الحروف، فأجبت مرة بوضعي النقاط والإيماء والرمز على هامتها، ومرة أخرى بما أبصره ولا يراه. سبب النكبة أن لغتي حافلة بصمتها. قلت له : "اقتبس بهاءك الخفي من فصاحة المدى وأرجيء التنويه لليوم الذي تكبر فيه الشمس".

لونان للشمس وللظل على الجدران. أين يجد العمران من يضع في خلاطة الإسمنت، في مقالع الأحجار، في الخشب والحديد والزجاج حرفا من اساميه وظلين له ؟ تزدحم الأسوار بالخيوط. تقطر الرطوبة من الآجر والجير. تسرب الصدى إليهما وخرب اللونين.

الليل ظل للمكان حالكا وناصعا، وهو عضو زائد عن اللزوم يتبرع بإهدار دمائه لتمويل مناحة تقام لنهاره. مسار الظل من صوف المخدة إلى أحلام رأس يتوسد المخدة. وبعد اليوم لن أطفيء نور شمعة تؤنس حوض "جامع الحوت" ولن أقدح في هاجرة يصرفها القيظ عن اقتفاء ظلي الراحل.

IV

العنكبوت الأخضر

حَدَّثَنِي عن أزمان دارت للخلف. ابيضت عيناها الخضراوان ولم تقلع عن عادة تصدير الدمع إلى توتات خضراء اصفرت، وإلى نارنجات شهباء التمست أعذارا للون الأبرص يسري فيها. من أجل محاباتي سارت خلفي وأمامي.

يغريني استخلاص اللون الأخضر من ورس أصفر. معنى عشبي بين الشيئية والتشيئ. "جنان الغزلان" استوفى دينا عينيا من صمغ الأشجار العملاقة، لم يأخذ مني إلا رمزا كيميائيا في نصف معادلة. ما زلت مدينا للناطور الأعمى باستفساري عن فشلي في تحضير الألوان.

لما تخضر العوسجة المذعورة في البستان، يكون حصاري المضروب عليها تخفيفا للضغط على سيقان الدفلى، وعلى فاكهة تأبى إلا أن تسقط فوق الأرض المصفرة ناضجة معفاة من أثقال تحملها عنها الأغصان الخضراء.

الخز الأخضر حد يفصل بين المستنقع والنهر الرقراق. مباشرة بعد استيفاء شروط التشكيل سأوحي لي باستخلاص الحكمة من فص خزي في خاتم مجنون مر على "جامع عين علو" مبهورا بخدوش في ناصية الأحياء النهرية والقيعان النهرية.

V

إعادة سبك الشظايا

كسرت المدينة الجرة فوق رأس حاملتها العذراء حين أخطأت طريقها إلى لقاء عاشق يأتي إلى البئر ولا يشرب. (حزنه على الجرة أقوى منه حزنه على حاملة الجرة) من عادته أن يتلصص على المياه والألوان والظلال ما رأى عليها وجهه. مؤرخ محترف دون في أوراقه الرثة أن عاشقا أعاد سبك جرة شظية شظية وما استطاع أن يعيدها إلى بكارة الخلق، لذا التمس تعويضا لها : جنية تخرج من أنبوب "عين الخيل" كل ليلة ليلاء.

(حاشية)

مـؤسس المدينة أرادها على الماء فكانت الآبار والعيون والأنهار والسواقي والفسقيات. وعنقاء المدينة أرادتها على اللون فعرش في الأرباض نبات رمادي. والشاعر أرادها على الظل فتبللت بالشمس الباردة أردانها. والمؤرخ أرادها على النخاسة فشبت في أحضان لاعب أراجوز. من كان أسبق من هؤلاء جميعا إلى النجاة بالنسخة الأصلية مطلة على الربوة الدائرية، تتابع تداول الأحداث ؟ مؤسس يحترق في جلد عنقاء، وعنقاء تتبرج في إهاب شاعر، وشاعر يختال في غلالة مؤرخ، ومؤرخ وحده يتقبل التهاني والتعازي على ما فعل بهذا الكتاب الأبيض.

Nota

Pour le Fondateur, la Cité aurait été une pomme, maigre et indigeste sans la générosité des sources riveraines. Des collines olivâtres penchent sur ses remparts qui, suivant le cours des saisons, échangent, par alternance, les gammes de la verdure contre une teinte alluviale. La clarté de la chaux cache la misère de l'argile brute. Faut-il, par ces taches murales, prostituer la médaille pour rendre convertibles ses deux faces ? Une telle besogne est au-dessus de toute volonté. Le Phénix lui, croit que l'éternité lui appartient, car avec quelques graines de certitude et peu de refus, il attribue la réversibilité du moment à la fixité de l'instant. Et sous l'ombre de la chaux et de l'argile la vie, offerte ou méritée, collecte sa solitude en croyant à de vagues promesses. Bizarre toutes choses ne disant leur vérité que par derrière. Celui qui pilote un bimoteur, n'a qu'à accepter les caprices du ciel. Dépravé et dévot à la fois, le Poète se sert des paroles de cire. (mi flambées mi éteintes). D'un côté il y apaise sa tyrannie de funambule, et d'un autre, il s'y assure sa neutralité. C'est ainsi que, bénis par des élégies versifiées, les sanctuaires se trouvent fades dans la chaux et l'argile. La lucidité apprivoisée dévoile la fausseté de toute œuvre métissée. La pudeur comme signe, la ténacité comme tatouage et la crainte comme symbole n'ajoutent rien à la sainteté des mausolées aux voûtes arabesquées. Tant d'épîtres sont apocryphes.

Fidèle à l'héritage hérodotien, l'Historien a toujours choisi les grandes places pour y installer un état-major, un arsenal et des propositions de trêves. Identifiées par des témoignages de stratèges, les archives supportent le poids d'une interprétation si terrifiante que les questions embrassantes posées par la chaux et l'argile ne révèlent qu'une aberrante surdité. Au lieu d'interroger les eaux, vives et rares, on accuse de paresse la rotation de la noria. Que peut-on dire de cette Cité d'architecture bibastique alors que le marbre et le plâtre ne sont que le reste d'une mysticité temporelle ? Les tombes ne conservent que leurs épitaphes. Outre le plaisir proposé par les légendes des catacombes, une sensation d'outre-tombe couvre le non dit des ruines. Des âges que perturbent une enfance chargée d'une maturité avant terme, succèdent à une frivole vieillesse. Ainsi se stratifient les couches du destin de la Cité. Et si la courtoisie et la désinvolture manquent leur rendez-vous, il n'y a que le Mellah qui se présente comme l'unique lieu de convergence, là où les ethnies savourent leurs différences. Attrayant est donc tout ressourcement n'est-ce pas ?

VI

سور المسقالة يفضي "لأبي عجارة" والنهر و"باب الحمراء"

ثلاثة من المشاغبين كان السور قد خر على رؤوسهم من فوقهم تساءلوا عمن سيبرئ حواس الأرض من ضيق التنفس إذا تداخل السؤال في الجواب. هل يجبر سور الصين بعدهم على دعم الخرافة، وهل يعاد سبك السور يا برلين ! (ما لمعت الشظايا في متاحف الفضاء حتى ذبلت) من غيرهم يطوق الجنائن المعلقات بثلاثة من الأسوار ؟

تحسس الثلاثة المشاغبون ما على رؤوسهم من أثر الغبار والطين المريني المؤسس. ولما مزجوا عرقهم ودمهم بالسور، كان كل رأس يتلمس طريقه إلى كاهله وكتفيه ثقة بكل ما نسبه مؤرخ محترف من الخوارق لهذا السور.

حوارية أولى :

– موعدنا تحت السور.

– عند مصب العين الثرة في "ويسلان".

– مأدبة أفلاطونية.

– وإليها يدعونا "نيتشه".

– من قبل تسلى بالألفاظ "زرادشت".

– لابد من استحضار الروحين.

– من مخطوط مخصي من حبره.

ضبط الثلاثة حالمين على أسرتهم ومنهمكين في ترميم صدع السور بالأشعار والألحان والأفكار. بالخزف الذي فيهم طريا لا يزال.

تزاحموا. هرعوا إلى السرداب مذعورين كالقطط العجاف تموء من شبع : فواكه بيضوي شكلها اهترأت كغيس الأرض. ما كادت تلامس ثغرهم حتى تلاشت. لم يحسوا بامتلاء قبل هذا اليوم.

يراعة الشاعر بالمنقار كالنسر، وبالأخفاف كالحدأة الحبلى، وناي الموسيقى مثل طول قامة الزان وترجيع وجيب القلب في السرعة والبطء، وعقل الفيلسوف فيه ما في السرخس البري من صرى مكثف يبثه الهواء في غلاف قشرة الأثير : همة بعير، وسماحة سلحفاة، وحقد ثعلب على طريدة تراوغ ذكاءه، وصبر سمك النهر على ملوحة الماء بعرض البحر.

بسط كل حلمه الأبيض فوق وجهه : كان شخير الليل فخما ورتيبا، والأسرة الثلاثة حبالا نشر الحلم عليها. وكما لو عقموا السور بمسحوق مخدر قوي، خرجوا إلى الفضاء الرحب مفصولين عن زمانهم (ليومهم مدى ثلاثمائة من السنين عددا) لم يملك السور سوى أن يتمدد على ظهر قفاه.

تسرب العرفان من أسفار "نيتشة" إلى السامي والحامي والآري :
قراء ثلاثة تعاقبت عليهم لغة كاهنة أثقلها تكافؤ الأدلة البيضاء. يا
"ويسلان" لا تأخذ عليهم أنهم يستجلبون النوم بالمهدئات
والسهاد الحر بالمنشطات، سنهم يشفع للزلة أن تكبر حتى تستحق
عثرة بحجمها. هي أساطير "زرادشت" التي أتعبها التوتر اليومي
تنسحب من جسدها وهي تحت السور.

في جلسة العصر تخلف الثلاثة جميعا عن حضورهم إلى
"ويسلان". كاد السور أن يخبرهم بأن كنزا تحته، وأنه سبق أن رممه
نبي بابل وأوصاه إذا هلك أن يموت واقفا. لغير سبب معين رفض أن
ينفذ الوصية.

حوارية ثانية :

– مسلمات حفلت بالشك.

– وغرقت في حمأة التنبؤ.

– فر المجاز من شفافيته السرية.

– وفضحت كساده القرينة.

– لو أنني نجوت واللغة في جرابي،

– للحقتك لعنة الكلام.

– لم إذن أبدد الحدس على الحروف ؟.

أوتار النهر الجاري خلف السور اختلجت. مذعورا فر قطيع من بقر الوحش، على أرجله عداد السرعة. أبدى الثالوث تقززه من إعجاب تدميري تضفيه الحكمة والموسيقى والشعر على نهر يجري نحو المطلق. خر السور على رأس الثالوث وما لاح الكنز.

هلموا إذن أيها الخائفون إلى السور ! رشوا عليه الزنابير، رشوا عليه عناكب من حجمه، وخذوه على غرة إن تسرب إرهابه للمعاني ! هلموا إليه بما في يديكم من الريح ! إن مرور العلامة منه دليل على بطشه بالبساتين من حوله. قدموه إلي ! فإن كان أقدر مني على السبق أجلسته في الصدارة مثل ذباب الخريف. وإن كان أضعف مني وليته إمرة الكون. في "نيتشة" الشعر. فيه الأهازيج.

فيه من الله ما فيه. تخمينه سائب ومقولاته. قارئ لا مواهبه أسعفته ولا عقله خرب الأرض.

يا أيها السادة يا من تحملون الخوف في أصلابكم ! تخلصوا من سلطة الزمن ! واظبوا على زيارة السور ! ترحموا عليه كلما سكنت الطفيليات جيره الأبيض ! إن تساقط العرق من عجين طينه فلن يشكو من خز الرطوبة هبوب الريح.

VII

ولائم الأبواب والأولياء والأسماء

حامل الأذقان يأتي كل قرنين من الشرق محاطا بالأساطير، ويأتي بعده الراوي بجب وبيوسف شيخ، وبهابيل على ريش غراب، وبقينات ثمان كان كنعان ولوعا بهواهن. (أصاب الشلل النصفي سبعا) وتوالت هجرة الشرق إلى الغرب : رجال غرسوا الأعشاب في صمغ الدوالي، وسعالى ضقن بالأحجار لما صلحت للنحت لا للرجم. أبواب توارت، مدن خلف ضواحيها توارت، نقحت أسماءها من أحرف اللين، وغاصت في دهاليز ضريح لا يمر الماء عذبا منه إلا عبر صندوق القرابين. فيا من بين "زالاغ" و"توبقال" بنى النار على قدر اتساع السفح والقمة ! وسع فوهة البركان، أغدق لهب النار على ساكن صرح بابه سجن وردهاته مبغى !

باب الكيسة :

كم مر من قرن على مقتل هابيل الأخير

وساعة الجدار

شخيرها يؤنس صمت الباب

قريبة من قاتل حفر وجهه على شجرة العرعار،

بعيدة من خيلاء سيفه

وسيفه مرصع بالماس والياقوت.

باب ريافة :

مطحنة الضواحي،

يسيل من تحتها نهر صارخ يأتي ولا يصل غير ريشه.

في عطلة الصيف يحث ساحر إباضي

أطفاله على اقتلاع شجر التوت من الجذور

حتى يبرر عراء الباب في الخريف.

باب السمارين :

صفصافة نواتها شمسية وصوتها مخنوق،

تشكو إلى الباب انخفاض الضغط وانتكاسة العناصر

هي إذن صاحبة الحانوت،

هي إذن بائعة الأقفال،

لان لداوود حديدها ولم يلن لحزقيال.

باب المكينة :

مؤرخون صمموا قبعة للباب

على مقاس جريان الدم في عروقها.

وحينما سلمهم حاجبها المفتاح،

ودلهم على طريقة اختصار العمر،

تأكدوا من أن نهر الموت في "وليلي".

باب المحروق :

تربع المحروق وحده على الخوان،

وخلعوا عليه

كفنه الغيي كي يكبر في جثته المحترقة.
وكان أن البيطري الكندي خادم الأرملة اللعوب،
أقر للباب بما بقي في عظامه من زغب وريش.

.

باب بوجلود :

من دخل المدينة
بجسد حارب مأجورا مع الهكسوس،
من بابها الثيب أو من بابها البتول،
من لحية مرسلة أو شارب مفتول،
قتلها وشيع الجنازة.

باب السلسلة :

من كبرياء "الكير" والسندان،
يلتقط الحداد جمر الحكمة،
وهي في القيود والأغلال
قلادة في عنق الباب وفي معصمها سوار،

كأنما يختار من فصائل الدم دما للنار.

سيدي فرج :

إعرابا عن ضيق "بالغاسول" وموسيقى الآلة،
ولقالق تبني الأعشاش بجامور الصومعة المنسية،
مر الحمقى من "سوق الحناء" عرايا.
وكما لو كانوا فخارا عضويا،
أهدوا محصول تجاربهم للعقل الآتي.

سيدي احرازم :

من عادة زيتونات أبكار
أن يرشفن الماء البارد،
سيالا من منجم كبريت ساخن،
إذ لا يكفي استرسال البث إلى منتصف الليل
في تعويض النقص الحاصل في التربة.

سيدي موسى :

كل المدفونين قريبا من "درب الغرباء"،

فروا من موت، بعد حياة ضمنية،

إلا شيخ طوراني مكبوت

بالعمرين الأعلى والأسفل

عانى الموت وما مات

سيدي أحمد الشاوي :

سلطان الجن،

مجبور عند النوم على تشحيم حبال الديك الصوتية،

حتى يجأر بالشكوى من جنية

تمطيطا لليل،

عادت بالفجر الصادق مسحوبا من ذيله.

سيدي أحمد التيجاني :

لاستئصال بثور الدمع

من عينين تقنعتا بلثام الصوف،

في الماء السائل من حوضك،

ما يكفي لكتابة أوراد قداسية،

تتلى بلباس إفريقي.

سيدي علي بوغالب :

وحيدا في حفلة إعذار كان،

منهمكا في تقليم أظافر طفل أُودِيبيّ.

منهمكا في ترقيع فحولته الآتية.

منهمكا في تأجيل الفتنة

حتى يوقظها موت أبيه الإغريقيّ.

سيدي علي مزالي :

مد الناسك للمومس

طوق نجاة من تصميم ولي مسحور،

لحمايته من سوء السمعة،

ووقايتها من دود العذرية.

لولا الناسك ما حابى الطوق المومس.

مولاي إدريس :

يأتي الثور طواعية للموسم،

قربانا يمضي مفصولا عن قرنيه وعن ذيله.

في موت الثور حياة "للماتادور".

في موت "الكوريدا" وعد بحياة في موت :

موتان على أنقاض حياة وهمية.

ويسلان :

خرجت من بخار الدخان الضفادع.

صعدت درج الليل وانحدرت

نحو باب المدينة،

وارتخت كارتخاء السلحفاة في الحلبة.

لا عليها إذا استبدلت بالنقيق صراخ اللغات

بوعجارة :

سارق النار من جمرة العشب،

يختلي بالعقاقير حتى تقر له بمعاني الرموز،

جاءه ملك كسرت شوكة الريح جمجمته،

فأشار عليه : "اتخذ قشرة القرع جمجمة واخلع التاج !

سوف يهدي الطريق حنينا إلى رجله وإلى خفها.

الزربطانة :

أول القلق المتمرد كان هنا.

دمية خنفساء هي المائدة،

سحبت من ضفائرها الطحلب المتخثر.

عنيت باقتناص الرطوبة من جلدها الخشبي

واستقالت من الساعة المعدنية والماء.

•

طريانة :

شيدوا برذائلهم وفضائلهم مملكة،

من عفاف الصخور التي اقتلعت من تلال "سبو".

بعدهم ظل أهل المدينة يلتقطون

من جنائنها عسل الرمد الموسمي،

مثلما التقطوا من مزابلها زغب الملكة.

جرنيز :

بين بابين موصدتين

ههنا تبدأ المعرفة.

رجل من "سدوم" يقد الصحائف من دبر والكتب،

وهناك مولدة تضع الشمع في رحم امرأة عازبة

كان بينهما قمر ساخرا يتجرد من هالته.

الصوابر :

في جحور مرينية نحتت في المغاور،

لا يرى في الظلام سوى جسد امرأة عارية،

مرة كلعاب البنفسج،

ربما هي أصغر ـ أكبر من سن "راحاب".

لاصطياد الفراشات يوقد ضوء المصابيح.

عقبة الفيران :

أقر ناب الفأر أن هامش الجنائن المعلقة،

مقبرة للضوء فيها شاشة عمياء.

وبعد أن خرب أعشاش اللقالق ودك البرج،

قيل له : "لا تربط العقبة الكأداء

بالسد حتى تتماثل مياه السد للشفاء.

شق بدنجالة :

"فالوب" إذ شق قناة امرأة نصفين،

وعلم الممرضات الكشف بالصدى عن الجنين،

فاجأه العقل بجنس ثالث،

بالحلقة الوسطى التي تدجن القشة للبعير،

ودله على ارتفاع نسبة الزبد والرغوة في المشيمة.

واد الزحون :

لآخر مرة كنا رأيناه على فرس يمانية كفيفة.
وشاء الحظ أن يصلا إلى المنبع،
على أعتباه افترقا فراق أحبة أعداء.
ولما قسما الميراث بينهما بغير العدل والقسطاس
خصمنا منهما سنتين عمدا كي يعيشا.
بقلب في مضخته النواقيس،
وقلنا : "فليكونا زبدة الماءين" . (عرش الصابيء الماء)
وما إن فاتنا ظلاهما حتى توارينا وراء قناعنا الجلدي،
مزجنا وجهنا بخيوطه الرقطاء.

الورطة المثلثة :

تجريب الخبرة

لم يبق المطلق ورديا في عيني. تفتت. يا هذا ! ما في الصورة شيء يغري باستعراض كمال الجسم أمام المرآة. المرآة استوفت من عمري الأول دينا ماطلها عمري الثاني في إنجاز ثمالته. بندول العداد توارى مذعورا في الخانات السفلى، لم يجرؤ أن يصعد.

(مخطاف في رأس العداد يسمى "نيوتون") مسامير وأقفال وشظايا مطاط ومقابر سيارات. وشواهد جبانات : زليج منقوش في السطح وهامات فارغة في العمق. الآن، الآن اخضلت ذاكرتي. همت أن تنقذني من هذيان لازمني في العمرين. بعنف أرجعت إليها كفيها وتوسلها، واستمتعت بعصياني وشماتاتي بضحايا القمة والسفح.

العبور إليها نزوح

لماذا تخطتني المدينة طافيا على السطح ؟ يالي ! معطفي الصوف كلما تبلل أعفاني من البرد. ها أنا وضعت على رأسي يدي، وعلى يدي أكاليل رمل. هالة الشمس في دمي، لسوف أداريها وأعلك نورها بأجنحتي. (طي المظلة نشرها) أحس برأسي دون حجم مخدتي، وحجم سريري كالمدى. محض صدفة تماثل جرحي للشفاء وليتني تخطيته، حتى إذا صرت أرنبا، وصار سلحفاة تثاءب خطونا من المشي. هل تبلى العظام لأنها زجاج ورمل، أم لأن قشورها ذرتها الرياح الموسمية . هذه عيون ذرفناها مع الدمع. هذه كراس ركبناها تنوء بحملها.

عرائي وخوفي لا يليقان، إنما تشاغلها عني... تنبأت مرة برجلي في خفي وصدقي في فمي، فما خف وزني. آه لو أن شوطها أمامي وخلفي كي أسابق ظلها، وأنجو مني. أيها الليل آوني إلى جبل عار لأنحت صورتي وصوتي على أحجاره ومغاوره.

رائحة الأصوات :

سوف يحدث شيء إذا اقتحم العابرون المدينة. بعد العبور سينتزعون أظافر فزاعة الحقل إن كشفت بصريح الكناية عن حطب يابس في حقيقتها للعصافير. يكتمل الوشم كالبرص الهرمسي، وينشر فوق جباه المدابغ و"القيساريات" والفسقيات الصديد. ألا ليتهم علبوا الصوت في باقة من زجاج ورصوا صداه المشاغب فوق رؤوس المآذن ! شيء من الخزف الفارسي، وتبنى اللغات من الخز والكلمات العوانس. من سوف يملأ أمعاءها بالتوابل ؟ تصحو الأحياء المأهولة من نوم يتثاءب : "سوق السباط" على صوت "الدلال"، (الأسعار الفصحى تنفخ في الأرقام الروح) و"رأس الشياطين" على صوت "البراح"، (السيبة لا تأتي إلا من أبواب الشمس) و"باب الحمراء" على صوت "الراوي"، (الإلياذة في سيف

علي ورؤوس الغـول) و"سـوق السلهـام" على صـوت "الكراب" ، (الماء يداري الناقوس بحبـات القطران) و"عين البغل" على صوت الطراح، (الخبز المحمول على اللوح الآن، غدا محمول فوق النعش) و"رأس التـيـالين" على صـوت "النكافـة" . (ليل يمضي في ترويض الدمية للاعب) واضيعة معنى المعنى في صوت معياري مجبول من كل لغات العالم !

تطوان ـ فاس، 1996.7.16 ـ 2000.9.23

فهرس المحتويات

احتياطي العاج 101

القسم الثاني

الأعمال الكاملة

الجزء الرابع : الدواوين الشعرية

دفاتر بلقيس

دفاتر
بلقيس

1995.10.1

زنبقة برية غلافها السريّ مثقل بعطر الأرض،
لم تتخلّص بعد من غائلة الطحالب
وصلف التراب.
أؤسّس المملكة العذراء في غيابها
على رشاقة الكلام ورغاء الصمت.

1952.10.5

كينونة كرخويات البحر،
عظامها الهشّة، أجنحتها الخلفية،

ردّت على البحر هداياه بنفس الصيغة.
تعوّدت على امتصاص الجوع
من المحارة التي أوراقها ليفيّة ونسغها عمودي.

1952.10.6

كيف إذن تكفي نجاة واحدة
من عدم فارغة قشعريراته من الغبار،
والغيم طلّه الخجول وابل،
والدّغل الوحشيّ لا متاهة هو ولا طريق،
والريح لا يسع صدرها سوى حشرجة ورجعها ؟

1952.10.9

من ذلك الذي تجرّأ على كسر حياد صخرة
كان " أبو الطيب" في عيد من الأعياد،
طارحها الخمرة والشعر، فما انتشت ولا نبع منها الماء ؟
في هامش الصخرة تمثال، وفي قاعدة التمثال مومياء.
أيّهما بعده التنازليّ يحفظ التوازن.

1952.10.10

من كل هذا الجسد النافر لم ينج سوى الغلاف
من اختلاجه أمام صبوة تسأل إذ تجيب،
فحيحها الظامئ يتّقد في العظام.
بدون هذا الورق الملفوف أصبح سديما نيئا،
بدونه أشمّ رائحة كوكب ولا أكونه.

1952.10.11

أسدلت ظلمة كثيفة على أمومتي العتيقة،
لعلّني عبر ارتعاشة الفراغ المحض،
أميّز الأشعة البنفسجية من الأشعة الحمراء،
ندّت عن النهار والليل، وعن حريق
تسرّبت إليه مني النار.

1952.10.12

لولا زنبقة في إحدى عشرة ساعة،
اهتزّت وربت في إحدى عشرة ساعة،
دلّتني بشهامتها البيضاء على حزن تجريدي،

ما كان الثوب الخاطئ يحمي جسدي من غيلانه.
الثوب الخاطئ من يحميه ؟

1952.10.13

من حق الفستان المغلق تكعيب الأجساد المفتوحة.
من حق الإعصار العاتي تفكيك لغات الريح.
من حق كتاب لم يقرأ نفسه،
أن ينحاز إلى ضوء سرير مدعوم بوسادة :
معذرة إن آثرت الحدس على الحس.

1952.10.20

تخطيط وهمي فوق قماش القطن
لحوادث "باعتني ما أخذت مني من حلم" .
ولأن التعقيب على اللوحة قول مالح،
طالبت قماش القطن
باستنساخي لتفادي غطرسة الألوان.

1952.10.30

القلب أثاث أستعمله عدة مرات في اليوم،
والليل سرير يستعملني للراحة في فاتح مايو،
والغار النازف من قرني ملحمة بكر رأس مقطوع.
صعب إقناعي بنبوّة يقطين ينمو في باب مغارة.
صعب تدجين أثاث أستعمله لسرير يستعملني.

1952.11.1

هذا وجهي الزيتيّ المتورّط في وجه علماني،
لما اقتصّت منه الأوراق وحاباه الحبر السرّي،
ألغى الخوف السهل،
أقعى خلف الباب،
محتاجا كنت إلى مفتاح بثلاثة أظفار.

1952.11.3

البطء خيار حتمي،
وإلى أن تأتيني آلات فصحى بالباقي مني،
أعفي من منصبه الحفّار الهاوي،

وبدعوى تضليل غراب دلّ المقتول على قبر،
أدعو الرفش إلى تسليم مقاليد الحرفة للآلة.

1950.11.5

وكما ينتفش الريش لدى الإحساس بالإثم،
وكما يحتفظ الجندب والخفّاش والحرباء،
بعمى الألوان في المنقار والعرف الأمامي،
يبدأ الصفر طوافه،
يخرج المعنى ضريرا من عيوني وبصيرا من قذاها.

1952.11.9

كنت في مفتتح الجلسة جمّعت الطرائف،
لا لتنصيب قيان فوق عرش الكلمات،
بل لتأسيس رواة بلسان حجريّ، ورواة بطواحين هواء
يتأسّون بتاريخ بعير
ما رأى القشّة إلا ذكر المحنة ظهره.

1952.11.13

قلت للصوت : "سلاما جئت ألقي" قال لي الصوت :

" ألبس السفر الذي تقرأ جسما، ثمّ حنّطه بجثّة.

فالق الحبّة رهن باختيارين :

أن يضخّ الدم حيّا أو يزيد

في عذاب الطين بلّة. "

1952.11.17

ولكي أبدع شيئا من عجين لغويّ متبقّ في الأصابع،

كان لا بدّ من الإفلات من أسر المسافة.

كان لا بدّ لرجليّ من المشي إلى أن يتخلّى في الأقاصي

جشع الإعصار عن تصدير ريح موسمية،

وعن استيراد أخرى من مغارة.

1952.11.18

أرشد الفخّ إلى مأتى الطريدة

بكتاب هرمسي

كلّ آياته قفّاز ورجل، كلّ حرف منه خفّ وحذاء.

ربما أخطأ "هيرودوث" في حق "إرم"
حين ولّى امرأة أنثى على عرش ثمود.

1952.12.30

لم أعوّد جسدي عبر احتفائي به أن يرضخ للرقم،
لخيوط الشصّ رقم، ولترميم شباك الصيد رقمان،
ولصيد القرش أرقام ثلاثة،
ولشحن الوعي بالإغماء ألف.
حامت الأرقام حولي ثم أعطتني دلالة.

1952.12.7

كنت لا أشرب الملح تدفئة للعظام.
كنت أشربه لأنفّذ رغبة ساحرة عبرت نهر "جيحون"
لملاحقة التمر. هل أتورّع عن كشفها لقطاة،
لم تعرني جناحا أطير به وأشيّئه ؟
ذبلت مثل ليلكة. مثل ليلكة ذبلت.

1952.12.11

المسافر معترف بهويته للحقيبة،
تتكرّر في قدميه المسافة ما بليت جورباه.
الحقيبة إثم وصوله قبل الوصول.
الحقيبة أكثر حرصا على عشق أحشائها من جرادة.
ولها بعد ذلك أن تتسلّى بأوقاتها الثالثة.

1952.12.13

في مهبّ نحيب ثقيل،
تصغر العين إذ يكبر الدمع في جفنها.
تستعدّ ثوان قد انصرمت لانتشال هوامشها
من فضاءين بينهما جثّة وئدت
في مقاطع لا تتشكل منها عبارة.

1952.12.15

صورة لتشفّي قطاة شمالية من تقاعد نسر عجوز،
سقطت من عيون مخالبه.
سلمت من نجاة يخدّرها الخوف.

أذعنت لنجاة مؤقّتة في إطار جدار.

وهو النسر مغتبط بالجلال المجازي.

1952.12.19

يتساقط من ريشه المتناثر ريش الخريف.

يتساقط طلّ وقطر ندى.

الحبارى يرتّب أعضاءه وفق ما يشتهي موسم الصيد.

الحبارى اشتهى راحة " بايولوجيّة " ناعمة.

الحبارى تعهّر من ريشه وتعفّف من لحمه المتبرج.

1952.12.23

ينتقي من خزائن أسمائه

لي أزمنة سلفت، وله فرصة ضائعة.

ينتقي لي تاجا من الغار والعشب :

يرفض التاج من تعب هامة تحمله.

يكشف الغار والعشب عن حاطب الليل.

فاس : 1994.4.18 . أوكسفورد :1996.7.27 البيضاء : 1997.8.17

Les Séquestrés

ميلاد وطفولة وكهولة الشيخ الأعمى :

من نقطة حبر في أسفار الشام أتى، وأتت بعد النقطة تعليمات صادرة : أن يعطى مصلا واقيّا من رمد أصفر لولاه لما نظرت عين عمياء إلى شعر نبيّ أسمع صمّا. آه ! طينته عند الميلاد الثاني قلقت لما جبلت مرّات عشرا – في هامش سيرة عرّاب – بأنامل خزّاف ساخر.

رجل أطفأ النور في محجريه اختيارا، وأوقده في البصيرة جبرا. تكلم في المهد. أسند أمر المعرّة للآبسين قشورهم المعدنيّة نيّئة. عقّم الحاء في حلب وحماة وحمص بحاء الحقيقة والحلم. عاد من القبر محدودبا، وتوهّم أنه خارج منطقةِ الجاذبيّة، داخل منطقة المهزلة.

كان يطارد الطحالب التي تشبّثت بعنق القبر ودربوز الضريح وعصا التمثال. (هيّ القيصريّة علاج ناجع للرحم الضيّق) كانت المنشّة التي بيده أقلّ إلحاحا من الذبابة الأمّ، وأكثر طموحا من قناع الغاز يمنع تسرّب الجراثيم إلى الفلك. مرّ من هنا ولم يعد إلاّ وهو عروة في معطف ابن القارح.

ميلاد وطفولة وكهولة ابن القارح :

وجد قبل كعكة الميلاد باثنين وعشرين ربيعا. ديكه الروميّ في مطالع العام تأنّث، وفي أواخر السنة لقّح ذكورته بالسنّ المناسب. زجاج الحاضنات الصلب يفصل الولادة عن الميلاد. (هي القيصريّة نزيف وسعال غثيانيّ) بكى الطفل على فحيحها. رفض أن يخرج للحياة من ميزاب بول آسن.

يمتصّ الطفل رضيعا حلمة ثدي الأمّ. لسان الحال الأعلى سنّا من عمر الحلمة والثدي، الناطق باسم الطفل، يطيل الرشفة حتى يمتدّ الجوع العضويّ إلى ما تحت الردفين. سلاما للطفل البغداديّ. سلاما للأطفال الساعين بما لا يحصى من أقدام فوق الإفريز لتحصيل دماء خاليّة من فيروس الإشعاع الذرّيّ.

لتكن كهولته غسيلا فوق حبل، وليكن جسر الرصافة للمها وعيونهنّ مسافة للحبل! أقنعة وأزياء وشوك في الذقون .(البابليّة زهرة الأقداح) قد أفلت وجاهته بفعل تسرّب الغاز المشعّ إليه من لغم تفجّر في المحيط . (الحور والولدان) ثمّة نجمة حبلى، وثمّة سلطة أخرى، وللفردوس أجنحة ونصف كهولة وبقيّة من عمر أزمنة بها رجعت لبيت الطاعة العميا جهنّم .

تمثال الشيخ الأعمى وابن القارح :

كان ابن القارح مكّوكا يسعى بين الجنة والنار، وكان الشيخ الأعمى في رأس النول، ولما لم يلتقيا إلا في وكر بغداديّ، أغرى خيط الصوف الإبرة بالعصيان . هنا ما يكفي من إسمنت وتراب فولاذيّ وحصى جيريّ ورخام، لإقامة تمثال نصفيّ لهما في القارّات الخمس : ضريح ومعرّة نعمان وخفير في رأس الأشياء .

رسالة الشيخ الأعمى إلى ابن القارح :

سألتك عن قوم ببغداد كم لهم من العمر بين الصحو والنوم ؟ كم لهم من الموت في أحشائهم ؟ ما نصيبهم من الطاعة / العصيان ؟ قلبي وعقلهم مع الشعر ما أبكى، (سراب بقيعة) وضدّا عليه ما

بكى. (زاد رحلة : جحيم وفردوس) سأكتب ما أرى من الحسّ في حدسي، لتنحت من صخري وأغرف من بحرك.

رد ابن القارح على رسالة الشيخ الأعمى :

هم عندي في ركن منعزل بين الجنّة والنار : البارناسيون على أحصنة من خشب، واليرقات ثلاث محمولات فوق نعوش صفراء، وحرّاس الإقليم الثاني بلباس مدنيّ : طرطور في الرجل ونعل في الرأس. وباستثناء أساميهم لم يبزغ منهم إلاّ صوت يبكي ما ضحكت منه الصورة.

مثول الشعراء بين يدي الشيخ الأعمى :

نحن النساك الآتين من الصحراء الممتدّة من شنقيط إلى الربع الخالي، نرجو ممن يعلم شيئا عن ثقب الأوزون الضيّق ألاّ يرشد خيطا مهما دقّ إلى سمّ الإبرة حتى يتّسع الخرق. عصور مرّت والأرض ضواريها طعم لطرائدها، والأعشاش ميادين لتدريب الرمل على زحف مدروس، والإعصار على تخفيف السرعة، والفيزون على فصل الجلد عن الفروة، والإسطرلاب على تهجير الأفلاك إلى الإكليروس الإيطاليّ. فها نحن أمام الشيخ الأعمى أرغفة طازجة

قشّ الفرن على وجنتناورديّ.

هذيان ابن القارح والشيخ الأعمى :

باسم جميع الخائضين الغمر في الجحيم والفردوس،أدعوكم إلى نقابة فصيحة الشغب. أدعوكم إلى رفع أجوركم من الوحل حتّى يتعمّد بها أيّار. أدعوكم إلى تبرئة الأنثى- السرير من قيام الليل. أدعوكم إلى تشحيم أسنان تروس آلة الفلك حتى يستقيم دوران الشمس حول الأرض. أدعوكم إلى الخروج من عصور أزمة المقولات. (الدخول الحرّ عبر الجدل الصامت) أدعوكم إلى اكتشاف إيقاع الرحى الرتيب تحت الماء. أدعوكم إلى حبل المهرّج وطبل حارس الغابة. أدعوكم إلى إتقان مهنة التراشق بلهجتين. أدعوكم إلى جنّة عشتار ونار عاشق في السر.

الذين إذا آثاروا صيغة متداولة لعذاب المعاناة يبنون نصرا بقوس ونصرا بسهم. يقضّون أوقاتهم في حواشي الهزيمة يستنكفون الذبول على حافة العقل. يحترقون بشوق تعنّس. يعتدلون ولو غضب الطقس. يستمرئون السياحة في المتوقّع. ينتظرون قوافل تأتي محمّلة بالتوابل. من سوف يحمل أنثى إلى حضن فحل إذا لم

تفح قطرة العرق المتورّد من عنفهم ؟ من سيقمع عدوى انتقال المعاطف من سابقين إلى لاحقين إذا فرّطوا في معاطفهم ؟ لكأنني بهذا أؤسّس مملكة فوق مأساتهم. ها علي انطلت حيلة كنت دبّرتها لأقاسمهم خبّة القلب.

أصوات من الفردوس والجحيم :

المجثّتون المنفيّون المفصولون ائتمروا تحت سقيفتهم. قالوا : " لو شئنا لرجعنا للرّحم الأمّ، ولكنّ حنينا شفّافا أخرجنا من طور نقاهتنا الأولى، وتوعّدنا بالويل إذا نحن تلاقحنا بالعدوى. ها نحن الآن توغّلنا في قلق ما ارتفعت نسبته في الجنّة إلاّ وانخفضت في النار، كأنّا في هذا الدفء التجريديّ رماد لاهوتيّ اللون. (الرغبة في اللاّمحدود) كأنّا في هذا البرد الطوباويّ رجوم باردة. إن شئنا استدرار الرؤيا فعلى أيّ فراش وعلى أيّ وسائد نلقاها والنوم الأخرس منذور لليل الأخرس ؟

التفاتة ودية من الشيخ الأعمى إلى الشعراء :

قال الشيخ الأعمى : "هاكم أوراقي، فكتابي مقروء من أسفله بالحبر السريّ، لذا أنتم في حلّ منّي وأنا في حلّ منكم إن لم

تبتكروا أرحاما لنواة التكوين الأول" . لمّا اجتاز البارناسيّون الشكل الإهليلجيّ المسدول على مرمى ظل الجنّة والنار. انبهروا بتعاليم الشيخ الأعمى، (لا كونيّة إلا بالإنسان) أصاخوا السمع إلى معناها:

(1)

حرصا على هويّة الجسد أعددت له تميمة من سحر سومر ومن أساطير الإغريق. أعددت له تقلّبا على أسرّة المبادئ. احترس من المناحة التي تقام كلّ سنة أمام تمثال النحاس، واحترس من المناحة، فقد تغضبها رصاصة تغازل التمثال من كتفه ! ("بويّب" في الماء وفيك) المعجبات واقفات وعلى أحذية عالية الكعب يغازلنك. بينهنّ صوت يتكسّر على الشطّ ونبض الماء.

(2)

ممّا يؤكد احتراق النوء بالبوصلة العمياء أن النهر فيّاض تسلّق جذوع الماء قبل نضجه. قرأ طالعه (بين الدلو والعقرب) تاركا وصاياه، فمن يحمل عنه تبعات اليأس والأمل ؟ خذ من حرفة الترحال نصف وطن له من الأسماء ما لك، من الهالة ما لك، من

البياض ما لصفحة موشومة بقلم الرصاص، ما لك من القدرة والصبر على التكرار! في "شيراز" تذبل بيوت الطين. من يملك أن يفرّ من "شيراز"

(3)

لسادن المتحف أن يؤوّل الزيتيّ بالمائيّ في لوحات بابل. عمى الألوان يحتقن في عينيه. أمّا أنت إن وقفت خلفه معلّما فلا تبدّد المرئيّ بالطمث ولا توزّع الغبار! كلّ ألق الجداريات من صنيع الشعر. أقصر الذي تبلغ أطوله لا يجرّد الحبّة من حصانة النواة، لا تسلم من زخرفه قصائد الرثاء. (سحر لغة معك أو ضدّك) سحر لغة تسخر من بنات نعش ما تضايقت من الغربة. هل وجدت في منمنمات الواسطيّ الوطن البديل ؟

(4)

عبّدت في حانة وهران طريق النفي للجلباب والبرنس : مقطع بنبرة، وشحنة سعال فارغ أبكم. نار من تدفّأ بها أمن غالة ثلوج القطب. لا عليك إن جفّ سعار الوجد في كأس العشيقة على مائدة الإفطار، إن قسرت يا مسيح نفسك على ترقيع جبّة غريمك بإبرة التناسخ فحلّ فيك، إن تركت في فنادق الدرجة العشرين

رجليك وعوّضتهما بجوربين حافيّين، إن بنيت بالرثاء خيمة عند دخولك إلى قبرص من بوّابة نسي فيها "هوميروس" قدميه.

(5)

زعمت أن لكوابيس النهار صلة بالليل. جرّدت العرافة من الإعجاز. عابرون مرّوا مسخوا قردة حينا وأحيانا خنازير. رأوك خارجا من جبّة الحلاّج فاهتدوا، ولما فوجئوا بموتك المبكّر العابث، أطلقوا سراح المسرح ـ العلبة ثمّ لبسوا عند ختام العرض قفل عفّة، ونقلوا زمانهم إلى القواميس. يموت ملك. يقوم من قبره آخر، ولا تكتم شاهدة قبرك عليه غضب المشاغبين.

(6)

أرضة ناعمة الملمس صلعاء، ومرآة على صفحتها البيضاء ينقش لصوص قطع الآثار أسماء الحواريّين. رمسيس الذي نفخ من روحه في مسلّة الرخام عاتب على باريس والعمر المدبّر سقوط شعر الرأس على الفوذين ! لم كتبت للنوبة أشعارا بغير لغة النوبة ؟ أرسلت إليّ دعوة على لسان معجب دفع في الحانة عنك ثمن الكأس التي طلبتها من أجله ؟ الخمرة أثقلت خطى مقاطع الرثاء.

(7)

يدعّم الفتى عظامه بقدر ما يطيق مانحا ومانعا. ففي جحورها السراطين، وفي نخاعها قدره المحتوم.(لا يصلح للإتلاف غير جسد الشاعر) يا من يتطيّر من الحقن في قلانس الممرّضات، لا تصالح رجلا وضع في شرائط الهدنة لغما، لا تصالح كوكبا وضع في اليمين شمسا مستحيلة وفي اليسار بدرا مستعارا. هو أعشى لا يرى الحصاة ترتعش تحت قدميه شاعر يدل "زرقاء اليمامة "على النظر من مسافة بعيدة.

(8)

ويلبس النهر الملوّث بأصناف التماسيح قناعا. مزعج أن يتطيّر كبار علماء المصريّات من مسيح جاء من "وادي الملوك" مقصيّا فرعون إرضاء لأفلوطين. لا أشكّ في العقل ولا في قدرة الحلم على التأويل. لا أشكّ في نارجيلة تطهّر الجمار بالنار وزهر التبغ بالتفاح والأرق بالأرق. شدّني إلي نهرك أنك بقطرة ندى ملأته. وشدّني إليك فيه "زورق ـ ذبابة" يحمل عنك تعب الحلم ويلقيه على حاملة القربان.

(9)

ضربت موعدا لأنثى لتناول فطور نمطيّ : قهوة الحليب والفطيرة الهلال والسيجارة "الكولواز" والجريدة الحمراء والتسامح الأبيض والمعطف تحت رحمة المطر والمشجب. غصّت السطيحة بمقهى "الكابولاد" بالموائد. تشيّأ الحريم فوقها. (الحريم لا بجعة هو ولا إوزّة) بحسّ طفلة وحدس يافع تغلّق الأبواب "هيت لك" . قبل زمن الفطام والرضاع كان العدد الفرديّ زوجيّا مركّبا من العذراء والثيب والمومس والبتول. كيف تقفز الأنثى على حواجز الحسّ وتلقاك قبيل موعد جنيّة، وبعده فقاعة ؟

(10)

من الجوارح التي تختال في بيروت يوم السبت نسر ناحل منقاره المعقوف نصف بوصة، وزيّه الريشيّ لا يصلح أن تحشى به مخدّة، لكنّ كبرياءه الأضلع يعتمر طرطورا وسيطيّا، يلقّن الحواريّين أسرار المجاز، يتزلّف إلى كذبها العاري على لسانهم. للكلمات المتقاطعة أن تفيض كالطوفان، إن تورّمت بلغزها المربعات سكتت ونطق التقريظ. في كذبه بالضاد بعض صدقه باللاتينيّة. عليه الآن أن يختار موتا لاسمه مع احتضار لائق !

(11)

ليس مهما أن تكون أول الرماد في نهاية الجمار يا عنقاء ! روّض الصدى بالصوت، واقتحم عليّ وحدتي بدون أن يسبقك استئذان حجّابي وأبوابيّ. يا عنقاء ! في "مقبرة بحريّة" جنوب نهر "السين" شاهدة قبر كتبت بأحرفي وبمدادك الطريّ. لا يفيدني سوى أن تغضب العالم، ـ قد أغضبته فعلا ـ، وأن تلقي في روع مريدين صغار قلّدوك لذة الكسب الحلال. كن على أجنحتي محض رفيق سفر أثير !

(12)

لاهثة تزحف " لن" خلفك بين النفي والإثبات. تنحت على الرمال أسماء حجيج عبروا وجه نهار ميّت، ووجه ليل يتهجّد ولا تنبو به الجنبان عن مضجعه، وكنت بينهم وهم يقتحمون "اللاذقية" . صنان البحر من حواس قرصان وزمرة ولاة مستبدّين، وفي مرفإه يصّاعد البريق من مقالع المرجان. (لا يزال في الوجدان ما تمنحه القلوب) عد إليك ! لا داعي يدعوك إلى تعبئة الكلام بالكلام. هو كائن غزا الفضاء واختفى.

(13)

المجد للأمّ التي صنعت الأقنعة الخشب للوجوه، والريش النعاميّ وعاج الفيل. هل قطعت بحر الظلمات في سفينة الرقيق ؟ هل تزوّدت من "الجاز" بإيقاع سريع النبر ؟ هل صنعت طوطمك من تمساحة بكر يرنّ جلدها المدبوغ في الطبول ؟ لا الضوء ولا الظلام أكثر صرامة من الإغراء. (قدر زائد من المنشّطات) جاء "يافث" فألحق الساميّ بالحاميّ، واكتشف أن للرماد المحض سلطة على توأمة الجائع بالشبعان.

(14)

يهش بالترحاب بحر يافا للآتين من هوامش التلمود، شرّاحا وقرّائين. يقبل على تلميع مرفإه ربّيّ بقبعته السوداء. (تلك لحية طويلة الذيل لعجل جسد له خوار) عائد أنت إلى البحر مع الخنجر واللغم، فلا تستأذن الحارس - إلاّ أن يكون شاعرا - عند دخولك إلى "حيبرون" في قصيدة هرّبتها خوفا عليها من رياء لغة تقول ما تعجز عنه لغة تفعل. من يحرّض القبّرة الأمّ على أن تعلن الإفلاسِ والعصيان في وجه العواصف، يجرّد الفوانيس من الزيت التي في النار ؟

(15)

تحت النجمة ذات الأضلاع الستّة عرّجت على "فيينا" ، كان الصوت الأوبيراليّ السائل من أوتار الشعر العبريّ نشازا. مسؤول أنت و"عاموس الملطيّ" على تقريب الشقّة.بيني مدعوّا للحفل وبيني في رأس السمفونيّة ترددا. لم تذكر هذا اليوم الغائم إلاّ عند مديح الظلّ العالي. (للنسيان تراخ مقصود) حسنا، فلتنسخ آيات لم تحسن ترتيب خلاياها بعلامات أخرى، ولتأت بها في علبة تبغ أشقر، ولتجبر من يدعوك على حجز جناح لك فخم في الفندق، ولتبدأ من صفر، ولتبدأ من صفر!

الشيخ الأعمى واليرقات الثلاث :

قلت للأرض وقد أفحمني منطقها البكر : "هلمّي لاقتسام الإرث ! خلفي وأمامي يرقات ونصوص سلمت من غضب الطوفان." قالت : "هل تشاغلت بترتيب أثاث البيت عن تصحيح أخطائي على ضوء ثريّات تدلت من حياد السقف." بيتا لم تكن لي، ولباسا لم تكن لي : يرقات يتسلّقن جدار الظلّ، يقفزن على خط استوائيّ. تنابزن بحدس لغة يقدح في أنسابها الحسّ. خفير وزّع السكر عليها، وعليه نشر الصحو. احتقان غير مقروء على

سطح إهابي. زبد أصفر مغشوش ووشم بعضه أصغر من بعض وأنكى.

ابن القارح واليرقات الثلاث :

من يخرج الفوسفور عن وضوحه والمعدن الذهب عن غموضه، يقدر أن يخلص الذرة من تيجانها الصفراء، يقدر على إصابة الأهراء بالربو، على إشاعة المطلق في رطوبة الكائن والمكان. ما كان لقعر الدنّ أن يقمع نبل الخمر بالماء الذي في سطحه لو خذلته نسبة المزج. هنا لست أحيّيكم وفي غصونكم ورقة ذابلة ينوء تحت عبئها عرقها الصيفيّ. يا لكاهلين أجردين يحملان ثقل السنين والعجز الخريفيّ تبشر به روزنامة باليّة. لعلّ من أدركه الغرق منكم سيعود آثما كما يعود الثلج مزهوّا إلى نزيفه المراوغ الأبيض فوق قمم الجبال.

اليرقة الأولى :

يرقة تشكّلت من الغرين،
ومن لحاء شجر الأدغال،
من التراب الحيّ والصلصال،

لا هي كالغراب إن طارت ولا
هي إذا غيرت الألوان كالحرباء.
إطارها الفارغ من بياضه الزجاجيّ،
يؤلّب الطقس على الفصول،
ويخلع العذار كالبجع فوق صفحة البحيرة،
مقدار ما تمتلئ الجناحان
بالماء والهواء.
وطحلبا فوحلا، ودودة فخنفساء،
أوهمت التراب أن لحواشي النهر تأثيرا على النجوم،
وأن تحليق البزاة في علو منخفض،
سياحة في الملكوت.

اليرقة الثانية :

يرقة ناحلة الجسد لو توكأت على الهشيم
لانهدمت وانهار.
شعائر الجفاف والرطوبة،
في هالة الشمس من المغيب للمغيب،
دارت كوردة الرياح في اتّجاه الريح

نزقة، حليب أمها على أسنانها.
لم إذن يحتمل الرمل دلال البحر؟
لم إذن "هيسبيريس" في سياج الضوء،
منشغل بموته الباكر في أزيائه القشيبة،
عن احتفال شعر الرأس بعودة الكثافة إلى الخلايا
وقد تفسّخت على صلعته المقاطع ؟

اليرقة الثالثة :

يرقة تجري وراء ظلها التجريدي
وهي مشروع جنين موسميّ
شبّ عن الطوق ولمّا يمتلئ بنكهة التوابل.
وحين أدمن احتراف اللغة البطيئة،
لم يعتذر لظلّه الفارغ من إطاره.
ولا تمرّد على قمقمه الصفيحيّ،
ولا محى الصدأ والغبار - يابسين - عن زنّاره،
ويوم أن خرج عن وقاره
وأحرق الأسماء،
قضى زهاء سنتين واقفا

وظهره للحائط،
منكفئا على عظامه كما اليربوع.

الشيخ الأعمى وابن القارح بالصوت الواحد :

مدن تحصّنها التمائم والرقى، ومدينة عذراء أودعها ببنك الرهن راعيها، ومملكة محتها من تضاريس الخريطة. هل يعيد السبك للعظم المهيض مرونة الإيقاع ؟ جسر للمشاة ومعبر للخائضين الغمر. لا إفراط في طرد الجنادب من حقول النفط. كيف توالد القمر النحيف بهذه الواحات من نجمين قطبيّين ؟ كيف تعارفا وملامح الوجهين تخفيها الرضوض ؟ أقلّها ألما وأكثرها انزعاجا صورة الإسمنت. يحدث أن زلزالا تعثّر سيره أثناء عودته إلى البركان. يحدث أن سفر الخلق والتكوين منشغل عن التعمير بالتأسيس. يحدث أن يوم الجدول الزمنيّ عام في حساب الرمل. يحدث أن ينقّح أنفه بجراحة التجميل فصل الصيف. إن سعادة الكنّاس من بؤس المزابل، حيث تمّ تبادل الأسرى بزرع نخاعهم في الأرض. لي ملكوتها ولها بحكم العرف ميزان. يتمّ بغير علمي أن تفضّ بكارة المفتاح دون القفل. كبريت تقاعس ساعة الإيجاد عن تحضير لون الورس للعدم الذي في صلبه استرخى. انتظار قد يطول وراء أبواب ترابط خلفها الغيلان.

الشيخ الأعمى يصف عطب الذاكرة :

هؤلاء الآتون من الأوقيانوس الغربيّ اجترّوا ما كان تخمّر في الأمعاء طوال قرون مرّت كالحلم وما مرّت : منهم من غنّى للعهر ومن غنّى للعذريّة.من غنّى للاّهوت ومن غنّى للفهم المستعصي. من غنّى لليتم ومن غنّى لمكاشفة لم تنضج. من غنّى للكون ومن غنّى للكائن. من غنّى للبقرات السبع ومن غنّى للرؤيا. استاؤوا من مملكة تعنى بغلال الموسم حتى لو باءت منها بسلال فارغة وشموس سوداء وغربال مثقوب. (من يحمي رخوا من صلب ؟) مدّت أيدي الجوع إلى الزاد بقانون رجعيّ. في ألسنة الأجداد المجترّين الزاد عظام هشة.

ابن القارح يرمّم عطب الذاكرة :

تعوّدنا على النسيان أكثر من تعوّدنا على السهو. انتشلناه من الأرق المدمّر، من سرير لا تحركه مدام الليل. ذاكرة سنقتحم الفراغ بها وننسج حولها نفقا حوافره بطول الحلم. ذاكرة تحرّك شوكها الأعمى لتخفي خوفها من قهرمان ينشد الأشعار : "فيرجيل" الذي زنّاره غمد وسيف يزرع الأشجار في بستان "دانتي". يحجزان بطاقتين ومقعدا في النار والفردوس. ينتقلان من سجن إلى سجن

وفي أيديهما نسخ اعتمادهما. تواطأنا على تمزيق ما فيها من الكذب الجميل. الخيزران لكي يذكّرنا بقوته يصعّر خده للريح.

تعليق الشيخ الأعمى وابن القارح :

أسماء، ألقاب، من زمن مقرور وفدت، في زمن مقهور حلّت. ريح هامسة لولاها لم تضرب لي الصدفة ميعادا يجمعني بالحبر التاريخي، بالعذريّين وسابلة ضاقوا بألوهيّة كالشمع على أعتاب الهيكل. لولاهم ما عفّ البحر أمام استخذاء القارب فاسترخى للمجذافين. استهلاك مرّ للشيخوخة واستهلاك عذب للخلوة بالعصر المتأخّر في شريان المخلوقات. لماذا أنتم دوني ؟ لا يستدعي وضع النصب التذكاريّ على قاعدة صغرى أن يدعى جثماني لحضور جنازته حيّا. ميعاد مضروب في مقهى أو في ملهى لا يملك غيري أن يكتبه في طرس أبيض.

نبوءة الشيخ الأعمى إلى حرّاس الأقاليم :

عرايا وقفتم أمامي وليس عليكم سوى دمكم ومسوح الشعائر. تجري الرياح بما تشتهون ولا تشتهيه الرياح. إذا برّر الليل ظلمته -غيرة- بحصول النهار على حصّتين من الضوء والظلّ، يقطر منه رماد المجاز وجمر الكناية. مدخنة تتجشأ ما شبعت وارتوت. ولأنّ

افتعال النبوغ المبكّر تاج على هامة هي أصغر منه ادّعاء وأكبر منه مراوغة، يتلبس كلّ المقاسات. يحترق الأنبياء هواة ومحترفين بثلج الرعونة :

أبولينير : تعلّم الإيقاع في "وهران" من وقع حداء الناقة.
إيليوت : قضى حياته مبشّرا بأربعائه الرماديّ.
أوتيرو : نشر فوق حبل سنديّانة غسيله التراثيّ.
باوند : رسم في جبهة روما صورة فاشيّة بلغتين.
بروطون : تسلّق القطار من بخاره وقاطع المقاصير.
بودلير : درّب قطة على موائها ثم استعار فروها.
بونفوا : أعاد ترتيب الحروف وفق أبجديّة صيفيّة.
بيرس : كشف عن أسرار بحر مالح ولم يذق حلاوة المرجان.
تزارا : عالج أعطاب الخلايا "الأوكسيتانيّة" بالأساطير.
جاكوب : علك شمع اللاتينيّة بما في حسّه العبريّ.
دوغي : قدم للرواقيّين معجما معاصرا ورديّا.
ريلكه : هلك من لسعة شوك وردة قدّمها لأنثى.
لوركا : أثنى على شجاعة القاتل ثم غادر "الكوريدا".
ميشو : أضاف شوكة برأسين إلى العوسجة الهنديّة.
نيرودا : تصفّحت عيناه سيرة سفير عاطل قتله اعترافه.
سنغور : تنازلت عن عرشها له وما حكى لها أحلامه الليليّة.

سيزير : حاور لونه بلون مثله ولطّخ القناع بالبياض.
شار : جلس في الصف الأماميّ قبالة تيّار الوعي.
فاليري : يحدّد رسما لدخول زائري المقبرة البحريّة.
هولديرلن : قضى من السلّ على مرآى ومسمع من الفلاسفة.
المتنبّي : أنكر أن يكون موته السريريّ "بدير العاقول".
المعرّي : أسرى به ولعه إلى النباتات جنوب القطب.

هامش أول :

الذين إذا اتّشحوا بالسواد حدادا على ميّت، مدحوا جثّة ورثوا ظلّها. وادي عبقر مقبرة للقصيدة. باؤوا بتفّاحة أخطأت. راهنوا بالبكاء على ضحك. صنعوا نسبا متفاوتة من شظايا زجاجيّة. ألّبوا مضرا وهي نقع على مضر وهي رمل. بنوا مدنا بالمخابئ والثكنات. أقاموا بفاتح مايو الشعائر. أوصوا لأسمائهم بكؤوس الطّلى. خلخل الطمث أرحامهم. صقلوا صدأ الوجه تحت القناع الرصاصيّ. لاذوا بضعف الدلالة حتى ذوى اللفظ تحت معاولهم. بشّروا بازدواج الحقيقة إذ مزجوا شمعها المنويّ بإسمنتها. برمت من حساء الضفادع أمعاؤهم. شربوا عن قذى. بحثوا عن يسوع تناسل في شهر نيسان من سمكة.

هامش ثاني :

انتشر الحراس حول المحجر الصحيّ. (كون مشرع كالتيه) لا يجمع بين الداء والدواء ما يقرّب الصحة من ضراوة المرض. هاهم قطعوا المحيط من سفح "الحسيمة" إلى صخرة "باديس" على مرحلتين بالتناوب وفي أرجلهم أخفافهم مؤكّدين أن ما يقرّب الداء من الدواء لذّة عذاب جسد يحسّها وهو يقفز على الحبلين. يقفز على مسافة وهميّة لا هي نسيان ولا تذكّر، وإنّما هيحواردسم يدور عاريًا على أكثر من معنى. ولمّا لبس الحراس أرديّتهم، وغلّفوا عظامهم باللحم والدم الخصيّ. استكبروا. صرفهم إعجابهم بالزيّ عن تعقّب العناكب.

هامش ثالث :

للأسباب المذكورة أعلاه رأينا أن نطلب من كل المنصوص عليهم أن يأتوا بنماذج من خيش أو قشّ أو خوص، صالحة لاستنساخ علميّ في أجل طرفة عين أقصاه، فإن لم ينصاعوا خطّطنا للأرض خرابا أبهى : حوريّات منقوبات. أفخاذ مقفلة. صوف جيريّ. برسيم للمذوذ. أبقار عاقلة رقطاء. شراب مخلوط بلعاب الصعتر.

فاس، 1998.3.4 - 1998.9.1

Elogios ibéricos

Efemérides del mar

يجري في فاتح تشرين الأوّل تلقيح الحيتان الحرباوات بأنساب مختلطات حتّى لا تنسى في دير مائيّ تحت وصاية صيّادين هواة يتماهون مع المرجان بزيّ تقليديّ، (أسطول إسبانيّ) ومع اللؤلؤ بالساري الهنديّ. "الكافيار" الأسود والسلمون الأحمر و"الفودكا" تحتال على إيقاظ البحر من الغيبوبة إن غالى في تقدير خسائره. يصطاد "الكيخوطي" بشباك ضيّقة الأعين قرصانا أعمى.

Marineros insolentes

ما بتلك الوقاحة نذكر نوتيّة بعّضوا البحر : منطقة لنفوذ السراطين والرخويّات، ومنطقة لنفوذ الدلافين والقشريّات. بصنّارة يلدغ الحوت من جحره مرّتين، ويلدغ منه ثلاثا خفير السواحل. يا أيّها الباحثون عن الملح في جزر "الباليار" لتجفيف لحم السلاحف في الشمس لا تقربوها وإلاّ بدت سوأة البحر عاريّة كلّما نطّ قرش على ظهر أنثاه. واخجل الماء !

La vajilla del mar

أسعى إلى البحر كأيّ "راديكاليّ" حقيبته ملآى بالحواسّ كلّما أرّقني سؤاله الأصعب : ما دخل "سانشو" في الذي بيني وبين فارس مسلّح بالوهم ؟ لا أنا مع الأسر ولا هو مع السراح. من منعه من اختيار جدل مناسب به يبارز طواحين الهواء صدّني عن اصطياد الحلزون. أيّنا الأجدر بالرثاء من يقدّم القربان أو من يقبل القربان ؟ هل يتّسع الجرح الصغير لاحتضان الحلم ؟

Humo y su tristeza invernal

تبخّر الضوءِ على الأثباج، وانتقل من عصر تعنّس إلى عصر يودّع العزوبة. نفضتُ بيديّ عنهما الدخان. (للدخان حزنه الشتائيّ الطويل) عدت ألف مرّة للفقرة العشرين من ملحمة البحر، رأيت عجبا : نوحا وعوليس وقد توكّآ على جدار الملح يسندانه بكبرياء الحارس المتعب. هل جفّ مداد الملكوت لجفاف الفقرة العشرين ؟ لست عائدا له ولو تناسل الطوفان من عنقود هذا اليمّ.

El Quijote

لن أغادر شبه الجزيرة إلاّ إذا خذلتني دروعي وسيفي، وخلّصني الموت من جسدي المتورّط في جسديّته. ولأنّ الكتابة في اللوح بالصمغ والقلم القصبيّ تراث يعوّضني عن غرور المداد، فإنّي أحذّركم أيها الشعراء. أنا جدّ مختلف عن كتاب الفروسية "الأماديسيّ". مختلف عن كتاب الملاحم. أوسمة الحرب محض مجاملة لقتيل يباع لتحنيط جثّته. مات "هابيل" قبل مماتي وأحياه "عيسو". القراصين منتشرون وبحر "الزقاق" ذراعاه مفتوحتان. الرؤوس بدون رقاب تنازل طاحونة الريح. يا "جبل الثلج"، يا غابة الخيزران ! فضاؤكما مشجب سأعلّق أحزمتي وعتادي عليه. لمدريد

في عنقي ألف دين. بأعرق ساحاتها أركبتني على فرس رأسها معدنيّ وأعضاؤها من تراب ومهمازها الصلب من خشب. ليس ينقصني غير ريش ليركب صهوتيّ الشعراء.

El delirio del Quijote

أرحل بالروح إلى شبه جزيرة يظل الجرح فيها نازفا. أرجع راجلا إلى الأعشاش حينا بعد حين أتفقّد ثبات السنديّانة أمام الريح. هجرة اللقالق من الجنوب للشمال محض هجرة من المآذن إلى أقدم أبراج الكنائس. خيانة إذا تنازل القيثار عن وتره الخامس، والشاعر عن أوهامه. تحت ضياء الشمس تبدو الأرض رقطاء كفروة حمار الوحش والمرّيخ يحتضنها. (المرّيخ وحده الذي يعلم ما فيه) نساء ورجال وأجنّة وأرحام وما شبعت الأرض من الحياة والموت، وما شبع داء الشلل النصفيّ من تمديد عمر الموت في الحياة. (من متاحف الشمع إلى خرائب القصدير) عمر الفارس الحيّ قصير، وطويل عمره الميّت في تمثاله البرونزيّ.

Sancho Panza

نقله الشفاء من رقّ النقاهة إلى حريّة الصحّة في المرض. (عطلة بدون راتب) أسرج صهوة حماره، وما بللّ جسمه بعشب البطء والسرعة حتّى طار بالراكب والمركوب نحو العالم العلويّ. (كوز ذرة وجرعة من عسل الدبس تسدّ رمق الشبع والجوع) سلحفاة نحيلة مضت بسرعة الصوت إلى خطّ الوصول قبله. محدودب الظهر تعثّر وهو في طريقه إلى سريرها. تعلّمت من فقره المكشوف أن تحبّه عظما ولحما وغضاريف، ومن ثرائه المستور أن تحبّه وغدا مهرّجا ومشروع خرافة. فيا أيّتها المنشّة التي تسير من ورائي، علّمي الذباب ضبط النفس، أو تعلّمي إلحاحه الرتيب ! من ترابك البدء الخجول وإلى ترابك المعاد.

El delirio de Sancho Panza

عوسجة تشبّثت بعمرها اليابس فوق "جبل "الشارات" تزعم بأنّ الشمس والقمر يبزغان من قرصين أحمرين. (لا يحدّ من غطرسة الخذروف إلاّ خيط صوف وصبيّ نزق) أسخر من سير السلحفاة ومن كذبها الأبيض مسفوحا على ذقنها الأمرد. أكتشف نصفا ضائعا من جسدي يبحث عن تمامه في الكسل الغامض والمكيدة

العجوز. أنفصل عن بدائلي. رهافة السمع ستختلق للأصوات أصداء وللأصداء رجعا متوتّرا بفعل الريح. للخمرة صوف ورغاء، وعلى الدرويش أن يحيك من خيوطها وهما، ومن نسيجها مسافة للوهم. صدر ضيّق وسعني دون حماري. (مرّتين سرق الحمار) "قفطان" لبسته بمحضر ملوك الجنّ والإنس وما حجبت عريي عن شفافيّتهم. ذبلت الفصول ثمّ أينعت ولا أزال يرقة.

Dulcinia del Tuposo

معاذ الله أن أنسى كتاب العمر، أولى صفحة الأشعار، وهج الشمس، حبّات الندى والطل. "توبوسو" بصيص من نهار الليل. يعروني لذكراها ارتعاش الدفء في المقرور. (نجم الدبّ فحل وحده وبنات نعش كلّهنّ إناثه) يا آفة عقليّة تزري بهذا الكائن الأرضيّ، عشواء بقايا الزيت في المشكاة! لي من دونها قمر وشمس. بارد جمر المعاني في رماد اللفظ. ملتهب على أوتار قيثار بتول. جلّ ربّ حاك لي غضبا على قدر اتّساع الحلم في صدري المعذّب. برزخ بيني وبين الوصل والهجران. "توبوسو" على مرمى حصاة من ركابي. أبعد الأشياء أدناها.

Teresa Panza

وشم قوطيّ من توقيعي : حرفان على وجه القفل، وحرف مشدود الأوتار على ظهر العفّة والنسل الآتي من أرحامي. إنّي في المطبخ سعلاة وعروس في المخدع. لا يغشى بيتي داوود الأوروشليميّ. (الحانة غير الدير) ولا يخطئ في تأويل الخرطال بحبّات شعير إلاّ غربال مفلوج. في جيد العنزة ناقوس، في ضرع العنزة نهر من لبن. في القرية ليلا ونهارا شخص فوق حمار يرعى شخصا فوق حصان. أبني لهما في رحمي بيتا، وبيوتا في القلب لنسل آت من صلبهما الإيبيريّ (العقم ولا إنجاب الأبناء العاقّين)

El caballo del Qujote

فارس راهب بمعيّة راهبة يترجّل فوق الحصان. ومن ورع كان يحلق رأسه. (أهدى ل"شمشون" من شعره خصلتين) الإشاعة مغريّة وطريق إلى الصيت. رأسان في كاهل. جرس الوقت أخرس. صمّاء باب الحوار. الصدى يتراوح بين الخصوبة والعقم. هذا الحصان المطهّم إن خذلته حوافره الخشبية موّه عن سرجه ولجامه صدق معاناته مع كوز شعير وبعض أصابع من جزر. طار رغم نحافته دون ريش ودون جناحين. هدّأ من روعه كي يطاعن خيلا فوارسها الدهر.

El burro de Sancho Panza

ناهقا طيلة الوقت أتقن حرفته. ولكي يتنصّل من ثقل الذات، من طول أذنيه، آثر أن يسمع الصوت ملء اللسان على أن يقوله بالخرس المتأمّل. يرفض عبء الطريق ويحمل عنها وساوسها وتشعّب أحراشها. يتجرّع مرّ شعير ترمّل في الجرن. من أجل "سانشو" يعيش النقيضين : (لغم يفجّر في لغة الناطقين المعاني من لغة الصمّ) بردعة ضحكت وهي مركوبة وبكت وهي راكبة. لغتان. ومن حسن حظ المسافة أن الحمار وراكبه مضيا يضحكان.

La coneja salvaje

من أين إذن توتى الأرنب ؟ توتى من أذنيها. أذناها مرآة. ما تكتمه السرعة في الجري نهارا، يفشيه نزيف الفوسفور الجاري من عينيها ليلا. من فرط الخيبة تاهت واشتبكت بالشوك اليابس، وانتفضت حتّى باحت بمحاسنها. لو أنّ "السافانا" خضعت لجراحة تجميل لازدادت أذنا الأرنب طولا ورهافة سمع، واستولت أعراض عمى الألوان الليليّ على حسّ القنّاص.

La Marquesina

تعوّدت الوفاء بموعد ضربته لي حيّا، وما إن متّ حتّى أخلفته. المعطف البالي عرين الشاعر الجوّال، قبر الفارس المغوار. يبني الغول للعنقاء وكرا فيه رائحة السرير وفيه بعث للرماد من الرماد. (خلاعة لفظيّة) يتذمّر السمسار من زبنائها الأقحاح إن تركوا لها تحت اللحاف بقيّة من ليلة حمراء مجّانا قضوها. الصفر أكثر جوده شحّا وهو على اليمين. تعلّم الكتف الشهيّة آكليها كيف تؤكل.

Amalia Rodriguez

يجري "التاجو" تحت الجسر كما يسري "الفادو" من صوت "أماليّا" ترجيع الصلاة الفجر وتردادا لكلام الأرغنّ الهامس. تدعوني للحبّ ولا تملك وقتا تفعله فيه على ظهر سرير أو في مرآة. ما اهتزّت أوصالي بحرارة ما قالت وبرودة ما فعلت. غيري بهداياهم (معطف "فيزون" مثلا) غاصوا في النهر العاري، وأنا في النهر الجاري استنشقت عبير الغجر المارّين وقد ألقوا في الماء قلانسهم. (طقس صيفيّ) ما رَجعوا إلاّ وقلانسهم تيجان.

La llave de la casa Isabela

أنهت "إيزابيلا" تدوين التاريخ الماضي في تمثال غرناطيّ فولاذيّ. في يمناها بيت تغشاه الأشباح وألوان الطيف، وفي يسراها مفتاح لم يفتح صرحا أو يغلق كوخا. جف الخزّ النامي في كفّيها. أقيال. (آساد قطط) كتّاب الحوليّات. (رواة الأخبار) الرؤيا فوق سرير ليليّ لا يسع اثنين. المجد لعسر الهضم. المجد ليسرى نابت عن يمناها في رفع الأثقال. المجد لتعكير مزاج البيت الخالي بالمفتاح المشلول.

Seconda copia de la llave

تعرّف البيت على المفتاح والمفتاح هشّ للقاء البيت. أنكرهما التمثال. أنكر انتماء اليد واللسان للنار التي في وبر الثلوج. من سبق منهما إلى السكن في هويّة الآخر؟ منلقّح توت الأرض بالكرز؟ من سكر منهما بخمر مطر الخريف؟ خنثى هو هذا العصر خنثى هو هذا العصر.

Siega de la sangre

لم يكتب "الماتادور" بعد خطوطه بالسيف. ثمّة خربشات فوق ظهر الثور قد سلمت من الإحراج. ثمّة لوحة تحت العباب تشبّثت

بحروفها الخرساء. يعتقل الكلام وهو بين الريق والشفتين والأسنان. آونة يعود النبر للضوضاء مشتعلا، وآونة يداهمه فيسكته العباب. "الماتادور" الآن منشغل بحشو سهامه بالسمّ، والثور المشاكس عاقد ما بين حاجبه اليمين وعينه اليسرى وقمّة رأسه، والراية الحمراء تقطر بالغواية. من تبلّله العلامة منهما بدمائها، تعفيه من سرد التفاصيل الدقيقة. لا يسيل الرمل إلا عندما تتشابك الأقدام. شوط للكلام وللخوار بقية الأشواط. من سهم أصاب ومن سهام أخطأت يتناسل المعنى، يخفّف من صرامته هطول الماء فوق بساط رمل، وانحسار الدمع في عيني هتاف شامت بالقاتل المقتول.

فاس، 1998.7.11 - 1999.12.28

اتساع رقعة الخطيئة

واحة

الواحة الآن فيها نخلة، وغدا رمل، وبعد غد لا شيء : لا بلح ولا تمور سوى سيقان داليّة أغصانها يبست. أمامها طيف ناطور وزوجته فزّاعة الحقل. ما من جدجد عاقل إلاّ وراودها عن نفسها. تعبت من الحقيقة لولا الريح ما كشفت عن ساقها وبدت للدود مبهمة، وللعصافير معنى لا حراك به. لا تدفع الشغب المفتوح عن سعف، ولا تلقّح تمرا. يا لها امرأة تحرّض التمر ألاّ يستجيب لها إلاّ إذا حملت من زوجها خطأ.

عوسجة

تسائل العوسجة الشمطاء باب الدغل الموحش عن ملاكها الحارس، تومىءإلى الحطّاب يبري شفرة الفأس وأطراف حوافره بالعشب وحبّات الندى. وما تجفّ هالة الشمس وتيبس على أطرافها الأشعّة الحمراء حتى يتكشّف عراء الباب عن عوسجة لا هي أكبر ولا أصغر سنّا من حوار دائر بين ملاك حارس وظله. هل يتقمّصان روح العشب أو دهاءه ؟

وصي

ينصّب يافث حكما، وسام وصيّا تحت إمرته، وحام وكيلا عنهما. في السكر ينفي، ويثبت قوله في الصحو. ماذا على الجوديّ من جثث وطمي، سوى أسمال غرقاهم ؟ صراخ على الأمواج منطفئ وطمي على الأطراف مشتعل. حفاة تسرب من غضون الأرض ملح لأيديهم وأرجلهم وشلّوا، فما نضجت أساميهم عليهم، (بريش محاكم التفتيش صقر وميزان) ولا شربوا وغصّوا.

صيت

ينال من ينبت في رأسه قرنان ذيوع الصيت. قرن فوق رأس مائة من السنين، وعلى ناصيّة الخرتيت قرن. كيف يوقظ النطاح رغبة الأيلة في الأيل ؟ حطام جسدين يتآلفان عبر جدل الرغبة. لا يفكّ مشط ما تشابك من القرون مثلما يفكّ شعر الفوذين والرأس ولو تشابكا بفروة القفا وريش القبّعة.

نجيع

نجيع نقيّ منه بكر وتغلب، يلوّثه صنوان : خزّ وطحلب. خليّته الأولى توقّف دفقها عن الضخّ. "يا نرسيس" سال بوجهه على الماء والمرآة، هل أنت واثق بصورتك الأخرى ؟ وهل أنت واثق بأن دما فيه دم الماء منعش لشريانك التاجيّ؟ إنّ مسافة بشوطين تكفي أن تواسي ناقة وربّتها. دمع غزير مكابر، لإحصاء قتلاها وتدوين سنّها على ورق البرديّ. دمع مكابر، وفي رئتي عبس وذبيان طحلب، وخزّ، فمن ذا يحرز السبق منهما لضخّ دم الغبراء في دم داحس.

تعب

يخامر التعب ذهن الدم حين يستبد الخوف بالخلية الصمّاء. لا شيء على شجرة الأنساب إلا ميّت الأوراق. أقسى من جراح الصدق والكذب توأمة أسباط صغارا وكبارا كتبوا أسماءهم بغير أحرف الهجاء فوق حبل سرّة التوراة. مارسوا البكاء بعيون الشمع. (بؤبؤ من الزجاج في جفنين فارغين) لم تغيّر المياه نبعها ولا مصبّها في النيل والفرات ؟

"نبتون"

كان في أوراقه الخاصّة يدعى باسم " نبتون " السماويّ، ولما اعتبرته كتب الإغريق مشروعا فضائيا، دعته باسم "نبتون" إله البحر. عضو شرفيّ يتسلّى بدخول المدّ في الجزر. غريمان صغيران : غريم شقّ نهرا، وغريم ردم النهر. أخيرا عاد "نبتون" الذي ناسخ "نبتون" إلى جبّته الأولى، ولمّا وجد الأفلاك صمّاء تماهى بأسامي فلكيّين قدامى رمّموا باسمه أشلاء خرافة.

أفلاطون

يصرّ أفلاطون في دروسه على امتلاء رئتي تلميذه الأثير بالدخان. أيّ أمّة تلك التي عاشت على دين ملوكها، وأيّ جدل يستجلب النوم به ؟ بعد ثلاثمائة من السنين كان أن ضربت العملة باسمه وصورته ثم انسحبت من التداول. لأن وجهه مائدة، ووجهها خوانها ولهما قيمة إبراء من الذهب. يالرجل لم يدع نفسه إلى مأدبة أقامها لغيره. من شدة العجب تقنّع بريش طاووس.

كاتب

يبكي ويضحك كاتب السير الحزينة نائبا عما تبقّى في حياة الميّتين من المناعة. من يؤكّد أنّ ما ضحكوه ليس سوى صراخ ساخر مما بكوه، ومن يؤكّد أن حلما عابرا في الصحو محض إشاعة تتعقّب الأمس المراوغ والغد الموعود يصطليان نارا غير دافئة. تواجه بالحروف جراءة الكلمات. قرّاء على وشم الكتابة ساديّون يجفّفون حريقهم وشماتة بقيت على وجه الفهارس والعناوين.

سور

ما كان سور الصين مجبرا على استنزاف ما في الأرض من مقالع الرخام. ما كان عليه أن يزيد طوله عن قامة الحجر والإسمنت والحديد، لولا غيرة من سور "برلين" الذي طلب منه (كان في حالة ضعف بشريّ يتخلّل نعاسه) على وجه الإعارة رخامة على صفحتها ينقش أسعار شظاياه التي تسابقت متاحف الشمع إلى اقتنائها. يرتبك التأويل في تفسير هذا الشغب المفتوح.

غزل

ربّما اندلعت في القصائد رائحة الغزل المتداول يوقظ حسّا ويخمد حدسا، لأن النساء ازدحمن أمام الدواوين منتحلات عشيقا بصورة بعل، وأنشدنه غزلا قيل في غيرهنّ. نزعن نقيع الخرافة من ثغر راويّة أجلّت قتلهنّ، وعوّضنه بالغناء الشجيّ، وأودعنه صدرهنّ، وفوق المخدّة، تحت اللحاف جدلن ضفائرهنّ وقدمنها للعشيق المؤجّل. ألغين كلّ مواعيدهنّ مع الليل حتى يجيء الصباح.

منقار

لأنّه أكبر من منقار بومة وأصغر كثيرا من شظايا نيزك، ينزل نجم الدبّ من سمائه من أجل أن يطيل عمر ليلة عذّبها الأرق أو ينقص من طول نهار يتثاءب من النعاس. قد تعدّل الشهور والفصول بندا ناشزا ينال من ديباجة الدستور ما يناله الدستور من خرق ورتق، غير أنّ للعصافير جناحا للمباهاة وريشا لاحتقان الصدر بالهواء. سوف يشتهي عليهما الفلك أن يخفّفا العبء عن التيّار أو يؤدّيا مؤخّر الصداق.

نوار

حالما ينتقي "نوار" من الشوك، ويقظان يغرس الشوك في بعل أتاها من بعده ذات يوم. ربّما زادها الغموض عراء، وكساها شعر الفرزدق صيتا. عاش ما ماته خلال حياتين وموت، يمضّه الشبق الحيّ إلى أن أقام ضيفا على أمّ جرير. (ببولها تطفئ النار) فم يعلك النقيضين في صمت. تظلّ النواة تغفو وتصحو خارج الشوك والمعايير. مرّ طعمك الحلو "يا نوار" على ظهر فراش غير الفراش الشاعر.

قتادة

تغالط القتادة الوعول. تنقل المرارة من اللسان تحت إبر الوخز إلى الأسنان. من نكاية في الكائنات من ذوات الظلف أن تدعى إلى تسلّق "الألب" وليس في جباله سوى قتادة وصفحة من البياض المتفتّت على القمم والسفوح. يا لقدر "الألب" مع الظباء والوعول! يا لقدر البحيرة العانس تحت إبطه الأصلع! من يخبر هذه القتادة اليتيمة بأن الشوك لا تهضمه شراسة الأسنان بل حلاوة اللسان ؟

ظرف

ظرف مختوم بغراء، في داخله أمر تحت الحبر : " اقتل حامله " . ورجاء فوق الأحرف : " أقطعه ضيّاعا " . "رقّاص" بريد فيه اللغم ومنه التفجير، مهمّته تبدأ في وقت يعنى فيه بتجفيف الرجلين معا من ذرّات غبار الترحال الماجن، تنهيها جثّته الملقاة على الظرف المختوم. تقاطع أمر ورجاء حتى لم يبق من الأحرف والحبر سوى نهر دم يسري بين قتيل آنيّ وغريمين يموتان غدا.

بروميثيوس

يعترف "بروميثيّوس" أنّ لصّا غيره سرق باسمه شهابا من وجاق النار، (تحتضنه وهو صلصال ويحتضنها وهي نار) كي يغيظ فوهة البركان تبخل بما في جوفها من حمم ومن سماد. هل يقام الحدّ في الصيف على متّهم بعدم التبليغ في يديه إصبع وحيد للإشارة وراحتان لالتقاط أشلاء الدسيسة التي دبّرها له غريم ملتح يرسل بالهاتف من مقرّه إشارة تنسف لغما حاقدا وضع تحت قبّة "الأوكروبّول".

أبالسة

أبالسة نزلوا من كواكب مجهولة. بلسان يراق عليه لعاب من الشفتين يردّ الصدى لهما أثرا بعد عين. أبالسة أسّسوا في المجرّات مملكة "أوليغارشيّة". أرسلوا السفراء-الجواسيس داخل أغشيّة وطرود بريديّة ومن التوتياء لهم صنعوا أعينا لا يحيط الزجاج حواجبها. (تتعتّق كالخمر ما قدمت) غير أن الملوك إذا دخلوا قرية وغرائزهم سبقتهم إلي خدر أبكارها يجدون العذارى يحصّنهنّ ببابل ساحر.

رحاب

مؤكد أن رحاب "أورشليم" تشتكي من طوطم تمنعه النيران من إحراق جثّته، والثلوج من تجميدها. تحثّه الرياح - أنّى اتجه السهم - على قراءة الطالع في خطوط كفّيه، يسارع إلى بقيّة في حائط المبكي يريق عندها عينيه، يطلب حمايتها. بين المدّ والجزر تقوم الجاذبيّة الفضائيّة بانتشال جثّة من الغرق في السديم. سكّان الكواكب السماويّة سوف يزرعون الأرض بالألغام لو دفن فيها الطوطم الرماديّ ؟

كتب

كتب تتراكم حول مؤلّفها وفهارسها. حول ناشرها (أمويّ الهوى علويّ الطويّة) "هرمس" ما كتب الحرف صوتا، وما كبت الصوت إلاّ لتحنيط ما سوف يكتبه اللاّحقون على قشرة الكلمات. جناز يقام على لغة ضحكت عانسا، وبكت ثيّبا. وضعت - وهي عاجزة - مزلقانا على الصفحات (بخطّين : خطّ حديد وخطّ نحاس) لئلا يمر من الأبجدية للسدّ فأر سبأ.

أعمدة

تعتذر الأعمدة السبعة للحكمة عن خطإها الفادح في حق قميص الفيلسوف، اندلقت عليه من معصرة القهوة، من فحيحها المزمن قطرة تحرّك لها النادل والروّاد. من يبرّئ البنّ إذا خالطه برّ وحنطة وحبّات شعير من نشوز اللون؟ لا مجال بعد أن يضاف للقميصين قميص ثالث سيرتديه بعد عثمان ويوسف فلاسفة عصر النور للحضور في حفل عشاء راقص تحيّة لساكني " المقبرة البحريّة" .

حس

من إيقاظ الحسّ إلى تخدير الحدس مسافة ما بين الحاجب والعين. العمق الأخرس والسطح الثرثار. لماذا تبتكر الألفاظ لتحجيم الحلم وتضخيم التأويل ؟ الكائن هذا القشّ المستعمل يحصي كم دارت حول الشمس الأجرام، وكم دارت حول الأجرام الأشباح. وفي ذهن "شيزوفرينيّ" أودع سقراط غبار الهيروّين : نصوص تطري غيبوبته ونصوص ترثيها، ونصوص ثالثة صمّاء.

حاشيّة

ينبع من حاشيّة النهر مصبّه الغرينيّ، وفي منعرجاته يشقّ النهر مجراه ويخفيه عن الأعين. بؤس الصخر والماء. متى اندفعت اللّجة نحو الغور تاقت أختها إلى ضفاف النهر تحتفل بالجوع ولا تأبه للظّمإ. تنفث لواقح الرياح نسغها الطريّ (بزر القنّب الهنديّ) في الماء وفي الصخر. يهرول العباب. صخب الشخير والنقيق يدعوه إلى غيبوبة في السرّ. أذكى نبتة في فم أغبى شارب. يطول عمر الصخر حتى ليساوي عمر أجيال من الماء الذي يشرب منه النهر.

فاس. 1998.8.9

مشروع التأسيس الأول للأسطورة

(1) العصفور :

شبّت في الغابة نار لافحة من أجل امرأة نسيت خلخالا فيها. رجلاها لم تقتنعا بالخطو الأخرس. عصفور صادفه ملقى بين الأعشاب. اهتمّ بإتلاف الوشم المنقوش على معدنه. منقار في حجم حصاة أقصى خيلاء في حجم الدنيا. منقار مولود في وكر هشّ تحت حضانة أمّ سقطت عنها باسم القانون.

درويش جوّال يعشقها عوّض ساقيها عن مشي مشلول بالقبقاب الصينيّ. ولمّا أسرى العشق به نحو البرزخ في الأعلى ضاقت من بصمات المشي الوضعيّ تضاريس الأرض. ولولا إلحاح الخلخال لما أجرى العصفور على قانون الغابة تعديلا يقضي بإدانة فأس وبراءة حطّاب.

لا تدري المرأة بالتأكيد متى تثأر من كيد العشق الطارئ بالمشي المختلّ العاري. هل يغنيها درويش جوّال عمّا يربطها بجلال الأرض ؟ من سوف إذن يشفيها من هذا الغبن سوى تعويض نقديّ عن أيّام قضّتها في تعويد الساقين على السير الحافي تبسيطا للإيقاع ؟

بعد استجواب المرأة لم تترك فوق العشب اليابس عنوانا إلاّ ساقاها. أمّا الدرويش الجوّال فأدلى تحت الإكراه بعنوان إقامته في الشعر. ومن هذا اليوم اعتادت أقدام الزاحف والطائر والماشي تسهيل القفز على درجات السلّم بعد نفاد الأوكسيجين من الجورب والنعل. اعتادت إتقان الحبو على أربع.

فاس، 1998.11.9

(2) الفيل :

فيل آريّ صحبة سائسه الساميّ، وكلب آريّ ومروّضه الحاميّ، اجتمعوا في أعتاب بلاط المقدونيّ. تعير القوّة للضعف بديلا عن أنف منذور للشم الذاتيّ.

الفيل برجلي سائسه يمشي، والكلب بنسيان مروّضه يسهو. تلقيح القوة بالضعف ضروريّ لوجود الأشياء على صورة توت مهصور لا يحجب شيئا مما تحت العظم العريان.

تعبيرا عن غضب "مازوكيّ" دكّت أخفاف الفيل محاصيل حقول الجيران : عروش "الكاكاو" وألواح العرعار وسيقان الآبنوس. السائس أخفى رجليه حياء من زحف الفيل على بطنه.

واستخفافا بالحقد الضاري أقعى الكلب الآريّ. ومن رجليه اليمنى واليسرى فاح نباح مألوف. إبعادا للجيران أزاح مروّضه ثوب الحشمة عن مصراعي باب لم يفتح إلاّ للريح ولم يغلق إلاّ للخوف.

لفّ الجيران أمام بلاط المقدونيّ شريطا بنّيّا حول زنودهم العجفاء، وحاموا حول الباب وما احتجوا إلاّ من خلف الجلباب الحربائيّ. سلال الأسفار الهيروغليفيّة فارغة إلا من نبل الصمت الخائف.

ما إن لاح المقدونيّ لهم حتى غضّوا الطرف. انطفأوا. أصوات مبهمة كالرغوة لم تحفل بالكلب الأعزب لمّا زفّت للفيل الفيلة. (ميلاد التاريخ بعام الفيل)عذارى أبكار للنيل الأعزب. مهر للأنثى وصداق للبعل.

فاس. في : 1998.11.30

(3) التنّين :

يحكى عن التنّين أنّه اختلى برقعة الشطرنج. لاعب على خاناتها الأربع والستين هولاكو الذي بعث من رماده.

خاناتها الأربع والستون لا ينقصها سوى رؤوس نووية وتخترق برج بابل.

لم ينج من شراهة الورق غير ورقات من كتاب مفردات الطب والتشريح،

تساءلت سطوره : "هل ينتهي الإنسان إن تحرّش الإيروس باللوغوس ؟

إقامة طالت وما أسفر برج الحوت والعقرب والميزان عن غير وصيف يتعقّب تنانير الوصيفات يخضبن بها مخدعه الأبيض ما عزّ عليه وعليهنّ بياض الثلج.

جدّ مرير أن يلاعب "هولاكو" نفسه القديمة الجديدة،

ويخسر الشوطين.

فاس، 1998.12

أسئلة الماء الحيّ

سؤال الانبثاق :

كمأة يتدفّق من بيضة الأرض ثانية بعد ثانية عشبها المتورّد بالطلّ. من نقف البيضة البكر أخرج من قشرها وغضاريفها العظم واللحم والكلأ البشريّ وأخرج أسئلة الماء.

سؤال الطوفان :

لا تزال السفينة واقفة عند طوفانها. لا تزال خدوش التثاؤب عالقة بخطى راكبيها : ذكور تيوس، إناث سلاحف، زوجان من كل صنف. ويغرق واقعها في الخرافة دون الرجوع إلى الجمرة الأم.

سؤال السيل :

الحياد المجرد في السيل عند مساقطه، والفضول المدمّر عند ارتطامه بالصخر. هل يتحرج من جبروتي هنا وخضوعي هناك ؟ أضايقه حين تجثو على ركبتيه وتجثو على ركبتيّ هشاشة كينونة ورقيّة.

سؤال البئر :

المدى قاحل يتوغّل في رحم الجبّ. أطعمني يوسفا وقميصا، وكان إلى الآن معتكفا بين فرث الثرى ودم النفط. يخرج لي رأسه الدلو ما ظمئت رئتاه ويحجبها كلّما ارتوتا. نهمان معا. غائصان معا في منافي الثرى.

لم يسخر بئر الجزيرة ممّن يفتّش في الجبّ عن يوسفه ؟

سؤال النهر :

المصب يبدّد ما جمع النهر، والماء بينهما ذاهل، مرّة يتبرّم من سفني الجاريات وأخرى يحاسب أسماكيّ العانسات على هجرة ليس يسأل عنها سوى الطقس. بعد حساب الخسارة والربح لم يبق بيني وبينه غير قناة وجسر. فراتان يغترف "الكنج" من فيض مائهما.

مأدبة "الفوروم"

دعانا لاجتماع فطاحل الشعراء في "الفوروم" حيث اعتاد هوميروس أن يغشى سرادقه وسيجار توكأ نصفه العاري على شفتيه، والنصف الرماد على أصابعه، وأومأ لي بعهر : "أن تفضّل". كان في جسد التي عشقته أصفى منه في جسد القصيدة. كان يبحث للقصيدة عن قرار في مفاتنها : امتصاص الحلمتين، ورشف حبات اللّمى من ثديها الأسفل.

ولّما لم يجد أحدا من الشعراء، (إذ حضروا وما حضروا) تخيّل أنهم في فصّ خاتمه. على إلياذة أخرى مهمة نقل "هوميروس" من قبر إلى مقصورة في "البانتيّون" تنوء تحت برودة الدم والرخام. بإبرة آلت إليه بغير حق حاك لي وله قباء ضيّقا. (صدرية ضدّ الرصاص) وعندها حضروا وفيّ أجسادهم أجسادهم. لم يملأوا شبرا من "الفوروم".

فاس، 1999.2.12

رسائل حبرها صمغي

"شادوا لهم في الصخر نصبا يشغلون به فراغ الوقت. ثمّة فرصة أخرى لمعنى ثالث يتوسط الإزميل والنحّات : عنف الخلق والإبداع، عنف مهارة اليد والأصابع والأظافر في وجوه جهمة عريت ملامحها عن المعنى."

"أشواك غار إرث هذا النصب من عمليّة التحنيط. هاهم جمّعوا الأفلاك في قارورة جوفاء والتجأوا إليها في انتظار هدوء زوبعة الغبار. لمن يسرّب جبنه رأس النعامة لو تمرّدت المسامّ وجفّ جلد الرمل ؟"

"من خمر بابل دارت الكاسات. ما كانوا مع الساقين. ما كانوا مع الندمان. ما كانوا على وعد مع "النيروز". مأدبة تقام لغيرهم. وكما تآكل بطنهم جوعا، تثاءب رأ سهم شبعا. ولما تقرع الأنخاب تسكر وحدها بابل."

"عام جديد بعده عام قديم بعده عدم، وهم كالعنكبوت خرابه المألوف يسفر عن قناع تحت أقنعة. إذا قلّوا فمن فزع، وإن كثروا فعن طمع. سفور واحد يمحو بقايا الوشم في سحناتهم ولهم خيار بعد ذلك أن يبيدوا أو يبيدوا."

"من أين يبتدئون ؟ لو بدأوا بقصف فواكه الفردوس (أحيانا تعادل نكهة الزقّوم) لاندملت جراح لم تلن للبلسم الشافي، ولابتكروا يقينا ليس أكبر منه غير الشك في النظريّة الكبرى. مؤسّسة يكون العقل. أضرحة يصير العقل."

"حمّى سحائية تزور عظامهم غبّ الظلام. تجرّد الآهات من رجع الصدى بنزيفها المكبوت. دمع مالح ودم زلال. كيف تعلو بالسؤال يد وتخجل أختها من كبرياء الذلّ في العليا وفي السفلى. يد بشهادة التلقيح تسحب صفحة الدم من غشاء العظم. للقدمين قفاز وللكفّين عكّاز، وينتشرون في الواحات مثل جنادب الواحات."

القصيدة الأولى :

يتضايق العقلاء مما يترك الحمقى لهم من حكمة في قعر كأس فارغ، ويضايق الحمقى نقيق العقل ما جلسوا إلى هذيانهم عند

الظهيرة. باعة نشروا بضاعتهم على صحف من الإسمنت. ساووا بين حاجتهم وهامش ربحهم من مشترين مشاغبين أتوا من المريخ.

القصيدة الثانية :

تتحرّش الجينات في حوض التجارب بعضهنّ ببعضهنّ. يراجع الذكران ما أبقى على سحناتهم كيد الإناث من التمرّد. شاشة الحاسوب تكشف عن جراءة جينة وغبائها، لمّا تغيّر جنسها الأعلى بدون نخاعه الشوكيّ في حوض التجارب.

القصيدة الثالثة :

يتلبّس الكابوس جثّة نائم. يتناثر الهذيان من أشلائها. يمتصّ نبض عروقها الزرقاء. ينشب عنكبوت الوهم ظفرا في المخدّة لاسعا كالشوك. صمت الليل يكتب سيرة، وهزيعه الثاني يحنّطها. وما إن تشرق الأضواء حتّى يستبين الليل خيطا ناصعا من بين خطين.

القصيدة الرابعة :

سبحانه، رفع السماء بغير أعمدة، وسخّر للمجرّات البعيدة فطنة الفلكيّ. قوس النصر "نرسيس"، وقبر الجنديّ المجهول مرآة،

وتعكس صفحة المرآة صورتها على الفأر الذي نقش اسمه في السدّ، والصـور التي أخـذت لموسى الطفل في سـيناء، والغـجـريّة المجـريّة الثكلى، وأيلول الزمان الصعب. (للثورات تموز، وليس لمارس غير الحـروب) تصـافح الناجـون من حـربين بالعـاهات والأعطاب قـبل نجاتهـم. (في غيبة الفلكيّ أعمدة السماء ترهّلت) يتجرّعون الجعة السوداء، كلّ حسبما أبداه في الحربين من جبن ومن جرأة.

القصيدة الخامسة :

ينهار ظل الشمس والأوزون. تعديل طفيف سوف تجريه السماء على السديم. الشيء واللاّشيء ينتعلان خفّا حافيا في جوربين. يعـوّضـان رتابة الدوران حـول النفس والأجـرام بالشلل المؤقّت، ثم يبتكران شمسا لا تطاق وكوكبا أعمى أصمّ لسفر تكوين قشيب. يسقط النسر العجوز على بغاث الطير. (ملحمة ستكتب بعد فوز بالغنيمة) في الطريدة ما يوازي ضعفه. شيخوخة في الريش لا في الجوع. نصل السيف صومعة وغمد السيف محراب. جرى التعديل سرّيّا ولم يؤخذ برأي الشمس والأوزون.

القصيدة السادسة :

مومس متمرّدة لم تجدّد بطاقتها المهنيّة. وشم النقابة حنّاؤها. وإذا التقط الليل أنفاسه في رصيف المراسي، تهرّب رائحة المدّ والجزر. تنبع منها عظام أباطرة، وجلود تيوس، ومستودعات توابيت فارغة، ولوالب في علب السفن الغارقات، (مخافة أن تحبل السفن الغارقات بنوح) ونوتيّة يتركون على فخديها من الملح واليود ما ادّخروه وهم في أعالي البحار. الدموع محتمن سجل النقابة صورتها وعناوينها، (نسبة الملح عالية في البكاء) لذا لم تجدّد بطاقتها المهنية.

القصيدة السابعة :

المحارة عامرة يتقاذفها الرمل في الساحل البكر. هل تتوارى وراء قواقع فارغة تتماهى بها كالطحالب فوق الحصى؟ هل لها أن تشيّء هويّة نبت الكلس والخزّ والصدفات على ظهرها؟ هل لها أن تصادر عنوانها من مذكرة البحر؟ (في متناول عاشقها أن يفضّ بكارتها) عزلة الكائن المتوحّد توثر ضيق المكان على سعة يتبدّد فيها المدى. شبق الريح يجرف ما كان ممتلئا بالفراغ ويملؤه بالعناكب. إلاّ المحارة إذ يسع الضيق عالمها الرحب، ينتقل الحسّ منها إلى ذروة العظم

واللحم والجلد. لؤلؤها هو مفتاحها، كلما راودته قشعريرة يفتح الباب.

القصيدة الثامنة :

حين يقطف من سعف النخل دودا فيفركه بأظافره، يتفتّت فوق أصابعه سكّر لاذع وشظايا نوى التمر، يدرك أن دم "الأنسولين" يعدّل ضغط الحلاوة في الدم. لا حدّ للحقن المترعات، ولا حدّ للعطب المتولّد عنها. شرايينه امتلأت باللعاب تغطّ وتشخب ما سال أوجفّ. جرأته وتسكّعه في دهاليز معجم "بقراط" يختصران المسافة بين مريض وجثّته ومظلّته وجواربه وهوامش برنسه وحوافر عكّازه. نصف ميت وحيّ تسلّق آخر مقصورة في قطار الشمال وما أسلم الروح إلاّ ومعجمه قد تجاوز طبعته المئتين. الدواء (وآخره الكيّ) في الحرمل المتورّد، والداء في الحرمل المتورّد.

القصيدة التاسعة :

أيّ ما قمر تتوسّده صفحة الليل لا يتجرّأ أن يتسرّب عبر مسامّ اللحود، ولكنّها الشمس هي التي تتغلغل في الأرض حتى نخاع الرطوبة في جثث الميّتين على فرش الصوف والميّتين على سرج الخيل

والميّـتين على البندقـيّـة والميّـتين على "الأوتانازيا" . المنجّم في بؤرة القمر ـ البدر يزرع يقطينة كي تجفّفها الشمس. ما كان للنيّرين معا أن يطلاّ على الغار والغار منهمك في الصلاة. وما كان للشمس في الدغل القصبيّ وللقمر-البدر في سلّة الخوص أن يطلقا البطّ والحوت في الحوض لولا براعة يقطينة الغار. (جلب الرساميل تهريبها) لم يحن بعد عصر ستخرج فيه الكواكب عن طاعة اللّيل واللّيل محتقن ببياض نهارين. لم تخب بعد جمار الحكاية.

القصيدة العاشرة :

"قندهار" القريبة من قمم الهيمالايا قلنسوّة وصقيع. تمرّ البنادق سافرة الوجه عبر "طريق الحرير" إليها. تمرّ الدوابّ. يمرّ المهرّب والقنّب الأسيويّ. العناوين مفتوحة وقمطر سعاة البريد له نصف ذاكرة، والرسائل تفرغ ما يتبقّى من السهو في هذه الحقبة الدمويّة. من أجل بنّ وتبغ وأسلحة وتمور مجفّفة تجرع الأرض أكثر مما تطيق من الملح والفحم. وقت لنسج الزرابي، ووقت لتسريح شعر اللّحى. إبرة البندقيّة توتى من الجانبين. الحمامة ينفرط الريش منها وينقطع النفس المتشنّج في خفقان الجناحين. يا أيّها الأيك ! كيف تميّز بين هديل وحشرجة، والبكاء بكاء ولا شيء غير بكاء ؟

للقصيدة الأولى بعد العاشرة :

لم تنقطع أنفاسه عن التنفّس الصناعي. الأساة كلما تدفّق الإغماء فيها كبحوا جماحه بحامض الكبريت. تقمع الخلايا يابسات في الأنابيب بزيت دبق. ينتشر الدرن بين الظفر والإصبع. تستعر نار جدل أقلّ دفئا من مناخ بارد. (جنازة حاميّة من أجل فأر ميّت) يدخل في زراعة الأعضاء عنصر السماد. تتمرّد الدلالة على القماش والفرشاة واللّون. يجوس قاتل خلال زحمة المدينة مبشّرا بموت رائع. ويخطئ الأساة في تشخيص جلطة الدماغ بالصدى. (لا هي تأبين ولا ترحّم) لا بدّ من دم ملوّث لسحب رخصة المهنة من "بقراط" . لا بدّ من الفالج للعظام حتّى يستخفّ الحبل تحت قدمي مهرج بما تقول الجاذبيّة لريش الطير و"نيوتون" والتفّاحة.

القصيدة الثانية بعد العاشرة :

أفاجئ الأشياء تهذي خارج الإيقاع، أنتشل صورتي من الإطار. أعتقلني. أعتقل الفرو الذي يخلعه الشعر على دميته اللّغة. أطلق سراح الفرح البسيط من عقاله. يا أيّها الجيل المراوغ ويا حفيد جلاّدين أذكياء ! لا ألتمس العذر إذا نفخت أنفاسا بطيئة من السيجار في أرواحكم، فإن نصرا واحدا ومائتي هزيمة، يشاكسان

الخوف والندم، يدمنان حالة التقمّص. يصرّان على تجرّد التراب في الدمية واللّغة والإطار والصورة. أبتكر لي ذاكرة أخرى وللأشياء نسيانا وأفتح كتاب الشعر للناس على مصراعيه.

القصيدة الثالثة بعد العاشرة :

"ليّا" حلّت في خمس نساء. أغرت بندول الإسطرلاب بتعطيل دلالات الطقس. استغنت عن زلاّجتها أثناء تزحلقها فوق الثلج فرارا من ذبحة صدر مزمنة، (كورال إغريقيّ في البلقان) وتعويذا من شرّ العين النفّاثة. (جوع صوماليّ في القرن الإفريقيّ) ولما توتى في موسم جني الأعناب على عشب رطب، تختار لها دون مخاض طفلا من هؤلاء الخمس، وأنهارا من لبن للطفل، ووديانا من عسل للثّديين، وأكياسا ملآى بالألغاز. وراء طفولة جلاّد ويفاعته أمّ خنثى. كم هي أمومة هذا العالم "إيروسية" !

القصيدة الرابعة بعد العاشرة :

"لبيد" تضايق من وهن العظم. وجّه تحذيره المتحفّز للكائن المتورّط فيه. ثمانون حولا وما تعب الجلد من حقنه بالمخدّر، من رئة تتنفّس عطر طفولته في العرار ونجد، ومن رئة تتجرّع ما ذرت

الريح. (تلك العشيّة ما بعدها من عرار) أسرّ لبيد لصاحبه بعد إفسال حبل وريد غريب على رئتيه : "تشبّث بأوراقك الذابلات ! وإياك أن تتخلّف عن جلسة خصّصت لاقتسام المواريث ! خذ حصّة من حماقة "نيرون" . خذ حبّة من فصاحة "سحبان" . خذ مسكة من تبتّل "رابعة العدوية" . خذ خصلة من ضفيرة "عشتار" ! واحمل على كتفيك المسافة ! زحفا تسير المسافة. هرولة تتراكض رجلاك. شيخوخة الأرض سافلة تتأفّف من عثرات خطى وخط الشيب مفرقها، وتوطّئ للزمن الرثّ أكنافها." (ميّت العصر يتعب في حمله النعش).

فاس، 1999.5-4-3.24

قصائد إلى "دانتي ألليجييري"

(1)

لاعتقال المدى في حبائل إيقاعه. لاقتناص الطريدة، لابدّ من زاحف خلف ظلّ، ولا بدّ من شبح يحمل الظلّ، لا بدّ من أرنب يعشق التيه. يا سارق النار !تلتمس النار منك وقارا لجثّتها بلسان أبالسة ولغات ملائكة. يتطاير من " قلعة الموت" ريش بطارقة وبقايا المخدّر ذابلة بشرايينهم. يعبرون إليها الفرات ودجلة، والرافدان معا يقطران دما.

(2)

يخلع ميناء "باليرمو" عنه زيّه الصقليّ لتعويضه (ياقة من الجوخ على جوانب الكمّين) بالزيّ الذي لبسه جبريل في جحيم دانتي.

لا براءة لليل يتورّط هزيعه الأخير في اقتفاء خطوات عاشقين أعطيا "للكاميكازيّة" طعم الانسحاب المتدرّج من الحياة. صحو "الأوفرودوز" كاذب، لسوف يبقى منه في الميناء ما يخدّر السفن. هل يبزغ نجم السعد من ريش ملاك حارس يدرأ عنها غالة الأنواء ؟ هل يحتفظ البحر بحقده على سحرة هشّوا عليه بالعصا، تذرّعوا بأنهم صعاليك ؟

(3)

كلمات ثلاث لهنّ أظافر : نعي مقابل نعش، وسيف مقابل نطع، ورعب مقابل لا شيء. هي ثنائية الأرض محض ازدواجيّة يتناسل منها رغام يؤول إلى نفسه. (نزع ملكية واحتفاظ بمفتاحها) يسكن البيت في غرفة النوم. يسكن في الكلمات الثلاث. تقام الشعائر فوق سرير تعوّد تقديم خبرته الأزليّة للجسدين الغريرين تعروهما هزّة ثم ينتفضان، كأنّهما اقترفا لغة قلّم النوم أظفارها. كلمات ثلاث، ويسكر بالحبر لفظ، ويسخر معناه منه. الصدى جاثم فوق هذا الفراغ الأصمّ، ودون الإشارة ما دونها من قتاد.

(4)

خراب هذا الرجل الأفطس ينطلق من قذيفة بدون صوت، زاعما أن "سنمّار" تفرّج على بديع صنعه من الأعلى، وما إن جرفته الجاذبيّة إلى الأسفل حتّى طلب الحيّ من الميّت فسخ العقد. "يا غمدان" !كيف سكن الغبار والصقيع والجراد في صالون الاستقبال ؟ كيف خرّ سقف الجاذبية عليك ؟ كيف زاغ السهم حتىّ ناسخت جثّتك الأنقاض ؟ كيف بذّرت ضفادع الليل نقيقها على مرثيّة للكائن الماهر فيك أنت ؟ كيف هادن الزلزال أحجارك حتى جمّعت في عنق الزجاجة المواسير ؟

(5)

لصالح انتشال حقبة من الوقت تساوي عدد السنين والحساب، تعدل بعمر ثالث. لصالح الكرسيّ عاطلا ينشّ أثر الغبار عنه، قام "دانتي" متحسّسا خرير الماء والصمت الموشوش، مراهنا على حصّادة تلتقط الحبّ من البيدر قبل نضجه في رحم السنابل السبع. من الصخب يقتطع حلما، ومن الصخب يستعير ليلا وسريرا ، ومن الصخب يستمدّ قدرة على التأويل. كلّ الفلسفات شهدت ميلادها وموتها في صخب المقاهي. كلّ الفلسفات تحت جذع نخلة يجيئها المخاض.

(6)

ومراعاة لطقوس السرّيّة في هذا الدير النسطوريّ، تقيم الأجساد (حفاة) للأجساد (عراة) قدّاسا ليليّا من أجل رؤوس يجري تتويج نواصيها بأكاليل الغار اليابس والعشب المدبوغ. رؤوس ما فيها شبر مخضرّ يحظى بالإعجاب ويوحي للحلاّق الإشبيليّ بسرّ المهنة. يستثنى من هذا العري الفطريّ "الكوسموس" الأفلاطونيّ، وتستثنى منه المسؤولة عن ربط الغيم المائيّ بنهر الجوزاء، وعن إيصال التيّار إلى إيقونات الدير. بتولات يستجدين قناعا لأمومات وأنوثات صوريّة.

(7)

تستأنف السفن في "الأدرياتيك" سيرها العابث، لا تأبه للأنواء. من مرصد "غاليلو" ومن فردوس "دانتي" اقتبست حدس المنجّم وحسّ "الميلودراميـة". مجراها ومرساها رهينان ببثّ الشعر في الفلك، بانقداح نار الحلم في الفلك والشعر. كما حملن نوحا والذين معه، حملن في القمطر "صرافا مدلسا" ومعه وصاياه : توكأ بدهائك على المجذاف والمحرّك التعب !بسّط المعايير !وقاتلِ حدّ أن تشقي أعضاء قتيلك بتخدير محليّ، فلا مجال بعد لرسوّك وإقلاعك في المحيطات"

(8)

عقول سماوية في الكتاب وأرضيّة في الفهارس، يحمل ثقلهما قرن ثور على ظهر حوت. تميد لطيشهما الأرض. "دانتي" بنى عشّه بالحجارة ضدّ الزلازل. هاجمه الظلّ حتّى تساقط من فوق جثّته المتوفّاة. (ظلّ الكتاب فهارسه) كان يخرج عنقاءه من جحيمه. كان يذرّ الرماد على جمرها. كان يودعها في دهاليز جنّته. كان يعجب ممّن بنى معبدا في الكتاب وبرج مراقبة في الفهارس.

(9)

احتجّ الخفّاش على قسّيس "طاويّ" قاسمه سهد الليل. الديجور له، ولباقي الطير النور. اهتمّ القسّيس بتأسيس زمان أعمى، واهتمّ الخفّاش بتشريح معاني "بياتريس" حبيبته، (وجه برؤوس ستّ) أغبى طير لا يقنعه صيّاد بمهارته لما يرمي حجرا ويصيب به عصفورين اثنين. وردّا للدين احتج القسّيس على الخفّاش. اختلقا للشمس ظلاما وضياء لليل، وطارا نحو الأجواء العليا. لا يبكي "دانتي" اليوم، (سيبكي بعد غد) من عادته أن ينسى عينيه معا في غرفة نوم "لومباردية".

فاس، 1999.12.18

آفاق الخبرة المفتوحة

مغارة الجوع

عاجوا في الصيف على "تدمر". اشيء عليهم غير لباس الجوع، ولا شيء عليها غير وشاح التخمة. همّوا أن يقتطعوا من راتب "زنوبيا" كسرة خبز جافّ. (تدمير لفارغ بالعامر) صبّت في أعينهم محلول رصاص. لم ينبت دمع عشبيّ فيها. قامت من نوم كنعانيّ. أجرت تعديلا صوريّا للدستور البالغ سنّ اليأس. أضافت حرفا من شيخوخته لإمارتها ومحت من زينتها حرفين. (يجوع الماء ولا يظمأ)

البيضاء، 1999.10.5

عراء الذب

فراؤه الثمين
يخلعه تحيّة لقيصر يمرّ
في عربة تجرّها الكلاب.
يلبسه شماتة في معطف "غوغولي"،
يحمل في أخفافه وذيله أوسمة فخريّة.
لم يمتشق سيفا،
ولا احتفظ للحروب في جسده بخدش.
وفي "سيباسطبول"،
ارتفعت درجة الحرارة،
في برثن وحيد
بقي في جثّته المستعملة.

البيضاء، 1990.10.5

تجاعيد البيت

يفتح البيت بابين للشمس من كوّة النافذة
لا يراعي لدربوزها حرمة
مع أن مصاريعه موصدة.

أتقمّصه في الظهيرة

أخلعه في المساء.

الإطار الحديدي والخشب المتآكل،

محض فراغ عجوز،

ولون الزجاج ضرير :

شفافية الكبرياء تطلّ على اللاّمكان.

غادرت مهدي في طفولته، سريرا في يفاعته، ونعشا في كهولته. لسوف أسابق السنوات، أغزل لي خيوط مخدّة وسدى لحاف، لو يعود الشعر يملأ وحشة البيت.

كان انسحابي منه تعديلا طفيفا لاختلال العمر. تنهمر الكوابيس البذيئة منه. ينزف منه حبر العجز. يا من دعّم الحيطان بالأوتاد، والدرج الكسيحة بالحجارة، والسقوف بما لطول الخيزران من المهابة.

لا يكبر المهد ـ السرير ـ النعش إلاّ باعتقالي فارغا مني، وممتلئا بدفء البيت. إلاّ بانتشالي من سبات طال. من أرق بإحدى مقلتيه صحا وبالأخرى تناوم. شاء ربّك أن يعذّب هذه النملة،

فأعطاها جناحي هدهد كسلان.

تربّع "سيوران"

على رفوف المكتبة،

وضايق ابن قارح المعرّي،

ونافس الشيطان "فاوست" على ثمالة الأوراق :

مترعة حتّى الجمام هذه الكأس التي شرب منها "هوميروس" دمه، وعدّل "بروست" بها زمنه الضائع. طاوعت هوى النفس فشيّدت ضريحا فوق هذا الرّفّ لي و"لأبي حيّان" .

كأنّ الصوان الحديديّ

يعلّقني من ثيابي على مشجبه،

بأرديّة ساميات

بأقنعة حاميات،

ب"كيمونو" من خالص الخزّ،

بدرع مطعّمة بالنحاس،

بجلد المها وفراء السعالى وريش النعام

يحربئني. تتحربأ فيه الثياب.

في البهو جالس ظلّه ظلّي. لم يسألاني عن طنافس صوفها احتفظت بذاكرة الغبار.

لم يسألاني عن ستائر بدّدت عمدا شفافية الظلام.

لم يسألاني عن حقيقة فارغ في وهم ممتلئ، وعن حجر تناسل من حيادي.

لم يسألاني عن أريج غامض شهوانيّ، نسجته أيدي العنكبوت على الزوايا.

ولأنه نبتت أمام الباب عوسجة يكشّر نابها عن سمه الناقع،

داهمتها بقناعيّ الواقي من الأشواك مخمورا ومنبهرا بباب لا تجامل ذاهبا إلاّ ليرجع، لا تصافح خارجا إلاّ ليدخل.

أرضة الكتاب،

ونملة الصرح وفأر السدّ،

والشبق اللفظيّ فوق قشرة الغرف والحيطان والسقوف،

وبعض ما ورثه الناطور عن فزّاعة الحقل، وعن صفصافة تفتح للطفيليّات جذرها المعروق.

كـان علـى العنوان كي يرسخ في ذاكـرة البـيت ويخـتـرقـه الزمـان والمكان،

من الزوايا الحادة،

أن يتعرّف علي صورته ريش الحمام الزاجل.

فاس، 1990.10.7

أورغانون

يعنى بوّاب "الأورغانون" بترتيب فوانيسه أيّام الآحاد صباحا :

زنّار صـوفيّ في عـروته وردة قطن. "سلـهـام" بخطوط رقطاء وباقـة أفيون كيماويّ.

لـم يخلق "أورغانون" لسوى تهديد الموتى بحياة الظلّ.

هل يجري في شريان القنّاص دم لو لم توجد أرنب ؟

يحتال "ألأورغانون" على جسد رطب

لم تنبع من رأس أصابعه أظفار

يحتال على رسّام مجنون

بإعارته شحمة أذن مستعملة، تعويضا (يستدرج رسامون صبايا

ممشوقات لمراسمهم دون أسرّتهم) عن باليّة قدّمها لامرأة إقرارا بجميل الفرشاة عليه.

يحتال على الروزنامة
بإضافة ساعات لزمان الفرس الآتي من أوراق التقويم العبري، لأن الأبطال أرادوا تدوين ملاحمهم في هذا العصر العانس.

لاستيعاب مضامين "الأورغانون"،
لا منجى من تسريب الملح إلى رمل الشاطئ.
لا منجى من إعداد قماطر جلديّة،
فيها ديوان الشعر.(طرود ملغومة
من دار النشر إلى عنوان الشاعر)
لا منجى للضرّة من دفء ربيب فحل ينسيها ليل أبيه الثلجيّ.
لا منجى من ترويض الدبّ على رقص إيقاعيّ،
تبديدا لسليقته البيضاء على فروه.
ويقول "الأورغانون" :
"العالم هذا كشطارة سمسار رحب،
وكسم الإبرة ضيق".

فاس، 1990.10.13

تحت خيمتك أيها الراوندي

يا راوندي !

لا تأخذ إنسانا بجريرة أنثى جافته وآواه سرير ابنتها. حملهما في "راوند". مخاضهما في "راوند". ولادته من صلبهما في "راوند". فيا أغصان صنوبرة !فرعاء تسمى "راوند" احتفظي بشهادة ميلاد بيضاء منقّحة من أخطاء المولود على ظهر سريرين وراموس فرعونيّ بثلاثة أركان !

اجلس وأنت جالس بقدر ما يتيحه لك احديداب الظهر، وانتقل إلى الخيمة، كوّم كتفيك في المدى الفاصل بين الجذع والأطراف. إن ضاقت من القمّة تتّسع في السفح. سماء هرميّة وبضعة نجوم خلفها،وفي خبائها عشيقة تحبّك بعيدا وقريبا تشتهيك.

هلمّ إليّ بتلك الطقوس أضيف إليها زوايا مربّعة، ورؤى حلزونيّة سال منها سعال بطيء تخلّص من عنفه صدرها. سأضيف إليها دما لا تشيخ خلاياه. (تحسبه لبنا خالصا) هل تطول صلاحية الدم للدم بالنسب المتوارث أم تنتهي بمجرّد حقن التراث بها ؟ رائع أن تحبّ وأن تشتهي على البعد من سوف تلقاه في القرب مختبئا في الخباء.

كينونة الخيمة لا تهادن الريح ولا تسدّ بابها ولو ترنّحت وسقطت. غضبها يكبو وهو واقف، وغضب الريح زئير عابر مراوغ، سرعته تخفّ في الصيف. كأن نخلة منذورة للسعف اليابس والجريد والبلح والتمر تحرك به الأرجوحة الحدباء. لا يجبره على التنازل عن الهبوب، عن ملحمة الهبوب غير "أخيل" الإغريقي.

في البدء تعالى وجهي شبرا عن طول قفاي. تسلّق ظلّهما أعمدة الخيمة. من باب صخريّ أدخلها كدخول الطيف الساري من ثقب جد صغير. بعد البدء توارى وجهي عنّي في أركان قفاي، لأن الثلج الأبيض أخفى أوتاد الخيمة حتّى لم يبق خيار لإعادة ماء الوجه إلى مجراه. (سباق ضد الساعة)

كـيـف اقـتـطعت تلك الخـيـمـة أزياء من أوتاد وحـبـال ودبابيس وأعـمـدة السـاج وكـتّـان منسـوج من زغب الصـوف وأوبار القطن ؟ وكيف اقتطعت من سطح الأرض مسافة ياردة منها اقتطعت سقفا شفافا ؟ (خط موشور ومساحته دونم)

شيء ما يدعوك إلى أن تجلس مثلي منتصب القامة لا عن تعب واسترخاء. شيء ما يجري في الخيمة.

فاس، 1999.10.22

ليلة الليل

ليلة الأمس التي قضّت مع الليل هزيعا شبقيّا، وعدتني أن يكون الأرق الصاحي عبابا، وأنا صوت رغائه.

ملء عينيه تجاعيد وفي بؤبؤ عينيها سؤال وجواب، وابتهال ماكر اللهجة في رسغ يديه ويديها.

يتّقي الليل ظلاما دون سنّ الرشد والطيش. مجرّات حبالى سوف لا ينفد منهنّ ولا منه احتياطيّ البريق.

بين نومين هزيع فاحم اللون، محارات عقيمات وفجر بين سهدين. زمان راحل إثر زمان غير راحل.

كيف أستأصل من صوف سريري ولحافي ليلة الأمس ولمّا يتخلص كبرياء الليل منها بعد ؟ عنف بين وقتين. ترى من سوف يمضي منهما العقد. لأنّ العشب أعمى يعرف الحطاب من وقع خطاه، خلت أني بين غصني شجرة.

يستردان حياة رحلت ليس عليها غير خفّين (لغير المشي) رثّين. استردا من خيوط الطلّ زخّات. حواشي الصبح لا ينفذ منها الضوء. لولا أنه باقة ريش بجناحيها، ولولا أنها طارت لضاقت سعة المعنى وألقت حملها الأرض على ظهر السماء.

فاس، 1999.10.25

مباءة الطواغيت

الطاغوت الخامس بعد الأربعين :

ابتهجت مرضعه بجنسها الثالث، وافتخر باستئجار ثديها الرضيع عازلا زمانها المبهم عن زمانه الواضح. سال في العروق مرّة دم وأخرى لبن، وفصل الفطام بين شبق الشفة واختلاجة الحلمة والنهد. (الضروع الأسيويّة التي تعمل بالذرّة واللّيزر مهما امتلأت أو يبست، تحلب بالأقداح) عند القدح الأول يكبر العناد، ومن الثاني إلى العاشر يكتشف عقل الطفل أن أمّه خدعت المرضع لمّا خصمت من أجرها راتب عام كان فيه الطفل يلهو بتصفّح "كتاب الدم" .

الطاغوت الخامس بعد الرابع :

الجذريّ في العمامة وفي البرنس، والبرص في القميص والجلباب. عاهتان يرتديهما الجسد والثوب. يساوي المارد الأصفر عملاقا ونصفا، ويساوي سيرة محكمة التخطيط تنشر غسيلها على حبال صيف وشتاء يافعين. صهوة الفرس عرشه ومنفاه. ومما يتكرّم به عليه ميناء " أغادير" من المكوس يمتشق سيفا وحساما بهما يقتلع الأعشاب والطحلب والصدأ من أصلاب أمّ قذفت به إلى اليمّ ولما يمتلئ بالماء يمّ. أغلقت من دونه رحمها المفتوح.

الطاغوت السابع بعد المائة :

معلّب داخل قمقم من الرخام. رأسه وما فيه من الأمعاء والنخاع لا يسترق السمع لما يقال عن فرار رجليه من العكّاز ما عجزتا عن اللّحاق بفلول هاربين كشفوا أدبارهم للحرب ؟ (خيزرانة من خالص العاج المهرّب) ولا يسترق السمع لما يقال عن علقة الإبن التي اشترك في تدجينها النخّاس والأب. ولا يسترق السمع لقصّة حفيد : فوّض الأمر لسيّاف وقهرمانة من أجل تأثيث حواشي البيت بالجماجم.

الطاغوت الألف بعد العشرين :

مخطوط في الدرج الأعلى من دولاب ملابسه تنقصه أوراق سبع، أملاه على بعض مريديه المحظوظين. كلام لم ترفع عنه السرّيّة إلا بضياع الأوراق السبع. ولمّا برّأهم من إتلاف مقصود قام به عنهم سوس مجهول الهويّة حتّى الآن. اعترفوا بأسامي شخص يدعى باسم حمارته، أو يدعى قفصا، أو يدعى جبليّا لصّا، (يتعالى اللّيث الجائع عن أكل الجيفة) أو يدعى فانوسا ضخما في مشكاة. أسماء المدعوّ بها أدّت تعويضا إجماليّا عمّا لحق الدرج الأعلى والدولاب من الأضرار.

الطاغوت الأول بعد الصفر :

أعفى حفّار قبور تقليديّ حفّارا غرّا مبتدئا من تعويض الجرّافة بالرفش، بدعوى أنّ الآلة لا تستفتي الأحجار ولا تلقي في روع التربة إحساسا بالإيقاع المكرور. سوى إرهاص الحفّار الساذج لم ينبت حول الدّمنة والجبّانة بقل وحشيش. هل يكفي في تليين عناد الأرض لعاب سماوات سبع ؟ من أين لمعفى من حرفته استرداد دم مهدور منطاغوت يشري سمعته بالثمن الباهظ من شاريها بالسعر البخس ؟ (الرابح هو الخاسر)

الطاغوت المولود حديثا :

تحصي "المعمورة " أشجار البلّوط لإنتاج مزيد منها لطعام النيران. كما تحصي أرزات ميّتة ما زال رماد فسائلها حيّا، أدلت ببيانات عن عود ثقاب ضالّ. ساوى بين الأخضر واليابس. يجري خرق العادة في هذا المأتم يوميّا. أعصاب الفحم احترقت حتّى عادل سقف الإنتاج سماء "المعمورة" . لا بدّ إذن من تأجيل ديون النار إلى جدولة أخرى، تقليصا للفائض عن سدّ الحاجة. لا منجى من تجهيز طريق سيّار بعلامات تغري عود ثقاب ضالّ بالعودة في قالب صلصال محروق.

لعله آخر الطواغيت :

حافيا "تعجبه رجلاه في النعل" وفي العكّاز. لو لم يسبق الأرنب في آخر شوطين، لقالوا : "في المسافات قصور كلويّ" . ماجنا كالقدح الطين، تقيّا كانسكاب الراح فيه. (بيد العانس منديل حرير جاهز للحبّ، لكن بيد العرّاب صوت وصداه) قاسيا مثل غبار الشكّ قد لا يهب العنقود صحوا لسماء الصيف، حتى يهب السكر لرأس لا يذوق النوم إلاّ بعد تقديم ولاء متحفظ.

فاس، 1999.12.15

حالات حصار بطيئة

وصيّتي إليك يا سيزيف ! أن تحاصر الصخرة والظهر معا بقوة الجذب صعودا ونزولا. لست مكّوكا ولا ناعورة، ولا محطّة استراحة، ولا نقطة إقلاع. عظامك تعوّدت على تداول اللّغو من الساق إلى الساق. تعوّدت على ثقل ركبتيك. إن للصدى هسيسه وللخطى فحيحها المبتور.

- تنفّس مفكّك يضيق فيه الجرس والترداد والمساحة.
- خشبة النير على العنق لا هي وسادة ولا قلادة.
- لباس قرنين إذا دعيت الجثّة للحضور في حفل عشاء راقص.
- تثاؤب الشعر في الذقن ما رفّ عليه غضب مفاجئ.

دمية حاصرتها طفولتها.

أينعت دون سنّ الدلالة.

يستعر الحصار في دمي كما
يندلق الحبر على ورقة بيضاء.

للكلام محطّاته،
وأنا الجدل المتنامي على ضفّتيه
وخطّ الوصول حصار.

أحسب أن وسطي
يحاصر اليمين واليسار:
رجلاي إن توازتا عثرتا،
عيناي من تحتهما هدبان.

آنست على جبل ضخم نارا.
طاردت على رغمي آثار شظاياها.
لم أشك إليها بثّي.
حاصرها إطفائي مغرور.

من أعلى أبراج مدينة "تومرت"،
راقبت حبالا سبعة :
في حبل ذكر حبل أنثى.
وحصار مضروب حول الحبل السابع،

لحصار العالم
بعصور حافية القدمين،
يرجى إفسال رئات مثقوبة
في صدر فلاسفة لاهوتيّين
(أنفاس بالقفازين إذا همّت بمصافحة الظل)

وأنا أغترف الضوء بكفّي معا، والضوء هارب.
(كان حبل الدلو أوهى من حبال الماء) فجأة
حاصرتني ثقة عمياء بالنفس ونسيان صغير.

جسد يحسّ حصاره ،
ويكاد تسبقه العظام إلى ردود الفعل.
لولاها المسامّ لجفّ ماء الوجه، واحتقن اللّعاب

ويزعم الصبّار أن شوكه حصار
يضربه حول غرور الغابة،
وهو ليس غير نقد ذاتيّ لتينة شوكيّة.
تصفيّة للذات من رتابة النماء والنضوج.
(للجاذبيّة يد بيضاء في حركة السقوط)

كنا في ألواح العرعار نحابي بالألفالباء طفولتنا.
ونحاصرها باللّغو الشمعيّ
لم يبق على جبهتنا منها غير الترجمة الفورية.

❑ ❑ ❑

يجري ترحيل الكنعانيين وتوطين السامانيين
في واحات الأسطورة :
أخطاء حصار موروث،
لم تسلم من أخطاء التصحيح.

أعامل الدهشة بالحذر. أستمدّ من غموضها نقاهة، ومن

وضوحها انتكاسة ومعنى ثالثا. حتى وإن سرت روّيدا في الهواء، أو مشيت حافيا ـ منتعلا على الحصى، ففي الأثير الغيم والدخان، في الثرى رماد، في المسافة الحصار. إنّني بغير هذا الجسد الأرعن لن أكون.

فاس، 2000.2.14

الرباط ـ البيضاء، 2000.7.13

ترميم المسلات القديمة

ترميم التفاحة :

ساوت بين "النيرفانا" و"اليوجا" . ساوتبين ثلوج القطب ورمل الربع الخالي . جلّ حصادي منها قشّ وهباء . أقصتني عن عمري . (عدّ عكسيّ هي الشيخوخة) طعم الكأس الأولى مضغوط، والأوهام الليبيديّة في الكأس الثاني . لمّا دبّ الفجر على خيطين وفاجأني عند الباب ولم يدخل، مخفورا بعرائي أخفيت التفّاحة .

ترميم هابيل :

يحترم الرفش الذي سبق موته إلى القبر، لما قدمه من التعلاّت إليّ وإلى جثّة هابيل وقد أثقلها الحياء من قاتلها . لم أتنازل أبدا عن الأناقة التي لقّنها لي الغراب . لم يعكّر أبدا مزاجه الموت المبكّر .

أهازيج صريحة وأقماط ومهد ودمى لعلّه ينزل عن عناده .(تسود ألوان الغراب كلّما حمل نعشا ميّتا لقبره المظلم) خيط عنكبوت خشن، وخيط شمس ذابل لم يمنعا "أوركيدة" بريّة من أن تريق العطر. كم يعيش جيل صالح من الدواجن على الكلإ والبرسيم والحنطة والصلاة !

ترميم آدم :

له واحدة لمعاقرة الفرح المستحيل، وثانيّة لانتشاله من نظريّة "داروين" حيّا، وثالثة للكتابة بالقرمزيّ، ورابعة لقراءة أشعار "فيرجيل" . كنت أصحّح أخطاءه دونما حاجة للرجوع إلى معجم طول أذنيه ياردتان. وسادتهنّ يداه، أسرّتهنّ ضلوعه. كيف يوزعهنّ على نزوة ويصافحهنّ بها ؟ وبأي وجيب سيخفق قلبه لو هو قسمهنّ على أربع هو منهنّ غيره فيهنّ ؟ سبحان من جعل الغجرية للّيل، والشركسيّة للشعر، والعدويّة للصوف، والجدليّة للطفل. سبحان من بثّ منهنّ آخر آدم.

حاشية :

مكان هذه الترميمات هو واحة الظل حيث يلتمس شروق شمس من بزوغ قمر محض، وحيث يقشعرّ جلد الماء من هول هبوب الرمل، وحيث الخطاطيف الحائمة لا تبشر بربيع في خوافيه ريش وعظام وأجنحة. عليّ أن أعلن عن حياد الصيف، وأوزّع قطرات من جذوع النخل على ما بقي فيها من بلح عنيد. عليّ أن أختار من جوعها جوعا لي، لكن عليها ألا تبدّد صخبها العارم حتّى أتحرّى عن أيّ الشروط هي أصلح لنضج الرطب. أنا الأكثر صمما والأقوى إصغاء أريد الاختلاء بطفيليّات الواحة، أساكنها لأستدرجها إلى حيث حتفها.

ترميم المعري :

الهمس أكثر اللغات خجلا من نفسه. دوائر الصمت التي يتركها اللسان فوق الشفة العليا تؤجّل انطباق الشفة السفلى عليه، ويجفّ الزبد الأبيض من تهافت الجدل غاضبا على الكلام. أنت أيها المبصر بالسمع إذا جنّ عليك الليل حتّى لم تعد تسمع ما تراه، قل - ملء لعابك - له أن يطفئ القمر والشمس، وأن يوزع الصمت على صداه، واغضب وأدر ظهرك للقمر والشمس ولا تعد إليّ متعبا إلا

إذا ضربت موعدا لصورتك في الخريف !

ميراثي من طسم وجديس : أغلال ومقامع من فولاذ. لم يسبق لي أن نازعني شخص في ميراثي ونجا مني. يوتى بالطائع والعاصي في سلّة خوص رطب، يلقى بهما في ماء طينيّ وغرين شمعيّ حتّى يختمرا. (مشنقة قمّتها من ساج، ومعارجها من آبنوس) زهّاد بيض، رفعوا سعر الوعظ الآليّ. جناحاي على ظهري وأطير ولا أتقاضى أجرا.

يا حاطب الليل اتخذ لك معولا عيناه فوسفور ببؤبؤه ترى الأشياء. ما في الغمر من شجر ومن حجر، ومن حيّ ومن ميت، لباس دافئ ومظلّة للّيل. (ما وجد الظلام لغير إخفاء المباذل) قد تصيب العندليب وتخطيء الكركيّ، لكن هل تفوز من الغنيمة بالإياب ؟ سيفتح المريخ ورشا آليّا لعلاج أعطاب المجرّات التي تسودّ في وضح النهار. إذا أخذت مسافتيّ رهينتين (هشاشتي وتواضعي) وأشرت من خطّ الوصول إلى انطلاقي. أيّ ضوء ساطع يكفيك ؟

حاشية :

من غيرهم أكثر إحساسا ببرصه العقليّ ؟ من غيرهم يلوذ بفلك لا يطير إلاّ بإذن الريح ؟ رأيتهم منذ العجينة الأولى، في حللهم، في صوالجهم، في ميراث يبدّدونه. (ما عندهم ينفد) حيوانات منويّة مدفوعة بالغريزة إلى شبع أصله جوع. خليّة نحل ينتقل زهر الحرمل إليها عبر امتصاص يؤول إلى لعاب لزج. رعيّة لا أمّة في آذانها وقر وأقراط معدنية. في أعينها شراهة سنّور غير مشبعة. في أيديها أساور- أغلال.

يجازون بيت شعر بخراب بيت مال. لا ترسم أظفارهم علامة اندهاش. يتنصّلون منها. لا يخلخلون تراب الأرض. تقنّن المزولة هذيان الوقت بمقدار اشتعال الظهيرة في الحائط. خريطة الجوع تبتدئ في المزابل، والمزابل نفايات التخمة، ولأن التكرير أهم إنجازات العصر والتصفيّة كبرى خطياته، فورق التلفيف يعيش مرتين بكرا وثيّبا، والأحذية التالفة لا تتأثر بالغوص في الوحل الاستوائي. ورعها في ضلالها، تبسّط القاعدة ولا تشكو. ولأن العقل حدس كلّه، يضلّ ولا يضلّل، فهو مع الحجا رقم مضروب في نفسه، وله فوق ذلك، قياس شاهد على غائب يمتدّان حدّ الموازاة، ويتقلّصان حدّ الاستنساخ.

لست عدوّا لشيء إلا بمقدار عدوي وراءه في سباق الضاحية. تحطيم الرقم القياسيّ سيّد العداوات. المداراة فعل أخفّ من ثقله، فعل أولى له الالتجاء إلى جحر لا يسعه. حدّ الجبروت النزيف، وحدّ الاستكانة النزيف أيضا. قديما سملوا الأعين وقطعوا الألسنة وسلخوا الجلد، وقديما أيضا جرى تقبيل الأعتاب. وفعلا، سقط جدار برلين المعاصرة، ورمّم العناد الأصفر جدار الصين، ولم يتسرمد غير الانتظار. كم هي قصيرة حياة التشفّي !

فاس، في : 21.6.14

تعديل قانون الصيد

(1)

يبنون المحميّات لتفريخ الحيوانات النادرة النوع. يقيمون شعائرهم في أقفاص الإسمنت. خرافيّ صوت تهجّدهم : نوبات سعال. يبنون أمانا للداجن من خوف الضاري. (لم يحدث أن صافح ذئب شاة) في "السافانا"، في أبراج المجموعات الشمسيّة يبنون ملاجئ أيتام قدرتها الإيوائيّة تحت الصفر. ملاجئ أيتام يبنون.

(2)

صيّاد غير نقابيّ بالمعرفة الأخرى، يعنى بكراء الأرحام، وتنظيم النسل، يصيد الماموث وأسماك القرش ذوات اللّحم الأبيض

لاسترضاء إلاهات غاضبة. كم يكفي من قربان لاستدراج مجرّات أبكار وعرائس بحر حوريّات ؟

(3)

إتقانه للغة الطائر والسابح والزاحف والماشي على الأربع ورّطه في حرب عصابات طويلة المدى مع الطرائد. يراوغ. يراوغ إلى أن يبلغ الشأو ولا يدركه. يحمل في جرابه مع المدى الأبيض والمسافة البيضاء أيّوب وصبره، وهو جالس على ضفاف النهر والبحيرة الزرقاء والمحيط فوق كرسيّ ورثه الفلك عن "غاليلو".

(4)

يا كلاب الصيد يا من ألفت أظفاركم نبش عظام دفنت في الطمي سهوا، وأعيدت خطأ للجبر والكسر! لماذا البحث عن مصدر تمويل جديد لبناء المحميات ؟

(5)

تستثنى من قانون الصيد "القيمرونات" الملكيّة، والفقمات الماسونيّة، والتمساحات العملاقة والميكروسكوبيّة، إلاّ إن أدلت

بقسيمة تأمين كالظلّ مزوّرة ليؤول إليها ميراث شبّ حريق مفتعل فيه. (الملح سماد البحر الميّت) إلاّ إن لم يحسن صيّاد موهوب تسديد السهم إلى أعلى بند في القانون الوضعيّ.

(6) طقوس الصيد :

تمهّل ريثما تستيقظ الحشرات عند الفجر ! واختر من كرائمها طعاما سائغا للشصّ ! كن صنّارة للشصّ ! وانتظر الصباح إذا أتتك "القيمرونات" محجّبات ! خذ ثلاثا من زعانفهنّ، حاورهنّ إن رضعت لغاتك من كلام البحر! زعنفة لردّ تحيّة من قائد الأسطول ألقاها على عجل، وزعنفة لوضع بنود صلح واقتراح طريقة للعيش تحت مظلّة الأقوى، وزعنفة لحثّ فواكه البحر المحيط على التناسل.

تجاوز سلطة "الأوبّيب" ما أدركت سنّ الرشد ! واخفض نسبة الإنتاج من آبار مملكة الرمال وساحل البلطيق ! أغرق فائض الإنتاج فيك ! لسوف تظهر في العباب جحافل الفقمات لاجئة إليك، إليك يا عيسو المخلّص ! لا تطاردهنّ، خذ منهن واحدة وسائلها عن استشهادها تجد احتضارك في ثناياها ! (ثناياها من العاج الثمين) الماء أثقل ما يكون وهو كبريت ونفط. ناقلات متعبات الخطو يحبو تحتهن الماء.

تعلم أن تحبّ عرار نجد ! (إنّما بعد العشية) أنفك المبعوج يألف أن يشمّ مـرارة الدفلى ولون زهورها. مـسـتنقع هذا الذي تصطاد فيه، وضاحك هذا الذي تصطاده. طف حول نفسك عاريا إلاّ من الحيل الرهيفة، واحترس مما يقال عن الطرائد في كتاب الشعر، (يا من لا تراوغه القصيدة كيف تعيى عن لحاق طريدة ؟) وانثر على العشب الهجين مبيدك الحشريّ ! ها تمساحة تأتي إليك بجلدها وبذيلها. خذها وجرّدها من الأنياب والأسنان !سائلها عن الضحك ـ البكاء تجد على عينيك من ضحكاتها دمعة.

فاس. البيضاء. فاس، 2001.11.20

Tabacaria

إلى أنطونيو بيسوا

سكنت بيتا غجريّا بينه وبين كشك التبغ عشرون ذراعا، وبقايا فرسخ. تسرّب الدخان من مدخنة الكشك إلى مدفأة البيت، وصادر من المسافة الفراغ. بثّ في شرايينك أنفاسا بطيئة المدى. يلاحق الدائن بالصبر المدين، ويهدّئ المدين ثورة الدائن بالتسويف. هكذا تدور عجلات القرب والبعد. أسائلك أنت ساكنا في البيت مسكونا بكشك التبغ : من يطلّ منهما على سفالة المدن، من هو سماد الشعر، من قامت على أنقاضه محاكم التفتيش، من أفل منه الماء حتى ظمئت سواحل المحيط ؟ كم وددتُ أن أسكن بيتك، (سكنته ولمّا أبلغ الحلم) كم وددت أن أبحث عن "طاباكاريّا" تبذل التبغ لمن يفتح باب رئتيه للسعال المتراكم،

و"للفادو" الحزين. هاأنا أخرج أرنبة أنفي مستخفّا بالتساؤل وإبرة لساني متشفّيا من الجواب. ها أنا لدى الكشك رهينة، وعند البيت عربون على الثقة. فوق المشجب العريان أترك قلامة من الشعر، (يوم كان رأسي معشبا) ومن غشاء علبة التبغ الرديء يبعث الرماد حيّا، ويمرّغ الشهامة على مرمدة الخشب. أوعزت إلى "الطائيّ" أن ينوب عنك في الوفاء بديونك وإلاّ فليؤجّلها إلى جدولة سيعلن التاريخ عنها في الخريف القادم.

((سوف لا يبقى من المزبلة إلاّ كثير من الحروب القادمة)).

عند التعمير الأوّل شيّدنا آلاف الجبانات على أنقاض المزبلة المهجورة. جهّزناها بوسائل وأد المدفون ودفن الموؤود، ولم نكنز في الأرض سوى "ديناميت" نظريّ ذاتيّ التفجير. قنابل عنقوديّات. خازوق جرثوميّ. سيف موروث عن أبطال القوزاق. وعند التعمير الثاني سيّجناها بحدود المعقول : ملاعب "غولف" ومطار ومحطات مراقبة في الأجواء العليا، وأقمنا جامورا لسطوع الرايات على جبهتنا، وكتابا في تفسير الأحلام، وإصحاحا مبتورا من سفر التكوين، وحيزوم سفينة نوح. هل كنت بها يا هذا اللّشبوني الشاعر لما غيض الماء ؟

((في كثير من المارستانات حمقى مأخوذون بكثير من اليقينيّات)).

هل تدري أني صمّمت على أنقاض وشاية فكر مأفون مارستانا رحبا يقضي فيه العاقل أيام إجازته، (تلك تعاليم مدينة أفلاطون) ومارستانا أضيق من سمّ الإبرة يطوي فيه المجنون العمر الزائد عن حاجته ! (تلك تعاليم "الشيخ الأكبر") آليّ من يعمل بالعقل الصاحي حيث الشكّ الشفّاف مهمّته يبدأها أو ينهيها بالضغط على زرّ اللّيزر. عقل معتقل في قاعدة دون استثناء، وعقول أفرج عنها سقراط ومتّعها بظروف التخفيف.

((ما أكثر ما حلمت "بنابوليون".
لدي في صدري المثقل من الإنسيّات أكثر مما لدى المسيح،
ولقد ابتكرت في السرّ فلسفات لم يكتب مثلها أي "كانط"))

مر على الكوكب هذا الكوكب الصخري فحل من سلالة العماليق وآخر خلاسيّ من الأقزام. حلاّ بتناقضهما معضلة العقم أصاب رحم الأرض وأجرام السماء. لقّحا البتول والمومس والعانس

بالمنشّطات الصيدليّة وغبرة الذكاء والعقاقير النباتيّة. لم يمر يومان على التلقيح حتّى أفرزت ضلوعهنّ من بطونهنّ ما حملنه. وضعن ما حملنه في بركة الدم. الصلاة شغلتهنّ عن القماط والرضاع. أولى مدن المعمور "موغادور". أول عبيد النار "نيرون". وأول متاجر بنقد العقل "زينون". وأول العصاة الشيخ محيي الدين. ليت أنني عرفت عنوان طبيبك وعنوان منجّمك. ليت أنني قرأت طالعك مما كتبا عنك من الكلام. ليت أنني نزعت من أحشاء برتقالة خطيئة همّت بها تفّاحة.

((أبدا، سأكون ذلك الذي لم يخلق لمثل هذا،
أبدا، لن أكون أكثر من ذلك الشخص الذي كانت له مواهبه،
أبدا، سأكون ذلك الذي انتظر أن تفتح له باب تؤدّي إلى جدار بدون باب)).

لا شيء يخفى من تعاليمك، تكره الطبيب والممرّضات والحقن والبنج. تثاءبت عظام غرفة الإنعاش بالمخدّر السائل من روحك في عروقها. صحت وأنت نائم تغازل الرؤيا وقد تناثر الغموض كالعهن على بساطها. أخجلت ما بها من التواضع المعقّم الطبيّ. هذا الخفر

المصنوع لا يلقي على الخدّين إلاّ خجلا ملوّثا بحمرة الخجل. لن تكون ما سوف تكونه إذا كنت الذي كنته. لن تسلم من مهارة النحّات ما دمت من المرمر مجبولا. مدينة الكنوز بابها أحنى على الداخل من حارسه، من دونه الريح وبضعة غزاة يصقلون صدأ اللغة من فرط سكوتها العنيد. بكبير جرأة أدعوك أن تضرب لي ولك موعدا مجنّحا وراء الباب ؟

((كلي "الشكلاط" يا صغيرتي،
كلي "الشكلاط" !
قولي لنفسك أن لا ميتافيزيقا غير "الشكلاط"))

يا أيّها العرّاف ! مما سوف تقرأه غدا في قعر فنجان من الطين، احتفظ لي بطعم البنّ والكاكاو والسيجار، لا تشرك بها شيئا، وقل لي : أيّ غيب سوف تتركه وراءك ! سوف أفسح في مخيّلتي مكانا فارغا مني وممتلئا بظلّك وحده. وحفاوة بالميتافيزيقا نعيش حياتنا زمنين في زمن، نودّ لو استعرنا فائض السنوات مما لم نعشه من الطفولة، لو تمهّلنا وأرجأنا اختصار العمر أو تمديده بالصبر، لو أنّا لبسنا الشيب قبّعة وتحت خيوطها نظّارتان سميكتان وعروة في قمّة

العكّاز والقدمين. (هذا ما سنتركه) لطعم الميتافيزيقا رنين البنّ والكاكاو والسيجار.

((جاء صاحب كشك التبغ إلى الباب ثم بقي خلفها.
أنظر إليه بانزعاج من تشنّجت رقبته
وبألم روح نصف معتمة،
سيموت وسوف أموت.
سيترك شعاره وسوف أترك أشعاري.
وفي لحظة ما سيموت الشعار أيضا.
وبدورها ستموت أشعاري،
وبعد أجل ما سوف يموت الشارع حيث كان الشعار
وكذلك اللغة التي كتبت بها الأشعار.
ثم سيموت الكوكب الدّوار حيث حدث كل هذا.
وفي كواكب أخرى من أنظمة كونيّة أخرى،
شيء شبيه بمخلوقات إنسيّة
سيستمرّ في كتابة نوع من الأشعار وفي العيش وراء الشعارات،
أبدا، شيء في مواجهة آخر،
أبدا، شيء غير مجد بالنسبة إلى آخر،

أبدا، مستحيل أغبى من ممكن،

أبدا، سرّ العمق أصدق من سبات سرّ السطح،

أبدا، إمّا هذا وإمّا شيء آخر، أو لا هذا ولا ذاك)) .

ياقوتة حمراء في إكليل باب الكشك، والزبناء أسرى التبغ في ياقاتهم فيروزة خضراء. أعرفهم بسيماهم، وأعرف أنهم مدّوا خيوطا من دخان نحو باب البيت. ثمّت فرصة أخرى لوضع علامة تهدي الطريق إليّ والشطّار والمتسكّعين إلى مقاسمة السماء غطاءهم، وصفائح الإسمنت صوف لحافهم. أشكو إليك تعنّت الأبواب والحجّاب. ممتعضا أحسّ تشنّج الجدران مثقلة بعمر خريفها، وأحسّ أنّ سلامة البرواز لا تعني سلامة صورة قفزت من التاريخ واندمجت بذاكرة الزجاج وقحّة الخشب المربّع. يا معلم ! لا تمت إلاّ وأنت بجانبي. إلاّ إذا استوفيت عمر قصيدة. (عمر القصيدة نوحيّ) وكما عهدتك، (لا يحيد الرمز عما تقتضيه لياقة المعنى) توزع رقم بيتك بالسخاء على روّاد الكشك، رقم بطاقة التعريف، رقم وثيقة التأمين، رقم شهادة الميلاد. هل يتأفّف الميزان من ثقل يعدل كفّتيه : الشيء في اليمنى وطيف الشيء في اليسرى ؟ لعلك عاتب مثلي على قدميك تنسحب المسافة منهما.

من دون أحذيّة ودون جوارب تمشي الدروب إلى الأزقة والأزقّة للزرائب. (للحفاء دلالة أخرى) لعلّ الكوكب الصخريّ أذعن صاغرا للكوكب المائيّ. ناما فاستراحا من عنائهما بيوم السبت. لا أرتاب إلاّ حين يبدو لي يقيني تافها يسعى لرأب الصدع في الجدران من عطب ألمّ بها، وردع رخامة العدّاد تنفخ في عظام الكهرباء الروح. مثلي سوف تبعث في القصيدة، في مقاطعها القصيرة كائنا نظّارتاه رهيفتان وطول معطفه كطول السيف. ماذا لو هجرت البيت، ماذا لو سكنت الكشك ؟ لو غضبت يداي فلا تشير أصابعي من داخل القفّاز للماشين فوق قبورهم. غضبي على وجه يرى الأشياء في مرآته. غضبي على مرآته عكست فراغا سافلا. غضبي على التشريح ينكر أن يعيد زجاجها المكسور للوجهين ماء سال من ظلّ وصورته. إذا رضيت يداي أطلّتا من خارج القفّاز، أومأتا إليك.

فاس، 2002.3.1

بعد تسع خطوات تحصي الأشياء رمادها

1

تقام أعياد التراب كلما تورّد العنب في الكروم. يخرج من العنقود كاهنا ويدخل إلى الهيكل زنديقا، وإذ يهبه الأرق نوما دافئا ينزعه منه على أسرّة الحلم. التراب الآن يحتفل مرتين في العام بنفسه بعيدا عن هموم الأرض. يختصر عمر الحيّ فوقه. يمدّ عمر الميّت تحته، وفي ضيافة الديدان والوحل والغموض.

2

هؤلاء رجال يرفون برانسهم بمهارات لم تخطر للإبرة والخيط على بال. أجنحة بالريش الطائر في حاضنة صفراء زجاجيّة ضاقت عن سيرة من مرّوا فيها. هؤلاء رجال أطفال فضحوا شيخوختهم. نابوا

عن أنفسهم في صنع بطولات لم يرتكبوها عن قصد. هم أولى منّي بسراب متلاش تحت غبار الشمس.

3

كلما اشتدّ بياض الصفحة الخرساء ضاقت بهروبي. ولأنّي قارئ يكتب جهرا ما محاه الحبر سرّا، قد تحمّلت غروري بعبارات أضيفت دون علمي لبياضي، وتوغّلت عميقا في متاه النقطة والخط. غبار الأرض جوعي ومداد البحر زادي. لست مسؤولا على غير عنادي، وعنادي فعله الحاسم تغيير الدلالات ؟

4

من ترى سوف ينفخ الروح في صوتي ويلقي على حباله نورا وظلاما سواك يا أيّها الصابئ الذي يكتب الماء على صفحة البحيرة والنهر؟سوى شاعر له قدرة السحر وسلطانه على الصوت. عندي أول الصمت والكلام، وعندي آخر الدهشة الأليفة. عندي قفص كلّما التجأت إليه ترك الباب مشرعا وأتاني يقتفي ظلّه ويشرب نخبي.

5

لست أنا من سيقرر علاج المومياء بغبار الحرمل البريّ والأشنة والتبغ ومسحوق قواقع المحار. وصفة قابلة للنقض والإبرام. تقتضي الطقوس أن تكون الهيروغليفيّة هي لغة الحوار بين ميّت ونزعة الخلود. حنّطوك "يا دالي" بدون الشنب المعــقــوف. "أخناتون" يضحك بملء فمه الأدرد. جرّدوه من أسنانه. "سعاد" هيفاء وعجزاء اشتكت من شاعر حنّطها في مطلع القصيدة.

6

أمامه القهوة في الفنجان والسيجارة الشقراء في مرمدة البلّور والكتاب نصف مغلق، وخلفه امتزج طعم البنّ والتبغ بطعم الوهم. هل يريد أن يسبق موته وأن يؤجّل احتضاره ؟ ماطله النجار يوسف كما ماطل قبله أباه، وكما ماطل بعده حفيده، وكاد خشب العرعار أن يصبح مهدا لثلاثة رجال بالتقادم. إلى أن تبرد القهوة، أن تنطفئ السيجارة الشقراء يطرأ من التغيير في أنظمة الفلك ما لا يقبل التسويف.

7

المقاهي محصنّة بزجاج مقوّى لقمع الفضول. الفناجين من خزف الصين والطاولات الصقيلة من آبنوس. تقوم الكراسي بنقل الرواد إلى جزر الحلم. يلتبس البنّ والشاي بالبابليّة. - والبابليّة بالقدح البكر يشربها الشاربون - (ممارسة العشق غير مطارحة الحب) مقهى "الوعول الأليفة" يرتادها قيصر بلشفيّ أضلّ الطريق إلى قصره بعد أن ذاب ثلج النوافير والفسقيات. ومقهى سعاة البريد)لهم من قماطرهم قارئ مرهف الحسّ لا يتعفّف عن فكّ لغز الكتابة إن ضحكت أو بكت. كلما التقطوا بأصابعهم جمرة من غلاف الرسائل، لم تحترق بالفضول أصابعهم) زبناء المقاهي فلاسفة وهراطقة عاطلون، لحلول حامضهم نكهة يتعقّبها علماء السلالات فوق الكراسي الوثيرة.

8

من إنجازات العصر الحالي أنثى هزّت جذع النخلة بالعنف، ولمّا لم تسقط منها رطب غضبت واتّهمت آلات الريّ العصريّ بتخريب قواديس السقي التقليديّ. زواج المتعة، يجري مجرى الأمثال. علاج مجّانيّ للطاعون. فراء "الكستور". (رخيص في الأدغال

ثمين في دور الأزياء) أريج لاهوتيّ في واحات ليس بها إلاّ مزكوم.
طاووس رسام يجترّ الألوان ولا يمهر إلا لوحات لم يرسمها ريشه.

9

"توبقال" العالي في قمته الجنيّات العزباوات اللاّئي يستقبلن المدعوين بأسماء تحتاج إلى ترخيص السلطة. أسماء أحسبني عشت حياة بعد نهايتها. ألححت على تمديد زماني في أخرى: أعوان الأمبراطور دعوني باسم فريسيّ في لحيته فانوس. عمال خراج الأمبراطور دعوني باسم غراب في صهوته طاووس بسنامي جاموس، شعراء الأمبراطور دعوني باسم ملاك يرعى قطعان فلاسفة لم يسبق أن وضعوا في ألفاظ سؤال لغما،أنصار الأمبراطور دعوني باسم قطاة صهباء أعارتني ريش جناحيها الرثّ، فما طارت نحو الأيك، وما طرت إلى من أهوى. هاهم حجزوا باسمي عشّا في القمة. ماذا يبقى لي ولهم من بعدي ؟

فاس، 2002.4.1 - 2002.9.2

أعلى منك بكاؤك أيّها الدمع الضيق !

في مناورة بالذخيرة، مات على مسرح "الأوديون" "عطيل" وعاش نموذجه في الملاحم. زنبقتان أصابهما وابل مرّتين، وعشرا أصابتهما صحوة الطلّ، أعلنتا هدنة بين محترفين هواة بكوا وتباكوا فما ارتوت الأرض أو غصّ من دمعهم عطش البحر. "عاد" تقمصهم واحدا واحدا، وتحمّل عنهم خطيئة " ذات العماد إرم " .

كنت آخر من حضر الحرب بين النموذج والأصل. بين المناديل والدمع. (لحمتها وسداها الحرير الصناعيّ) آخر من شاهد الصوت يعبر سنبلة الحلق والمأتم الكربلائيّ حبوا. وآخر من زار "بستان سعدي" (له عن مشاتل شيراز بعض التحفظ) يكتب مرثيّة لحياته ينشدها المنشدون مهرمنة بالزغاريد. (من مات فعلا بكى ميّتا سيموت)

كان مشنوق "باب الشريعة" مرتبطا ببكائه. كان كشيخ المعرّة يمزج دمع عماه ببوح القصيدة. (ينعش عمر الدفين الأسى المتجدّد). حبل الأنين العجوز تورّط (هذا جناه أبي) في انتداب رياح الشمال لنقل التحايا إلى ساكن القبر. من كحّل الشعر إنسان عينيه كيف يطير إلى خدر محبوبه باستعارة ريش جناحي قطاة ؟

لدموعه في قفص الزمن المسخ رائحة اللّف والدوران. أنا المتعود منذ سنين على سهده، كنت لا أتوقع من كبريائه أن يتباكى بعينين آليّتين ويبكي بالصمت. (إن كسر العجب مرآة "نرسيس" ماذا سيبقى له ؟) سدّ مأرب فاض مجاملة للحقول، وغاض احتفاء ببلقيس. أزعم أني الوحيد الأمين على حفظ أسرارها.

ولأني تبادلت أذكى الشتائم مع صنوبرة عصفت بجدائلها الريح واقتلعت من جذور التراب شرايينها ثم ألقت بها وسط النهر، (أيّهما صاعد كالبخار، وأيّهما نازل كالنيازك ؟) أكبرت أن أتنازل عن دمعة سوف تثأر لي ولها. عرشها الملكي على الماء، لكنّها الريح لا تزن الكلمات بمقدار ما تذرف الكلمات من الدمع.

هذه الحقبة الدمويّة كم حاولت أن تعيد التوازن لي، وأنا بين سيفي معاوية وعلي. بكى الغيم وانتفض الرعد من طول ما أرّقت "دعد" صاحبها الشاعر المتسكّع، يعطيك ما هو سائله، ويقاوم

إغواء تفّاحة العصر مهما تضوّر من ألم الجوع والظمإ المرّ. "دعد" تردّ بأحسن منها التحيّة. صاحبها بين صمتين يغز لما سيقول لها. للظهيرة عينان لا تبكيان. قذى فيهما.

كنت قابلت "فانون" في بركة الدمع. ذكّرني : أن قربان بحر "الزقاق" لهم، ونبوءة بحر "الكرايبي" له. ما تسوّل "فانون" للرأس خصلة صوف يداري بها الشعر الكثّ. ما خاط قبّعة من جلود الوعول لرأسه أبيض من صفحة "الألب" . ما بثّ فيسفر "يافث" بعض العقاقير تصلح من شأن "حام" ، وتبرئ إصحاحه من عمى اللون. يسرق صومعة من سيحفر بئرا عميقا لإخفائها.

"عين جالوت" ماء، و"جالوت" طين، ومن نطفة الماء في الطين ينبثق الدمع. (عذريّة الماء ناسكة في مزامير داوود) ممن تقاضى العمولة من شقّ نهرا وأجرى به سفن الدم ؟ لم يغترف بيديه معا غرفة منه حتى تصدّى له عند منعطف النبع طالوت. واعجبي من دم سال في العين ماء زلالا وفي النهر ملحا أجاجا. وإذ سكتت لغة الماء عن غضبي قلت في لغة الملح شبه كلام مريح.

هو شيخ على رأسه قدماه وخفّاه. حفظا لعجرفة النعل تمتهن الرجل، ينتهك المشي حرمتها. ولأنّي منحدر من سلالة إسكافيّ، أتخيّلني الآن أمهر من ساحر ممسك بعصاه التي " تتلقف ما

صنعـوا" . ولذا سـوف أمـشي على الماء، (مـعـذرة، أقـصـد الـدمع)
منتعلا حافيا . ولسوف أورّث تقنيّة المشي للعابرين بمحبرة وكتاب
يقولان في الليل قولا ليمحوه فلق الفجر. لا يرث الدم حمرته. هو
صانعها .

الرؤوس التي أينعت وبوضع العمامة يعرف صاحبها . والمعاني
التي لم تعان مخاض ولادتها، والبحوث التي أوقفت عند "ألفا"
و"غاما" تساؤلها . والسدود التي امتلأت بالغرين وعزّ على الحوت
أن يتماهى بها . والقرار الذي (أمويّ الهوى علويّ الطويّة) رتّب
"أرشيفه"، وبناصية الشمس جفّفه . كيف لي أن أدير لسانيّ في
الحلق عشرا، ولا تهراق على شفتيّ الدموع ؟ (تفقّدت أوردتي
الدمويّة وفق معادلة "ابن النفيس" وتحت إشارته) ميّتون بدون قبور
لهم كتبت أخت صخر مراثيها .

لا تزال التماسيح باكية . لا تزال .

فاس، 2002.6.13

تقرع باب المغارة يرن جرس الثلج

لن أصدق أن المغارة بين صلاتين مغبرّتين
أشارت على الثلج أن يتهاطل فوق غبار العصور الخوالي
بما أن "تازة" تقرأ بالصوت والضوء ما كتبته يداي،
وتنحت في الأزل الطفل والأبد الكهل للريح بابا، وللسادن المتيقّظ رائحة الباب.
(لست غريرا إلى حدّ أن أتملّق تفاحة أخطأت)
من ترى سوف ينحت لي في المغارة متّكأ وسريرا، وفي الثلج منتجعا للبياض ؟
أصرّ على أن أخطّ ضريحين عند المغارة والثلج لي ولسفري الذي كتبته يداي، ولو أن ملحا وماء ومن بين فرثهما يخرج الدم أضيع من كائن يتعرّض راتبه فجأة لاقتطاع بذيء. أطمئنكم أيّها الوارثون

الأوائل : تازة أحنى على شغبي من رطوبة "عاصمة " تتضايق من ساكنيها المجانين. شعريّ عرّابهم. (نسبة الحدس عاليّة في الجنون) ثقوا أنّني ضيفكم وأنازعكم إرثكم. لكم الأولوية يا أنتم الشعراء !

تازة ـ فاس، 2000.8.28 - 2002.8.21

ألياف "توبقال" الممتدة

عبرت نهر الثلج من سيولة الماء
ومن كثافة البخار
حتّى يبس الطين على حوافري،
وأينعت في الأرض،
عجينة الصلصال.
وقلت : "يا توبقال"
كثيرة هي النوافذ المطلّة على الجبال.
كثيرة هي الدرابزين،
والشرفات المتناثرة في "أغمات"،
ولا يطلّ واحد منها على البرزخ في سدرة منتهاه.
أيّ فتى ضبط ساعته

على مواعد مضيئة ! وما اهتدت إليه القمّة الحدباء

ما امتلأ بالصخور والتراب.

لهذه الأسباب،

عبرت نهر الثلج.

بمفردي عبرت نهر الثلج.

يبعد "توبقال" عن المدينة الشمس

وإيوان السماء بمسيرة تقدّر بألفي عام.

له من الأسباط والأحفاد :

مغارة بالطور،

وقمّة بالألب،

ووكنة بجبل الزيتون.

مرّ عليه غاشم جعله دكّا

فخرّ صعقا أمام هول الجبروت.

ومثل حبّات الندى

وما يخلّف الغموض خلفه من الصدى،

يبتكر المؤرّخون جبلا للصاعدين

المتسلّقين سقف العالم

ولهواة الزحف بالزانة والقفز على الحواجز
يهدون مترين ونصفا من حبال التوتياء.
الصاعدون الآن للجبل :
مقاوم يحمل بندقية وهمّ تنقيح الخريطة من التضاريس،
وهارب يخفي عن الأعين دفتر سوابقه في مغارة،
وقاتل " بقلعة الموت " ومقتول الوليمة "نظام الملك"،
وناسك يقرّب الشقّة بينه وبين الملكوت،
ولاجئ إلى "الأولمب" لالتقاط الوحي.

- لم يتقدم لك "يا توبقال" أن رأيت نجما سافرا ملتحيا؟
- رأيته تسلّق القمّة ناحتا على صخورها أسماءه.
- نعم، وكيف وضعوا ميلاده القشيب في ثلاّجة ؟
- ليستريح دمه من غرفة الإنعاش.

تازة، 2002.10.6

أحوال " ميزوبوتاميا "

مائدة أولى :

مشروع بحروف أولى
هو الباقي
من ذاكرة الساقي :
سكر بالراح وصحو بالنفط .

مائدة ثانية :

لم يفصح نصب الحرّيّة حتّى الآن،
عن نبل الرمز وعنف الفعل .
ماذا لو هبّت ريح الهنديّ الأحمر ؟
ماذا لو هبّت ريح الزنجيّ الأسود ؟
هل يبقى فوق الأرض
إنجيل منتحل دوّنه "فوكوياما" ؟

مائدة ثالثة :

أوراق حمراء اندلقت من تاريخ الدم.
غطّى أصقاع الأمس اليانع واليوم الذابل.
بعد الأوراق الحمراء، الأوراق البيضاء.
بعد الأوراق البيضاء كتاب الإبداع.
(عدّاد السرعة عدّاء محترف يجري ضدّ الساعة).

سيرة ثنائية لمدينة المآدب :

(1)

كالحرّة،
لم تأكل من ثدييها مهما جاعت.
قتلاها بعثوا في أسفار كتبوها
ورماها في دجلة عيّار منغوليّ.
ماء النهر الجاري لم يمح ولو سطرا منها.
ماء النهر حفيّ بوصايا أجداد تركوها للأحفاد.

(2)

أحيانا،
تمتدّ حشود الآفاقين

خلاسيّ خلف خلاسيّ.
لم يشرب أحد منهم نخبا في صحّة من يهوى
بعد نفاد البنزين
من آخر رقم في العدّ العكسي.
(القطّة لا تهرب من دار العرس)

سيرة مواطن حضر المآدب الثلاث :

ابن شرعي.
حتّى الآن حليب الشعر طريّ في أسنانه.
منحوت في جبهته سيف الحجّاج
الأول والثاني
والثالث والرابع
والخامس.
متّهم بالفطنة.
(من لم ينضج في فرن الحرب رغيفا، أو يعبر دجلة، أو يرحل في الحلم إلى بابل، لم يدرك أن الشمس اختارت موطنها في هذا العشّ الآمن. من أجل أشعتها سال الماء زلالا فيما بين النهرين).

فاس، 2003.3.25

مراجعات

مراجعة أولى

إلى "طرينا ميركادير"

بينما تتأخّر عن خطوها المتوغّل في فرحي، يتهرّب راموسها من عبور طريق تؤدّي إليّ. (أمام الزمان وراء سحيق وخلف المكان أمام دقائقه أبد سرمديّ) يطول الحديث إذا شئت أن أتفقّد وهميّ. (تفسيره في قصائدها) ويطول ولو شئت للصمت أن يتحدّث باسميّ عنها. (الحقيقة لا تتراجع عن خطإ وقعت في حبائله) عملتي ذات وجهين: لا ونعم. فلأيّهما الحق في الموت من أجلها؟ ولأيّهما يوشك القبر من ظمإٍ أن يغادر تربته، ولأيّهما ستؤجّل سرد بقيّة سيرتها الغجريّة (يسكت عند الصباح الكلام المباح) إلى زمن تتقاطع فيه الحكايات باكية. غافل القبر حارسه الأزليّ. أعاد إلى

القفل مفتاحه. فتح الباب مشتعلا. يهطل المطر الحيّ. تسحب من تحته الأرض ألوانها. ليس غير نقيق الحصى تحت أقدام من دفنوا في كلام أنيق يفوح من اللغة المتبقّاة في ذمّة الشعراء. من المتوقّع تخدير من مات بالصبر كي يتقبّل موته. لا يزن الجسد المترهّل مقدار شبر من الغضب المترسّب في العصب الهشّ. محدودب هو. من خفة المحتوى تتقاذفه الريح. بين الصعود بصخرته والنزول بها صدره حرج وتنفّسه واسع. (لكأنّ التراب العمودي ممتزج بالفراغ المجوّف) من يتكفّل عنه بتسديد دين تراكم منذ السنين العجاف عليه، وفي الظلّ نعش يسير وحامله لا يصل ؟

فاس، 2003.4.26

مراجعة ثانية

إلى أولغا بروشايزن

من باب نافذتي أطلّ بغير واسطة. أنا في برجيّ العاجيّ معتكف أراقب ما تناثر من تيار الريح فوق ظلالها الخضراء. لا ينفي المكان خروجه من أجلها عن طاعة الزمن الكفيف (الشهر يوم، نصفه سنة) غبار الضوء لا يخفي أشعّته. أحسّ غلالة التاريخ قد بليت

على ظهري. (اتّشحت بها طريّ العود) غيم غامض. خزف
كثيف. هالة شهباء. أجراس تجرّ رنينها. هي التي تعبت من التأنيث
واقتنعت بأن أنوثة الأشياء في المرّيخ محض ذكورة في الأرض.(قد
يبست جذور التاء في كل اللغات على حروف أواخر الأسماء) بين
ضلوعها قلب بألوان يناسخ بعضها بعضا، وقلب غدّة صمّاء. لم
نجرؤ على تلميع صورتنا بمسحوق النشادر. كالدمى كنّا. رأت قمرا
تسلّل من محيط الليل صوب سريرنا. ورأيت خيط الفجر يمحو
صورتي فيها ويسحب ساخرا من تحت أرجلنا بساط الحلم
والتأويل. من منّا يعطّل ما تبقّى في صماخ الأذن من صمم.
بنصف إشارة يدعو لسان الحال (فوق اللفظ والمعنى) إلى فتح
الحوار إذا توتّرت العلاقة بين فجر كاذب وهزيع ليل صادق ؟ لا صلح
يعقد في الغياب ولا سلام مع الفراغ. يؤسّس النسيان مملكة على
أنقاض ذاكرة محايدة ترى ما ليس تسمعه. (المدى الأرضيّ موبوء
أعاليه أسافله) وحيث الظلّ منهمر على جسدين منهارين يمكن أن
أطير لأن أجنحتي بلا ريش، وأقنعتي لفرط الحزن شفافة.

فاس، 2003.5.7

مراجعة ثالثة

إلى فيرجينيا وولف الأخرى

أتضايق من دعوة كتبت في غلاف بطاقتها بالحروف القشيبة أسماء مرسلها وعناوينه، فوق عنواني واسمي ورقم جلوسيّ فوق المنصة أو تحتها. هكذا هي حين دعتني إلى حيث أجلس منها على بعد ياردة. (من يخاف تعاويذ "فيرجينيا" بعد ما انتحرت ؟) شكل وجهي على غير شكل قناعي. زحفت بكلّيتي نحوها. قلت: "سيدتي يحصل الشرف الآن لي أن أكون سماء بزرقتها سترين غرورك في صورتي". هلّ من وجهها المتورّد، قطر ندى ورذاذ من الألق المتوحّش واجتاح ذاتي. تضاءلت. يشبه وجه البغيّ المرايا الصقيلة. (لا يعكس الظهر ما عكس الوجه) كم للوقاحة من أثر في براءة متّهم بالبراءة. لا أتأسّف معتذرا عن حضوري ولا عن غيابي. ركام من الظلّ والضوء سال على بعد ياردة من مكاني وبرزخها. حاجز شائك حال دون سقوطي أمام توهّجها. ذابلا كنت أقرأ في وجهها سيرة امرأة نذرت نفسها لانتحار بطيء على صدر محترف عاشق تتقرّب باسمه للموت حبّا. ولولا انطفائي لوشّحت وجهيّ بالغار دون قناعي. بمحض اختياري أبحث ذكائي وإنسيّتي لمساومة البيطريّ بسوق النخاسة. همهمت: "سيدتي مر وقت

طويل ولم نبرم الصفقة. الآن إنّي على موعد مع صمتي وإنسيّتي. لا أحبّذ خلف المواعيد. سيّدتي لا تقول المحارة مغلقة سرّها. لو نفذت إلى عمقها لعثرت على صورة لك فيها بدون إطار.

فاس، 2003.5.10

مراجعة رابعة

إلى آخر بلقيس

مرّت مرور الطيف عبر الصرح وانفردت غريمتها بها. غضبت عليها بعدما لبست ضفيرتها ووشّتها بشعر مستعار لا تحركه رياح الشوق. لم أجرؤ على التمييز بينهما. رحيقهما شرابي. هدهد أعمى تقوده نملة زرقاء سافرة. (ينافس ناظر المكفوف زرقاء اليمامة في اختراق الغيب) واحدة وتحت وشاحها نيسان محتجب، وثانية تغار على مياه السدّ. شرخ في جدار الصرح منه تسرّبت لغة الطيور وقاومت لغتي التي شاخت على شفتيّ حتّى جفّتا. احتقن الكلام على حواشيها ودان لصوتها الخفقان. يا بلقيس! عفوا. أينما وليت ثمّت من يلاحق ظلّك الأصليّ باسمي. (سحر ساحرة تلقّت علمها في أرض بابل) لا كيان لباقة الألوان والأشكال إلاّ أن يغيض الماء والدم في عروقي. ما تعرّت من غرائزها ولا احتجبت. بوسعي

أن أطير ولا أراوح موقعي. (من ذا يظنّ بأن قاطرة المجاز ركوبها سهل ؟) أكلّل جبهتي بالغار يا بلقيس، ليس لأنني بطل الملاحم، بل لأنيّ ناسك متشبّث بسمائك الزرقاء. (معنى من فلول الصمت يبحث جاهدا عن سرّ لا معناه) أقرأ في كتاب العمر خاتمتي، وأقرأ في الظلام شتائل الدفلى بغير

قراءتي لزهورها عند الصباح. الرخّ والعنقاء في ريش السمندل، والحديث بمنطق الطير الذي علّمتنيه. لنا غد ريّان فلنسبق إليه زماننا. شطّ المزار ودون صرحك غابة سوداء.

فاس، 2003.19.5

محاولات يائسة لاعتقال المعنى

شروخ اللفظ. صوت ماجن يمشي على حبل ولا يسقط،
ولا يصغي لأخطائه.
أراني لا أجيد القفز إلاّ فوق أسوار المدى المحدود لا يندى جبيني
عندما يطغى على صوتي الهواء الطلق. (لولا الصمت لاستعصى
على الغوّاص صيد اللؤلؤ المكنون)
قريبا من هديل الحرف،
بعيدا من إشاراته،
أنا في قمقم المعنى،
وظلّي باحث في الظلّ عمّن يفتح القمقم.
أوازي الوقع بالإيقاع. أدعو قارع الأجراس ألاّ يضبط الساعة،
على رنّات صوت المعدن الأخرس.

وأدعو البوم والغربان،

إلى تحرير صمت المعجم الحرفيّ من رجع الصدى المكفوف ؟ ما عندي من العاهات يكفيني.

لماذا أنتقي الألوان ؟ (سام، يافث، حام) كأنّ الأصل والصورة

على البرواز طين، رغوة بيضاء.

لأنّ الماء لا يختار ألوانه،

يسيل الشمع من زخّاته العمياء.

لأن المومياء وهي بين النعش والمتحف

ستحيا عمرها الثال المتحف المصريّ باستخلاص رسم من زوّار أدمنوا التحنيط. تخرج جثّة التاريخ من دوّامة المعنى

إلى حيث احتضار مبهم، جبّانة خرساء، ميناء لغير الوسق والتصدير. (حقّ النقض والإبرام مكفول لأقلام الرصاص) الشكّ والإيمان موكولان

لشرّاح تماسيح.

وما يبقى من التشريح،

يسمّي الليل آناء،

ولون الليل تخطيطا على برديّة رثّة،

وعجزي عن مجاراة الصدى الهارب

هزيعا جاهزا للحلم، فجرا ساهما يقظان. (أيّ اللحظتين البيع بالتقسيط أيّ اللحظتين البيع بالجملة)

ليحملني عمى الألوان نحو العالم السحريّ !

ليمنحني هبوب الليل عنف سرابه المكبوت وليسدل عليه ضراوتي ! يجتاحني بغتة

غموض الدهشة الأولى،

ويعروني انبهار غائم مخمور.

ظلام ضيّق يستوعب الملكوت والتيجان والقارّات. من يهدي لآلاف العصور السالفات توابل الهند ؟

ومن يبني لها صرحا على شط المحيط الهادئ الأزرق ؟

قديما دارت الأنخاب،

وكان الشعر لحظة،

وكان الشعر لا غير.

قديما كان

مداد البحر لا يعفي من الإحراج لو خطّت به الأسفار،

على أوراق عمر يابس الأوراق،

شفيف كالصدى العانس.

يغيض الماء في الأنهار،

ببطء سافل ينهار،

على أعتاب عنف شائك ينهار.

قروح النوم في جفن، صديد السهد في صنوه،

وتمضي الساعة البكماء لا تلوي على شيء. مداد البحر إذ يمشي

على رجلين أو يحبو على بطنه،

يريق الموجة البيضاء فوق الماء حتّى لا يكشف الماء

جهارا حبره السرّيّ.

القصر الصغير. فاس. البيضاء. فاس، 2003.8.23 - 2003.9.24

مراسيم العودة إِلى ما سيأتي

البئر إِلى الأسطورة :

ما زال البئر كما كان حليف الأسطورة.

ما زال السمسار ضمانا لوجود

الغفلة بين البائع والشاري.

ألياف الثلج البيضاء،

في جفني رجل باك ابيضّت عيناه من الحزن،

في أزرار قميص ضاحك.

قنديل سرّيّ يوقد من زيت توقد من مشكاة،

دلّ البئر على طين عشبيّ.

دلّ الطين العشبيّ على ذئب متّهم ببراءته

وسراح الحكائن من سجنه.

لا حدّ لآلامي وخلاصي منها
حتّى يقتنع الضاحك والباكي،
بقبول شهادة أزرار قميص مفتوح.
قرّبت الدلو الظامئ من حبل ريّان.
وتحرّيت :
أيّهما صاح في قعر الجبّ،
وأيّهما من فرط الغبطة سكران ؟

النهر إلى البحر :

يا هذا النهر اليجري داخل بحر مكسوّ بالماء !
يا تبغا سيّالا من غليون لا تصحو أنفاسه !
تعروني النشوة حتّى أبتكر الوردة للشوك.
أنا صمغ الأشجار النادر
من مثلي يصغي داخل ما تسمعه أذناه
إلى خارج ما تبصره عيناه ؟
من مثلي في طرفة عين يعبر
ضعف مسافة مابين النأمة والنأمة
صحوا تسري الكرمة في شريان العنقود،

وسكرا يجري العنقود دما في شرياني.
(ما أسرع من بطء السرعة غير الصوت)
كلّ الماء لهذا النهر،
وكلّي للبنزين إذا شحّ الماء.
من أجل المثل العليا أخطأت المومس
حين قضّت حاجتها من أقرب تفّاحة.
مطلوب منها ألاّ تسبح عاريّة ضدّ التيّار،
ومطلوب منّي ألاّ أغرق
في قيعان الجزر المرجانيّة
إلاّ وأنا في رفقة غوّاص
ومحام لمؤازرتي في محنة
رفع التهمة عن جهل الحكّام.

"الأومغار" إلى الملحمة :

أخبركم أنّي "أومغار" عملاق
عاصر حربين،
عانى في الأولى موتين
وفي الأخرى صيتا دوليّا

منقوشا في ألواح "وليلي".

(أسنان "الأومغار" كأسنان المشط)

في الموتين معا باح له جلاّدوه

بأسماء مالحة رغم كتابتها بحروف فينيقيّة.

أسماء نوّام عادوا سرّا من "إِيفيس" إِلى "إِيفيس"،

ناسين الأوراق الشخصيّة في أحقاب سلفت.

باعوني وتقاضوا عملة عصر حيّ راجت في عصر ميّت.

من أيّ هواء تقطر،

شمس عاليّة، في أيّ مساء صامت،

أبدو كفراشات رقطاء رماديّا؟

أعشاش يابسة في قرص الشمس

وأخرى في قرص القصدير،

من فرط الإِدمان على تعذيب الذات،

وزحف العمران.

(غلاّت اليوم الأبيض لليوم الأسود)

"اللوغوس" إلى الإنسان :

لست أنا من حاباه "اللوغوس"

بالخيمياء الموروثة

عن أهل الظاهر والباطن،

بل حاباه القيصر والربّ.

في فترة طيش جغرافيّ،

رتّقت خروم الشمع الجاري بين غريمين

بطاقات الأوكسيجين الفائض عن حاجاتي.

تّم طلاق رجعيّ بينهما.

(أيّام المتعة لا يستخلص عنها مهر)

مهلا،

مسؤول غمد السيف

عن إخفاء السارق في المسروق،

وعمّا جاء من الحكمة في "سفر الدم".

الإنسان إلى "الإيروس" :

خيط الغيث سماويّ.

أرضيّ خيط الطلّ.

وأنا من حاك لهذا الوقت خصوبته

ولموج البحر عجين الرغوة في أحشائه.

قد يستجدي فرو القنفذ

في أزمنة القحط قتادة،

من عوسجة تشكو من فائض إنتاج الشوك ؟

من أين لزهر الثلج

بسخاء "الإيروس"

إلاّ أن يتسوّله من رمل عنّين.

في الريح العاري رعد.

في العصف الأعمى برق.

في الإعصار المسعور رسائل مضمونة.

(يرجى إشعاري بوصول العنوان إلى صندوق بريده)

ما كلّ غصون يانعة زنبقة بريّة.

ما كل الشرفات انبثقت من أرحام مطّاطيّة.

التراث إلى بيت الطاعة :

ورّثنا سلفا عن خلف للآتين

حصّتنا في آخر حرب بونيقيّة :

بطريق في عرض البحر،

وشاهين فوق ذرى "توبقال"،

وببغاء في قفص مسحور.

قلت لهذي المخلوقات

بعد العودة من نبش قبور الميراث :

"ليكن إغراق البحّار التائه من مسؤوليّة البطريق.

ليكن أمن الطير الداجن من مسؤوليّة الشاهين.

ليكن تدبير اللغة الأنموذج من مسؤوليّة الببغاء".

"توبقال" إذا عاد إلى بيت الطاعة،

عاد العصيان إلى أحشائي نارا :

من شأن "اللوغوس"،

رفع الأمّيّة عن عقل "الإيروس"،

فما يجري بينهما إلاّ لبن الأمّ الأولى،

لبن النار.

إداريّا،

يترقّى الجدل الصاعد

بعبور ثلاثة أسلاك حلزونيّة،

تعتيم السطح، غموض العمق، فراغ المابين.

الريح إلى الهبوب :

"إفريواطو"

في باب مغارته منديل يغريني،
باستقبال الموجات الصوتيّة
توديعا لصداها المبهم
ما هبّ عليها صهد التيّار
لإيصال التيّار
إلى مسقط رأس التيّار.
منذ متى والجيرة بين الجنّة والنار،
زواج كاثوليكيّ عبر الأقمار.
بالتهويّة والتبريد الآليّ،
أحيّي المعنى من خارج مبناه.
حروفي واسطة بين الطائر والريش
التهويّة والتبريد الآليّ،
موصى بهما منذ القرن العاشر قبل الميلاد.
الصوت خيار للكائن،
والصمت خيار "الأوزون" المثقوب،
يجتاح الأبواب ويدخلها دون استئذان.

مهما كانت حجّته باطلة فالعودة للعقل،
تمّت قبل البحث الساذج
عن سرّ الصانع في المصنوع.
(هل تمحو الريح الأسماء المنقوشة في سيقان الحور ؟)

الهواء إلى التنفّس :

إن ضاقت حمّالة صدر ناهد
بأمانة ما تحمله من آهات.
بأمانة ما يحمله الثديان،
من شبق، من لبن،
من روح الأمّ وريحان الأنثى.
ما ذا يجدي العقم نموّا "ديموغرافيّا"
إن لم تسبقه ولادة،
بمخاض كاذب ؟
لولا أنّ هواء البحر عليل في الصيف.
لولا أن نسيم الليلك سمّ عاطر.
لولا أنّ صبا نجد رقّ،
لما كان عرار بعد عشيّة نجد مسفوحا،

ولما فاح على صفحات الأنفاس زكام نسبيّ.
في نفس واحد
يجري في رئتين
ما لا يحصى من ذرّات عاطلة
تنتظر العود إلى توزيع الفطرة
بالقسطاس على صدر مصاب بالربو.

الإعصار إلى الشغب :

ما جئت إلى نصف الكرة الأرضيّة،
كي أجتاح النصف الآخر من شقّ الباب.
من يخفي في هامش ساقيه هروبا محتملا
من طيش الإعصار،
مهما يسرع يلحقه الطعم المغري.
(عمر الصنّارة أطول)
عجزي عن جمع فلول المدن الغرقى
في سلّة خوص أخضر،
أي في غرفة إنعاش.
أسلوب مشروع في ردّ هجوم الإعصار،

فيا هذا الإعصار
ها أنت عصفت وما سجّل عدّادك في مصباحي
إلاّ بعض إشارات ضوئيّة.
ما تضحكه محض شماتة.
ما تبكيه خلاصة أتعابي.

البركان إلى صناعة الحمم :

جبنا منّي كاشفت البركان
بأنّي أبني مدنا يانعة في أحضانه.
علما أنّ فراشة،
أكثر منّي عشقا للنار
جناحاها أولى بمغازلة النور الحارق.
بضع صخور بركانيّة
ما زالت تمتصّ رحيق النفط الجاري في
عمق الصحراء.
ولهذا يحظى عصر الهكسوس بإعجابي
وأنا مقرور بين هزيعي ليل مقرور
يلتفّان أمام الكانون الناطق باسم النار.

(كانوني ويواري عن عينيّ رماده)
حاليًا،
ليس بعيدا أن يختار الشعر
رهبانا وقساوسة
من بين الحجّاج إلى "وادي عبقر"
حيث العنقاء
تمحو ما كتبوه على رقّ الأسطورة.
هل لي بسماد كيماويّ
مجلوب من آخر ملفوظاتك "يا فيزيّوف"
يمتدّ به عمري.
هذا الأفيون الأذكى من زهر الخشخاش،
جرّ النار إلى قرص الجار
وما اهتمّ بإيقاظ الفتنة في جمري ورمادي.

التنّور إلى صناعة الخزف :

التنّور شريك الخزّاف
في إبداع حلول وسطى للفهم المستعصي :
طين في هيئة طير سوقيّ،

آلاف الأيدي

ليس بها إلا ظفر فرد في أصبعه خاتم،

إغراق في فعل التجريد،

إقناع عجين الفطرة

بنضوج المادّة في الصورة.

(ما مبدؤه الغفلة أيلولته التيه)

أيّهما يكتب ما أرسم ؟

أيّهما يرقصه إيقاعي ؟

أيّهما ينضج في الخبز اليوميّ كفاف الجوعى ؟

لا شيء سوى تكرار الفعل الواحد آلاف المرّات.

لو عدت إلى مسخ الخلق الأوّل،

لاحتجت إلى استئجار نعيبي من بومة،

والريش الناعم من عصفور،

والتخطيط العشريّ

من تصميم النمل على إيقاف الزحف اليابانيّ.

لو عدت إلى مسخ الخلق الأوّل،

لاحتجت إلى تفسير حلولي في جسدي البالي،

بمعان أخرى غير صليل الضوضاء الموروث.

(ما عند البيت الخالي ما يتركه للموت)

الجحيم إلى صناعة العصاة :

كم حذّرت الزيّات من الجرذان

الزيت لها مثل الزهرة للنحلة .

كم قلت له :

"نظّف بيتك من زيت ذابلة في القنديل .

كن بدرا حتّى تدخل في الليل

إلى خدر الجارة من نافذة أو باب" .

(خطأ جرّ إلى نفع محتمل مشروع صواب في طور التكوين)

قلت له .

- عاص آكل تفّاحة .

- والتفّاحة ؟

- عاص شارب بنت الكرمة .

- والعنقود ؟

"أسرج خيلك واخلع نعليك وشاركني

الأموال وشاركني الأولاد وعظني !

بتواضع مغرور" . قال .

ضع آدم في تفّاحة،
واستودع عقل "نيوتن" في أخرى،
واستأجر يختا في طبعته الأولى
وعلى إيقاع المجذافين
في البحر العائم،
حبّر فصلا أو فصلين
من سفر "عيون الأخبار"
بعيدا عن أمر أو نهي،
واستقبل أنسام الصيف،
وإلاّ فاركب صهوة مأساة ـ ملهاة.
ساومها عن أرخص خان
في منتجع الفردوس !

"يعمل الهواء برئة واحدة، والتراب بما تحته وبما فوقه، والنار بحيلة الحطاب وغفلة الغابة، والماء بمنبع لا يدرك مصبّه. وما تفتأ الهدنة حتّى تصبح مصالحة بعدها تطبيع. وحال عودة الرمل إلى الشاطئ، والآبنوسة إلى طاعة المثّال يعود السدّ لا محالة إلى سبإٍ في حراسة مشدّدة، وبلقيس إلى الصرح رفقة ملاك حارس، والابن الضالّ إلى عالم مخلوق على صورته. ليس هناك من كائن أجدر بالشغب من

الأرض." (الشغب سماد للنضارة الآفلة)

أثناء توقيع المراسيم على العودة في مجرّة زرقاء (قيل إنها مملكة شيّدها الأقزام) جاء مارد عملاق في صفة درويش وسقّاء وراع بجراب وعصا وجرّة كحيّة تسعى إلى "وليلي".

بدا عليه أثر التعب. لم تعفه من أسر النقاهة صرامة الممرّض ولا حصافة "السيروم". (إن دخل لقمان إلى الحمّام هل تخرج منه داره أطهر من برنامج الإسكان غير اللائق ؟)

يعالج الجراب عسر الهضم، والعصا علوم السحر، والجرّة منع الحمل. أيّها الذي هرّب في الجراب أسباطا وأحفادا، وفي الجرّة عقّم المواليد، وهشّ بالعصا على الشياه الضالّة !

وقال: ما جئت لأطلب يدي "نبتون" من "عروسة البحر" بمهر كالئ. (لعلّ بخل العقل لا يقاس إلاّ بسخاء الجيب) قد جئت لأبحث عن الخلاص في الضحك والبكاء. في الدجل والسحر وفي الكائن والكيان عاريّين. (لا مفرّ من ورقة التوت ولا خلاص من عوامل التعريّة)

وقال: "هذا الكائن المكسوّ بالغرور نصف قزم ومارد سخّر في بداية الكون طواحين الهواء للرياح ومقالع الصخور للرجوم، رمّم

التـالف من أشعـة القـمـر بالإسـمـنـت والجيـر وغـبـرة النشـادر . " (هو القمر للشمس مظلّة وغربال يقي الأفلاك من مكر بنات نعش)

وقال : "من يبحث عن علاقة الضحك بالبكاء قد يجدها في لغة الخـشب كـتلة من الصـخب جـاثمـا على الحـروف والألفـاظ . من يبحث عن بخته في الدجل والسحر ومن يقرأ طالعه في الأبراج قد يجـده في لسـعـة العـقـرب، في تـنطّع الميـزان، في دلالة الدلو على حـبله، في سـذاجـة الحـمل تـشـهـد بما تـعلمـه عن ورع الذئاب، في الأسـد لا يأكـل مـا تعـافـه الطيـور، في الثـور الذي يلدغ مـرّتين من جحره في معابد الهند وفي حلبة "الكوريدا" .

وقـال : "في السـاحـر طعم الملح . في الدجّـال نكهـة التـراب . لا يسوغ لهما تبرير أخطاء الطبيعة بعلم الخيمياء . سوف يصعد بخور عـاطر من كـوّة المجـمـر، من تثـاؤب النار، وسـوف يـفـعـل الطّلّسـم في "مـاروت" مـا فـعله قـبـل "بجـالوت" جـنود ككـلام الليل يمحـوه نهـار الليل" .

وقـال في الأخـيـر للجـراب والجـرّة والعـصـا، وللدرويش والسـقّـاء والراعي كـلامـا مـبـهـمـا أنقله بنصّه : "يا حـادي العـيس احـتـرس من الغـموض ! خطوة فوق المساحة وأخرى تحتها، ويحتسي العبور ماء النهـر تحت الجسـر من منابت الطحلب حتّى الضـفّتين . وطن يـقـدّم

الياء على الألف منفى. وطن يقيل إذ يقال منفى. وطن يجرّد الخطأ من صوابه المعتاد منفى. وطن بالظلّ والصورة منفى. وطن يلعق من صخوره عرقها النفطيّ منفى. وطن بالرخويّات والحبارى والمحار وغرور البحر منفى. ليكن لك خيار الرفض نبراسا إذا كان خيار الشغب المفتوح موصدا بحدّ القفل والمفتاح."

فاس ـ القصر الصغير، 2004.4.6 - 12.7.2004

••

ازدهار صناعة الحواسّ

بشّار :

قبل عينيّ تعشق أذناي. من لا يرى بالبصيرة صوته منذ المخاض إلى لحظة الطلق أعمى. أرى امرأة صاغها الله من طينة وأعاد صياغة سجّيلها الشعر قافيّة ورويّا. حواسيّ ستّ معطّلة وبواسطة السمع تدرك أنّي على موعد من خرابي المؤجّل. إن بليت بالرطوبة عيناي، أو جفّ ماء القريحة، أكتبها وأنا تحت دفء المخدّر. أكتبها بانبهاري.

بودلير :

ما زالت أسنان قصيدة "بودلير" إلى حدّ اللحظة أسنان حليب. تلك القطّة شبّت عن طوق الرشد، ورغما عن ذلك لا تستعمل

معجون الأسنان ولا فرشاة "النيلون" سوى في لقطات الإشهار التلفازيّ. (السمسار الهاوي يغري القطّة بالفأر ويوصي لهما بكتاب "الأخلاق إلى "نيقوماخوس") ولا يدري من أيّ الأرواح السبعة إن ماءت ستموء القطّة.

الفرزدق :

كان يكتب فصلا طويلا عن الندم المتكوّم في الروح، والكسل المتكلّس في الجسد الغضّ. كان إذا مسّه الضرّ جادل شيطانه بالتي هي أحسن. من علّم الأرض سرّ الندامة غير الخطايا. الوسادة لا تكتب الشعر فوق سرير دخيل. "نوار" التي فعلت بالفرزدق ما فعلته الندامة بالكسعيّ بنت من هواجسها طللا في اليمامة توطئة لزيارة عاشق.

بيسوا :

من كشك تبغ قريب من الله صغت مشاريع هازئة للطبيعة فيما وراء الطبيعة. يصدر عن رئتيك الدخان، ومن رئتيّ صداه النقيّ. وعند تخوم البرازيل ينتحل البنّ لون الملائكة السود، والفستق الغجريّ لسان الحقيقة. عكّازة الخيزران ونظّارتان وقبّعة الخيش هي

التي سوف تسفر عنها نتيجة تحليلك المخبريّ لما في الطبيعة ممّا وراء الطبيعة.

المعرّي :

كمأة أوقفت نضجها ريثما يبلغ الطفل قبل الفطام أشدّه، فاز بها دون شيخ المعرّة صمت التراب. براهمة شحذوا بالبهارات أمعاءهم. ليتهم ما مضوا إذ مضوا. ليتهم رجعوا بحنين وخفّيه. حاف يخاطب منتعلا. ليس أرهف من قشرة الأرض إلاّ المعرّة. يخلع شيخ المعرّة نعليه. يخلع عينيه. يمشي على الأرض هونا. (مشى وهو حيّ على قبره ميّتا)

"بيكيت" :

ما هذه الأنواء يا "بيكيت"، تابوت ومحبقة ومبخرة وشمع في قرون الشمعدان؟ ببيت حارسة العمارة لا أرى في ظلمة التابوت إلاّ أنت منهمكا بتنظيف العظام من التقادم والرطوبة، والعظام اليوم ناميّة بفضل رضاعة الأطفال من ثدي صناعيّ حليب الأمّهات العازبات. عليك يا "غودو" المعذّب أن تدلّ زبور داوود النبيّ على زبون قارئ شهم شبيه بك.

تركيب :

يستفتى العرّاف الأكبر سنّا من هؤلاء الشعراء المرموقين. (القاصر منهم والراشد) عن إشكال "أونطولوجيّ" إن زاغ قطار العمر عن السكّة ما حلّت في الذات العليا أجساد يانعة لا عهد لها باستعمال قناع الأوكسيجين. ترى هل يجدي إنقاذ الغرقى بزوارق مطّاط مثقوب؟ (قصف الغوّاصة يجري تحت الماء) الناجي في بطن الحوت. الحوت غريق في اليمّ، ولا يدرى أيّهما أحرى بالإنقاذ على وجه السرعة. (أقوى من بارجة أسماك العنبر) يستفتى العرّاف الأصغر سنّا منهم عمّا يفعله ركّاب أحياء وصلوا دون حقائبهم قبل الإبحار بساعات في أوّل يوم من أيّار. وعمّا يفعله هجر ووصال بقلوب موصدة بالشمع الأحمر. مخصوم من ليل أعمى خمس ثوان من أجل تقاعسه عن إيقاظ الديك الناطق باسم الفجر، وألفا عام من هرم لم يفصح عن ساكنه حتّى الآن، وشهر شمسيّ من آلة تزييف العملة موقوف التنفيذ. (مباح صرف الدولار بسعر السوق السوداء) يقول العرّاف الأكبر سنّا، والعرّاف الأصغر سنّا من هؤلاء الشعراء المرموقين لزلزال عات : "بردا وسلاما يا سلّم "ريشتر" .

القصر الصغير، 2004.7.3

تنويها بحالات ضعف الذاكرة

عطالة :

تزن اللغات كلامها بالجرس والألفاظ والمعنى، وتودع ما تبقّى من رغاء القول في أعماق ذاكرة تنام مبكّرا، وتفيق بعد أفول شمس السهو من كبد النهار. النقع آخر ذرّة تبقى من الأحلام ما انقشع الغبار عن المخدّة والسرير. الطفل يكبر في قماط إشاعة، والشيخ يطفو فوق سطح الذات (يتّكئان من تعب على زمن الصبا) طيش يبرّره احتمال تنازل التاريخ عن تكرار غلطته مع الأجيال. ذاكرة معطّلة يعشّش في مغاورها غراب البين. في مخزونها الأبديّ : صلصال وماء آسن وحصى وطمي. يحضر الحاسوب عند غيابها بإشارة منّي. (أنا عرّابه مذ كنت) أنحت من رخامه صورة لي ثمّ أصقلها وأخرج خفية منها. أنا في سلّة الخوص التي سمّيتها

جسدا، وهو على حواشيها ملاك حارس. لا أستهين بغبطة الأنفاس من رئتيّ تحت الماء تمنع صوتيّ المقموع من حقّ التزلّج فوقه. الحاسوب إثر رجوعه من غفلة النسيان مملوء الوفاض، يحيل أسئلتي على المعلوم في المجهول ممّا تحتويه خزائن الأرض.

خراب :

حال دون احتفائي بذاكرتي أنها وسعت ما بسوق المزادات من قسس وسماسرة ومرابين. أذناي رهن إشارة مطرقة الآبنوس، (هي الحكم الفصل بيني وبين وسيط المزاد) وعيناي رهن إشارة سبّورة الضوء. ترسو عليّ "الدلالة". يعجبني اللبس عند ظهور النتيجة في خفقة الضوء. كلّ مزايدة هي محض مناقصة تتراوح بين كلام ورقم يسيل لعابي دما لهما، أتنفّس من رئة رغم عسر التنفّس في أختها. ما لعينيّ تمتلئان بما لا أرى، ولأذنيّ تستأنسان بما سأراه لأسمعه! قمقم خشبيّ، بقايا جماجم ملفوفة في قماش الحرير، كتاب معانيه ذابلة وحروف معانيه مغلقة، خاتم دون فصّ، (سليمان والسامريّ بها شيّدا هيكل الربّ) من يتوسّط لي عند آلهة الفنّ؟ أرغب في عرض هذي النفائس في متحف "اللوفر". (زوّاره رمّموا بحجارة أمس طلول غد، وهم الآن ذاكرة للخراب الذي كان)

جسر :

دون إذني حضر النسيان ميلاديّ قبلي. قبل أن يعرك طيني بغريني فتذكّرت : أنّ جسرا بين عنوانيّ واسمي متداع. وتذكّرت : أنّ داري بين عنوانيّ واسمي - دار لقمان - فضاء دون باب. وتذكّرت: أنّ صندوق بريدي بين عنوانيّ واسمي مثل لغم ذاتيّ التفجير حيّ. وتذكّرت : أنّ مهدا خشبيّا بين عنوانيّ واسمي ضيّق الصدر مشاع بين جدّ وحفيد. وتذكّرت : سحنة الوجه الخرافيّ يغذّ السير خلفي وأمامي لا لكي يمشي هونا فوق ظلّي بل لكي يفضح عنوانيّ واسمي. وتذكّرت : فوق نعليه غباري، وعلى رجليه آثار حذائي. وتذكّرت : كيف وجّهت سؤالا مستفزّا وجوابين صريحين إليه عبر عنوانيّ واسمي. وتذكّرت : أنه دلو بحبل سيّء الفتل وبئر دون عمق. وتذكّرت : أنّه يلبس عريي وهو أعرى منه مكسوّا بعنوانيّ واسمي. وتذكّرت : أنّه حين تخلّى عن سباق دخل العمر إليه واثقا بالفوز فيه زرع الساحة شوكا وقتادا بين عنوانيّ واسمي. وتذكّرت : قصب السبق الذي يتعب من حمل المسافة.

قربان :

من ذلك البطريق يحفر قبره في الماء؟ هل عجزت جناحاه عن التجذيف ؟ (أثقل ما يكون الريش فوق الطير مبتلاً) إذا جفّت مياه البحر حتى لا بوارج تمخر الأمواج، يبقى أنّ للبطريق ذاكرة بحجم الفيل ما زالت ترى موسى يشقّ البحر بالمنساة، ما زالت ترى بيت العناكب في شعاب الأرخبيل مهيّأ للشحن والإفراغ، يبقى أنّ بحر الأمس بحر غد، وأن سلامة الأحياء في أحشائه مسؤولة عنها شباك الصيد . كم ذا قلت للبطريق : "لو أنثى ولدت ولم تغيّر جنسك الأعلى، لكنت اليوم سابع طائر يمشي ورائي حارسا ظلّي وذاكرتي من الملح. استعد بالعنف ـ حين تكون بين يدي غرور الماء والأنواء ـ كلّ صفات طير كنته، ونعوت إنسان غدا ستكونه" . ثار البطارقة الذين كتابهم بيسارهم ويمينهم ضدّي (خليجيّ بكوفيّة، وخوريّ بعرف الديك) تابعت الكلام المرّ : "لا تغرق بكلّ سهولة حتّى تشيخ، لأنّ ذاكرة البحار شبيهة بالنيل يرفض أن يزفّ إليه قربان عجوز طاعن في السنّ !" .

تمرّد :

أكاديميّ ملتح أصدر أمره بإقصاء الرعاش المرضيّ عن علوم الطبّ عامّة وإدماجه في فروع علم النفس. (بين مشرطين يتألّه النطاسيّ) تمرّدت على الإقصاء والإدماج، واعتبرت أنّ حكمة الجسد في أعلاه والجنون في أسفله، وأنّ عادة انتقاله من الصحّة للمرض قمّة التمرّد، لذا طلبت من "بقراط" أن يهبني ذاكرة خاليّة من التوابل، وأن يفسلها ما بين أرنبة صدغيّ وشحمة قفاي، علّني أشرف بالفعل على آليّة اشتعالها : تخبرني بحالة الطقس، وحين يعقل الماء تفيض، وتغيض كلّما ركبه الطيش. تمرّدت على إفسال أذنين وعينين وأسنان بوجهي. ذاك حال جسد أوكل أمره إلى هاتفه المحمول. كيف حاله إن شحّت الأسواق عن تزويده بقطع الغيار ؟ (هل يمكن أن يشتغل الحاسوب دون فأرة سبق أن قوّضت السدّ) تمرّدت على تمرّدي.

مائدة :

طفل شيخ لم يلعب بطفولته إبّان طفولته، لم يدرك أنّ "الأمنيزيا" تتوعّده بالإهمال إذا شاخ. وشيخ طفل يلهو بطفولته الوهميّة في جسد معجون بالشيب الأبيض. موجودان معا من عدم

تال لوجود البيضة في أحسن تقويم قبل دجاجتها. حضرا مكفوفين وليمة عصر مكفوف يجترّ زمانا ولّى قبل أوان تداوله. (قل : إنّي شبعان إذا ما رفعت قبل مجيئك مائدة صاحبها أفلاطون !) لأمر مّا أجّل "نيرودا" سنّ طفولته في "إيسلا نيغرا" حتّى تنبت أسنان حليب في فكّيها. كسفينة نوح "إيسلا نيغرا" فيها من كلّ الأصناف المخلوقة زوجان اثنان : التيس الأنثى والشاة الفحل، النوتيّ الأنثى والبحر الفحل، الصبّار الأنثى والعوسجة الفحل. لأمر مّا أعفى "بينوشي" شيخوخته من حكم غيّابيّ بالإعدام.

قلعة :

على أنقاض ذاكرتي بنى عرّاف بابل قلعة النسيان. (فيها مبتداي) بنى بها المدن الفقيرة من نسيج الخوص والحلفاء. (فيها منتهاي) بنى بها سفنا فضائيّة ستعرج نحو باب الله. (للاّهوت قصر إقامة فخم على قمم الكواكب) لا أمانع أن أرافقها إلى حيث المدى ونهاية الملكوت. إنّي دونها كينونة وبها سديم. تحت نير الضوء في الحانات، في علب تنام الليل صاحيّة، سأفرغ محتواها كي أوزّعه بكلّ تجرّد - حسب النظام الأبجديّ - على عراة يشتهون - إذا اشتهوا -. (عجبي من العريان يطلب خاتما وبفصّها ياقوتة زرقاء)

يخطئ من يظن بأنّها يوما ستمنع كنزها من طاعتي. منفاي فيها. كيف أتركها وأخرج سالما كالجمر من نفق الرماد ؟ إذا رجعت إلى المفكّرة التي في جيبها ستصيبني وتصيبها أعراض ربو مزمن، لو أنّ يوما ناشزا عن وضعه المعتاد في التاريخ آثر أن يؤجّل موته. (الإسراء نحو البرزخ الأعلى طفوٌ في رسوب أيّها الحالم !)

أصابع :

لا تشفيني من داء النسيان المقصود سوى ذاكرة فيها أزرار : زرّ لحراسة ما أجهله من عدوى العلم، وزرّ لاستحضار الأرواح، وزرّ لاستدرار العطف على ماض موقوف التنفيذ، وزرّ لحساب خساراتي / أرباحي من مدخول حقوق التأليف، وزرّ لاستجلاء غوامض ما أهمله التاريخ، وزرّ سرّيّ أخفي في موقعه إكراهات الصيت، وزرّ لاستقبال الموجات الصوتيّة والصورة من دون هوائيّ. من لي باستنبات أصابع أخرى زائدة في كفّ يميني للضغط على هذي الأزرار جميعا في نفس اللحظة. من لي باستدراج الموتى والأحياء إلى فخّ منصوب للإيقاع بهم وإقالتهم منّي وهموا في وضع نفسانيّ جدّ مريح، وأنا في أزهى حالاتي. من لي بجهاز آليّ لا يصلح إلاّ للعدّ العكسيّ لتسهيل قياس مدى الضغط الدمويّ العالي

في شرياني التاجيّ ؟! (كلام الأرقام يمينا مختلف عن معناه يسارا)
تكرار، تكرار، تكرار.

"كورال" :

"الفـداوي" الذي كنت أرتاد "حلقـتـه" كل يوم مسـاء "ببـاب الفتوح" تفضّل واختارني دون غيري "لكوراله" صوته والصدى، ولشيطان أشعاره راويّا. لا أصفّق ملء يديّ على الكلم الفصل إلاّ إذا خرج الزبد المتطاير من شفتيه. (سعادة أمس وبؤس غد، واحتمال تدرّن صدر الزمان المقابل للأمس والغد) "يا ولدي !" قال لي : "سوف يأتي زمان على الناس فيه تقام الصلاة على ميّت طوطميّ ينظّف أسنانه من فضول الكلام الرشيق بعود الأراك". وتابع مخترقا سجف الحدس : يا ولدي !" يسرقون الخطى والمسافة والماء والرمل والرخويات لتخصيب حبّ "اليورانيوم". ("ألفا" و"بيطا" معدّلة بالوراثة) يحتفل الطوطميّ بذاكرة عيد ميلادها الألف تحضره وحدها بالنيابة عن نفسها. آه كم هو شاقّ حضور الغياب !

أوسمة :

سبق لي أن اقترحت أن يكون موت "سالازار" يوم السبت أو في ليلة الأحد حتّى تتوزّع الأسابيع على أيّامها، ويضبط المؤرّخون الطقس وفق ساعة الهيكل والدير على دقّات قلب "جزر الأسور"، كي تصبح "ثورة القرنفل" من الألف حتّى الياء معجما يسمّي كلّ يوم باسمه. تطلّب الأمر اختراق حرفي الشدّة واللين وإقصاءهما بالفعل من ذاكرة الأيّام. ما حالك يا من وضع الأسماء في القمطر والألقاب في الصدر، ووزّع الأسابيع على محاكم التفتيش، واستنفر أوسمته عضوا فعضوا، وبدا للناس في منصّة الشرف منشورا على حبل غسيل؟ (تعبت من حمله اللغة فوق نعشها) إيّاك أن تترك رأسك على مخدّة الصوف بدون جسد تحت ذريعة احتفاظك بدفء الروح ! إن فعلتها سوف تكون مجبرا على ابتيّاع جسد مناسب للرأس من مستودع الأموات. ما ثبت أنّ ميّتا حمل ذاكرته معه في كفنه الحريري.

تعليق :

والآن حتّى الآن، لا ينقطع الجدل بين "جزر الأسور" إلاّ عندما تكفّثورة القرنف" عن النقاش خوفا من ذبول الطقس في محطّة

الأرصاد حيث السبت والأحد يوما عطلة لراحة التوراة والإنجيل والباقي من الأسبوع أعياد. وفي انتظار من يأتي لكي يجرّد القمر من أرقه والشمس من سباتها، يعتذر المناخ عن تقلّباته على الشاشة، عن تموّجاته على رخامة اسطرلاب :

العيد الأول للزوجين الصورة والظلّ،

والثاني للثالوث المقسوم على واحد،

والثالث لاستلهام رماد النار "الإيليوتيّة"

والرابع لاستيلاء الخمّاس على نصف المحصول.

والخامس لاستمرار الموتى أحياء في وجدان الوهم.

عناكب ماردة تتسلّق قصر الرئاسة من بابه دون ذاكرة. ومواليد في المهد يستأذنون المراضع في حمل أسمائهم كلّها بالنيّابة عن بعضها دون ذاكرة. وسلاحف موهوبة بالسليقة تزحف في الرمل نحو المدى دون ذاكرة. وبغايا عرايا يناشدهنّ زناة ضفادع ألاّ يخفّضن أسعارهنّ لنوتيّة دون ذاكرة. وسلال خريفيّة لا تضمّ من العنب المتخلّف عن موسم الصيف إلاّ عناقيد غاضبة دون ذاكرة. وقياصرة كلّما تعبوا من حصار يقضّ مضاجعهم، دفعوا تهمة القيل والقال عنهم بإخصاء أوّل حرف من الكلمات الحوامل. هل

يستطيع الخصيّ بحيّاده أن يوقّع باسمه عزل وزير خديج وتنصيب تمثاله دون ذاكرة ؟ قالب الشمع يخلق من شبه أربعين يذوبون في النار والماء صابئة ومجوسا بما فيهما من وجوه التشابه. عند النهاية يسري المخدّر من بصمات الخصيّ إلى سطح لوحته. يتحرّش باللون والضوء فوق القماش. يحاصره ويؤطّر فيه المساحة عذراء. يجبر خاطرها. يتماهى بها. يتوغّل في جرحها المتعفّن. ينكر توقيعه المتسايل فوق الصديد. وبالأحرف اللاتينيّة يثبت ما كان ينفيه بالأحرف العربيّة.

البيضاء. فاس. تازة، 2004.10.15 - 2004.11.8

خذ المبادرة بحثا عن الأجمل !

(1)

النواة التي أنجبت حبّة التمر من سعف النخل أبدت تحفّظها من دعاة إذا استعملوا لبّها في علاج الخصوبة لا يسمحون لقشرتها بممارسة العقم، أو باختيار الولادة دون لقاح ومصل ودون مولّدة. (فالق الحبّ ! يا مخرج الحيّ من ميّت !) تتحدّث باسم المجاعة كلّ اللغات.

(2)

على لصوص سرقوا صومعة أن يحفروا بئرا لإخفاء الجريمة يوازي طولها وعرضها. (أوّل من وضع للجبّ خريطة ومرآة رأى "نرسيس" فيها وجهه الجميل هم إخوة يوسف) ترى من يفصد الدم من الرقاب لو علقت التهمة بالحجّام ؟

(3)

لم أيتها الغادة الغجريّة حين رأيتني مارّا وقفت أمامي وأرغمتني عند باب المغارة ألاّ أوقّع صكّ التنازل عن سدّة الملك ؟ لم أحتجب عنك خلف حصانة منتخب بالوراثة، إذ ليس من خلقي أن أكابر حتّى ولو مجبرا غمرتني الإشاعة من كتفيّ إلى قدميّ.

(4)

ما للشمس الصيفيّة لمّا أعيتها الحيلة عن تحصيل الرزق استغنت عن توليد الطاقة من زيت الفانوس السحريّ، وألقت في روعي أن الأرحام إذا شاخت لم تستنكف أن تولد منها أجيال دون رؤوس. يا "كافكا" يكفي طرطور محشوّ بالقشّ لإخفاء المسخ الآتي !

(5)

لم يمكن للدرويش الجوّال أمام غياب الحجّة إلاّ توزيع التهمة بالقسطاس على فقرات الليل المظلم واستبعاد الشوّاف الأعمى عن تدبير التأويل المغرض للرؤيا. لو أعطينا للقرن دلالته الرقميّة لامتد العمر بثور "الكوريدا" مائتي عام. ما من شكّ في تصديق رئيس البنك الدوليّ على هذا التأويل المعقول، وإلاّ ما كان له فضل السبق

إلى تطبيق الزيّادة في أسعار المحروقات بقانون رجعيّ. (يا لشراهة عمّال خراج الأرض المفتوحة غصبا !)

(6)

ممّا تبقّى في الرحى الصمّاء من درد وفيتور، نثرت الصمت من قمم الكلام، على الفلاسفة الذين تضايقوا من عصرهم، (أسطورة شخصيّة بكر) ولم أعرف متى يأتون لاستخلاص راتبهم مكافأة على استغلالهم أدوات الاستفهام مجّانا بحجّة أنّهم خرجوا من "الفوروم" مذعورين.

(7)

دخلوا إلى البوغاز في عبّارة خشبيّة، أمّا أنا فدخلته من فقرة سحريّة مختارة ممّا تبقّى من كتاب البحر.(من غيري يفكّ رموزه؟) وعبرت. لم أغرق ولم أتملّق التيّار. أسبح ضدّ مجراه. أطارد جنيّات يختفين إذا ظهرت، وفجأة يقصفن مجذافي ويستسلمن. من ضاقت به الدنيا بما رحبت يلوّح للنجاة بخرقة بيضاء.

(8)

جبّانة فرضت على الموتى رسوما فوق ما أدّوه عند الدفن إن همّوا بترك لحودهم وقضاء فترة راحة فوق التراب، لأنّهم تعبوا من التنقيب عن سرّ الخلود. (النبتة البرّيّة الخضراء لم يعثر عليها غير "إنكيدو") ولمّا لم يكن بدّ من استئناف موتهم ونفض غبارهم عن شاهدات قبورهم نفثوا جميعا ما ترسّب في رئاتهم من الماء.

(9)

يطالب الفجر بتقديم اعتذاره إلى الديك إذا أبطأ في نشر غبار الصبح فوق قشرة الأديم. من يخطئ في ترجمة الليل بما فيه من الحلم يحمّل النهار وحده تبعة الأرق. يصحو الديك قبل الفجر. يعكف على تشحيم صوته إذا تعب من ثرثرة الصمت. ينام الفجر ساعة ويصحو بعدها (نومة أهل الكهف لا توقظها جلجلة الصور) إذا تصالحا تبادلا العناق من مسافة بعيدة.

(10)

من أجل مرور الماء العذب بتقسيط من قادوس الدرب إلى "سقّاية" دار في طور التأسيس (العذريّة هي الأخرى يفتضّ

بكارتها أنبوب مغناطيسيّ) سكان "زقاق البغل" احتشدوا حولي. ساروا في شبه مظاهرة لم تبلغ حدّ العصيان وراء خبير "أوروتوازيّ" . (باحت أحجار النفط له بالحمل الكاذب) ما اجتازوا "رأس التيّالين" بأمتار حتّى سال الماء دما في شريان الدار.

(11)

في المقعد الخلفيّ من سيّارة الأجرة وجّهت إلى السائق صدفة سؤالا شائكا : "من منكما يمشي نيّابة عن الآخر، من يقفز بالزانة كي يبلغ أسباب السماء أو يطير بالمظلّة ولا يبعد عن منطقة الإمكان ؟" فوق مقعدي أمشي ولا أصل، (حاف ويؤجّر خطاه لكسيح) عجلات أربع وأقنع السرعة والبطء بتقليص مسافة تسيل تحت نعليّ وفوق قدميّ.

(12)

الأولى من دون الناس جميعا بحوار الطير "الشيخ فريد الدين العطّار" . "الشيخ فريد الدين العطّار" تخلّى عن معجمه الثرثار ملحّا في هذا الظرف على استكناه لسان الحال الناطق باسم العصفور / الببغاء / الشاهين / النورس. في أقفاص من أغصان

البلّوط كمين لا تنجو منه النخبة والغوغاء. امتدّت بي سنوات العمر إلى أن شاهدت التعقيم الكيماويّ يعرّي ريش الهدهد من بلقيس، وريش "السيمرغ الهنديّ" من "النيرفانا" (أغرت حوّاء اللقلاق الإفريقيّ بتفّاح الهجرة) من عادة سكّان "الغيتو" توشيح قلانسهم بالريش، وتوزيع يمام وحبارى بريّين على محميّات "أغادير" نزولا عند إرادة مختصّين كبار يستثنون الداجن من سجن الأقفاص. العصر الطاووسيّ (خلاسيّا وأصيلا) منذور للزينة والعصر الديكيّ (أصيلا وخلاسيّا) متّهم باستنشاق غبار مشبوه.

(13)

مكفوف ورهن إشارتي قمر وشمس مشرعين، (ظهيرة وتضيئها شمس وبدر لا ينير سوى مساحة قرصه في الليل) من خوف ينيط "الأرلكان" المسرحيّ بكلبه "البلدوغ" أمر قياده، ويقيل دون تردّد عكّازه من محنة المشي المعقّم ضدّ داء الحلّ في الترحال. من خوف يهشّ على شياه ضالّة بعصى له فيها مآرب جمّة أخرى. (يدي ويد المولّدة العجوز ويولد الطفل المروّع من مخاض زائف) خوفي على عينيّ لا من آفة المشي المعقّم بل من الخطإ الذي يغتال أسماء الشوارع والأزقّة. يضرب الأخماس في الأسداس من يمشي بلا

رجلين أو تمشي به الرجلان. (لو صدق المنجّم "أرخيميد" لأعجز العشّاق مهر بنات نعش ثيّبات كنّ أو أبكارا !)

(14)

من سكّان المرّيخ أناس لا يبكون بكاء مجّانيّا إلاّ إن كانوا مأجورين. عيون ملآى بالدمع الكافي لكتابة تقرير عن بؤس العالم لم يكتبه على رقّ غزال حيّ إنس أو جانّ. يرجى من هؤلاء الباكين بأجر أن يقتطعوا من عمر الدنيا قرنا أو عاما أو شهرا أو يوما لاستقطاب ثمالات الأجرام العليا وحيازتها طازجة قبل جمود الشمع الجافّ على أطراف حواشيها. (بالنار يريق الفولاذ المغرور خباياه على سندان الحدّاد) هنا في المرّيخ إناث محجوبات في أزياء ذكور من عادتهم إبقاء البكر بتولا والثيّب مشروعا لبغيّ فاضلة. (لا تثريب على قانون الصدفة يستغني بالوجه المثلوم عن الظهر المطعون من الخلف) لماذا لم يمنحني هؤلاء الباكون دموعا تكفيني لكتابة أسمائي في بلقيس ؟ لماذا لم يمحوا مرآتي من وجهي ؟ (مرآتي إن عشيت أجلوها بمناديل حريريّة كيلا أبصر غيري فيها)

(15)

كم أسديت النصح إلى الحطّاب وكم حذّرت الجرّاف المسنون من استئصال التوتة. (فرعاء عقيم في ساحة حيّ "المخفيّة"، جرداء ولود في ساحة حيّ "الصاغة") تمّت بالإجماع مصادقة الأطراف المعنيّة بالأمر على تجريد الساحات الكبرى من آثار الأشجار الألفيّة. شحّ التاريخ اليابس واليانع مما يسري من نسغ الأجيال العليا في السفلى. لم يسفر منهاج الشكّ العلميّ سوى عن فرضيّات بناء في هدم. كان المسؤول الرسميّ عن استئصال الظلّ الوارف عريانا. (دور الأزياء الكبرى لا تخفي سوأتها أوراق التوت) وكان الجرّاف المسنون معدّا لاستبدال الأشجار / الأنصاب بألعاب الأطفال (التوتة نصب تذكاريّ منذ سقوط التفّاحة ناضجة من أعلى غصن فوق دماغ "نيوتون") ولمّا دبّت في الورش الروح جرت أشواط اللعبة في جوّ ودّيّ بين "أراجوز" لاهوتيّ ومشغّله تحت رعاية خيط أمضى من سيف، لم يهتمّ بما يجري في الساحة إلاّ "كوسمونوطيّون" هواة لم يمنعهم أنصار البيئة من تدبيج مديح للتوتة. (كم هو بذيء تجريد الحكمة من ثوب الحشمة) يا "فوكو ياما" اركب أعلى ما في خيلك ! طاردني ! لن تدركني ! لن تدركني !

(16)

بضعة آلاف من الأموات طوعا غادروا الحرفة قبل زمن التقاعد القسريّ دون أن يتمّوا أشهر الرضاع والفطام. (يا ليت لنا من الكنوز مثل ما أوتي "قارون" !) تورّط الزمان في المكان لذهول الليل عن محجّة النهار. يا خزينة الدولة ! هل فيك الكفاية من المعدن والأوراق والحبر لتعويض رؤوس بمؤخّر صداقها ؟ (إذن، يبطل كلّ عمل تسبقه الأجرة) إن تقاعس العمر عن رسم التجاعيد على الجباه أو ضربت السكّة باسم صيرفيّ ماهر، (من رأس مال الأرض يمتلك تسعين من الأسهم) فالأسواق لن تخلو من مزيّفي النقود. يا خزينة الدولة ! أيّ ميّت يقدر أن يستنفر الأعداد في لعبة اليانصيب ؟ أي ميّت يصدّق الرقم الذي تفرزه القرعة ؟ ما هناك غير رحّل يستمرئون غضب الريح على الرمل ولا تعجزهم غطرسة الشتاء في الصيف على سواحل الخريف.

(17)

وأنت تذرع الشوارع يمينا ويسارا وعموديّا وأفقيّا، فهل صادف أن لامست في "معرّة النعمان" معطف المعرّي بجناحيك ؟ وهل حدث أن هرّبت طيفه الضرير وتستّرت على مخبئه السرّيّ ؟ إن سقطت الأرض فريسة لآخر انقلاب عسكريّ كيف يمكنك أن تسير

هونا مثله في كوكب فرضت السلطة حالة الطوارئ على سكّانه ؟ (مقبرة شاسعة تحدّها من الجهات الستّ أنهار وآبار وبحر) أينما ولّيت وجهك فثمّت بقايا جثث. تنتزع الروح من الجسد غيلة، إذا تقابلا وجها لوجه عند باب البرزخ الأعلى فمن ينوب منهما عن الآخر في إزالة الصدإ عن حقيقة التراب، عن نسبيّة الكبريت في الطين. إذا تقابلا وجها لوجه عند باب البرزخ الأعلى فمن يسبق منهما إلى تأكيد هويّته وهو مفصول عن الآخر ؟ تحت ظلمات الليل كان السيف أسبق إلى مأدبة الدم من العذل. (يا محترفي القتل الجماعيّ تراب كلّ ما فوق التراب !) نثرت شواهد القبور فوق صفحة الأديم. كلّ جثّة وحظها : مراهق مات وهو يتهجّى جسدا أنثى على جسده، ومرضع موؤودة مكان طفلة، وطفل قاصر مكان شيخ هرم، و"بحتريّ" لم يكن حال الحياة غير "ديك الجنّ". أيّ جسد يجرؤ أن يقدّم اعتذاره لروحه وهو بين السيف والنطع ؟ طريق البرزخ الأعلى ملغّم، فإن كشفت عمق الطبقات السبع تحت قدميك، فاعترف للسطح بالإعجاز ! سر كالبهلوان فوق حبل مرهف، (يسير فوق البيض عابر سبيل متحفّز ولا يفقسه) وقل لثقل الجاذبيّة كلاما مبهما وتابع السير إلى "معرّة النعمان" ! لا أجمل من غوصك في القرار قبل أن تطير بجناحي ملك / قطاة ؟

فاس، 2005.19.10 - 2006.2.1

طريقة ناجعة لتشريح الصوت

عادة لا أقارن صوتي بظلّه إلاّ إذا ملّ خطويّ من سرعة المشي فوق الرمال ولم تمح آثاره الريح. عند احتفائي به أتمسّك بالسير خلف صداه. المجهّر يستر عري الدلالة إن فضحتها العبارة، والبوق يكتبها بالحروف الغليظة. سيف ويعمل في غمده، ويدان معطّلتان ولا من يردّ التحيّة. أعلم أنّ إرادة قتليّ غدرا مقرّرة سلفا، فلمن أتوجّه بالشكر للسيف أم لليدين ؟ دمي يتدفّق، يشخب والسيف محتقن فوقه يتثاءب. ينبع من ملكوتي. يصبّ ودائعه في الشرايين. (يصلح للسقي مائي المعقّم، أمّا دمي فتراث) لهذا العذاب المؤجّل صوت، وللخرس المتلاطم صوت، وللأخذ والردّ صوت، وللنقرات الرتيبة من خرصة الباب صوت، وللقارئين افتتاحيّة كنت أكتبها في الجريدة صوت، وللقبّرات الدفينة في الثلج صوت، وللببّغاء ثلاثيّة

اللون صوت، وللهذيان المجنّح صوت، وللحرف بين المخاض وعسر الولادة صوت، وللسيف والنطع صوت، وللبئر رغم "سيزيفيّة" الدلو صوت، و"للكافيار" من النهر والبحر صوتان : عذب زلال وملح أجاج. زفير الزلازل مختلف عن شهيق البراكين. أبلغ من لغة الماء والنار لم تلد الأرض. (ما ينفع الناس يمكث في الحرث والنسل) تقضي الضرورة أن تنشئ النظم اللّغويّة مختبرا بابه نصف موصدة ونوافذه من زجاج مقوّى وفيه أنابيب ضيّقة ومحاليل مائعة، وجهابذة علماء لهم هيبة ووقار (نتائج أبحاثهم تتغيّر كالطقس) يدفعهم حبّهم للكلام إلى رشّه بالمبيدات. (جرثومة الصوت في النبر) كيف أردّ إلى الكيميّاء اعتباره؟ إن كان جبرا لخاطر آدم فالخيميّاء أحقّ بفتح حوار مع الصمّ والبكم. (لم يبلغا بعد سنّ التقاعد) معجزة الصوت مجبولة بتوابل سحريّة كلباس التنكّر. (لا يستهان بما سوف تأتي به الريح)

فاس، 2006.7.1

فهرس المحتويات

دفاتر بلقيس 7

صـدر عن



وزارة الثقـافة

محمد السرغيني
الأعمال الكاملة

الجزء الأول
الدواوين الشعرية

ما قبل الأشعار الأولى
الأشعار الأولى
ويكون إحراق أسمائه الآتية
بحار جبل قاف
الكائن السبإيّ

■

الجزء الثاني
الدواوين الشعرية

من فعل هذا بجماجمكم؟
احتياطي العاج
من أعلى قمم الاحتيال فاس
دفاتر بلقيس

الثمن:
45 درهما